تاريخ الجاهلية

تأليف

الدكتور عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

منشورات

دار العلم للملايين

بيروت

تاريخ الجاهلية

تأليف

الدكتور عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

منشورات

دار العلم للملايين

بيروت

١/ ٣٠٠٠/ ١٠/ ٦٤

جمادى الثانية ١٣٨٤
تشرين الأول ١٩٦٤

الكلمة الأولى

هذا كتاب في تاريخ الجاهلية : تاريخ العرب قبل الاسلام . غاية هذا الكتاب أن يقصّ تاريخ العرب منذ أقدم الازمنة التي وصلت الينا منها أخبار عن العرب الى ظهور الاسلام ، أو الى هجرة المسلمين من مكّة الى المدينة على الاصح ، **لأن تاريخ الجاهلية هو تاريخ العرب الذين لم يدخلوا في الاسلام .**

في هذا الكتاب محاولة لنسق أخبار الجاهلية نسقاً تاريخياً متوالياً مربوطة بأسبابها ونتائجها ربط تعانق ، بخلاف ما عليه كتب تاريخ العرب قبل الاسلام : تجد في تلك الكتب **مقالات** مستقلّة تسمّى فصولاً : فصلاً مستقلاً في تاريخ الغساسنة ثم فصلاً مستقلاً في تاريخ المناذرة ، كأن تاريخ الغساسنة قد بدأ وتطوّر ثم انتهى قبل أن يأتي المناذرة الى الحيرة . وتجد قبل ذلك أو بعده فصلاً في أيام العرب مستقلاً أيضاً كأن أيام العرب لا صلة له بتاريخ المناذرة وبتاريخ الغساسنة.
ثم لا يجوز لنا أن نبالغ فنزعم أن تاريخ العرب في شبه جزيرتهم كان مقطوعاً عن مجرى الاحداث في العالم الذي حولهم : اذا كانت الجيوش الاجنبية لم تخترق رمال شبه جزيرة العرب ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن لليونان والرومان والروم ولا للفرس والحبشة آثار ظاهرة في تعاقب الاحداث العربية قبل الاسلام .

وفي هذا الكتاب أيضاً أحببت أن أستفيد من آراء ابن خلدون في العصبية فحاولت أن أبين أثرها في تطور الحياة العربية .

وفي هذا الكتاب نلاحظ أن تاريخ العرب قبل الاسلام ليس طويلاً : انه أقصر مما كنا نتخيّل . اذا كان عدي بن ربيعة قد توفي عام ٥٣٠ م ، وكانت حرب البسوس قد دامت أحداثها أربعين سنة ، كما يقول أهل الاخبار ، فمعنى ذلك أن

حرب البسوس بدأت عام ٤٩٠ م قبل ظهور الاسلام بمائة وعشرين عاماً . لا ريب في أننا نعرف أحداثاً وقعت قبل ذلك ، ولكنّ معرفتنا بتلك الاحداث جاءت من الرواة مجرّدة من كل تعليل : وثقتنا بتلك الاحداث تفترض أننا نثق برواتها فقط . فاذا نحن أتينا الى التأليف بين هذه الاحداث صعب علينا جداً أن نربط بينها ربطاً واضحاً .

اني أرجو أن تكون هذه المحاولة مفيدة ؛ ولعلّي سأزيد أحداث الجاهلية وضوحاً في طبعة تالية من هذا الكتاب ، أو لعلّ غيري سيبدو له فيها رأي أو منهاج .

ع.ف

بيروت ٤ جمادي الآخرة ١٣٨٤ ،
١١ – ١٠ – ١٩٦٤ .

فهرست الموضوعات

المصادر والمراجع

الحَديثُ رِوايةٌ ودِرايةٌ[1] :

الحديث هو الأقوال المَرْوِيّةُ عن مُحَمّدٍ رسولِ الله من الاحكام والآراء والاخبار والآداب . وقد وصل الحديثُ إلينا بالرواية نقلاً عن رسول الله : نقله أصحابُه عنه ثم أدّوْهُ الى الجيل الذي خلَفَهم ؛ وأهلُ هذا الجيلِ أدّوْهُ إلى من تلاهم ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل الى الذين دوّنوه . وللحديث سَنَدٌ يجب أن يكونَ مُتّصِلاً : ان يكون كلّ راوٍ قد عَرَفَ الذي روى عنه ؛ كما يجب أن يكون جميع رجال السند ، جميع هؤلاء الرواةِ ، ثِقاتاً مشهوداً لهم بالايمان والصدق والعلم والنزاهة .

على أنّ الاستيثاقَ ، في رواية الحديث ، بصحّة الرواية وحدَها ، لا يكفي . يجب أن يكونَ للمُحَدّثِ ، أي للعالم الذي يحفظ الحديث ويحدّث بها الناسَ ، دِرايةٌ : علمٌ بالأحاديث المروية عن رسول الله يتعلّق بمعناها وألفاظها وبالأحوال التي قيلت فيها وبالغرض المقصود منها يومَ قولها . وقد يكون الحديث صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ولكنّه مَنْسوخٌ ، أي أُبْطِلَ العملُ به في أيام رسول الله نفسه . فعلى المحدّث ، إذَنْ ، أن يكون جامعاً بين صحة الرواية في الحديث وبين سَعَة الدراية به وبالأحوال الملابسة له .

---

(١) قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي (دمشق ١٣٥٣ هـ) ص ٥١ — ٥٣ ؛ مصطلح الحديث لعبد الغني محمود (مصر ، الطبعة الثانية ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م) ، ص ٢ — ٥ .

والتاريخ كالحديث خبرٌ مَرْوِيّ عن الذين تقدّمونا ، فيجب على المؤرّخ أن يكون جامعاً بين صحّة الرواية للحوادث التي يحاضر بها أو يؤلّف فيها وبين سَعَة الدِراية بالأحوال المتّصلة بتلك الحوادث .

هذه الاصولُ في الاستيثاقِ من صِحة الحديث تعرف عند العلماء المسلمين باسم « مُصْطَلَح الحديث » . « والواقع أن الميثودولوجية [1] الغربية ... ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تَمُتُّ اليه بِصِلَةٍ . فالتاريخ دراية ورواية كما أن الحديث دراية ورواية . والقواعد التي وضعها الأئمّة (المسلمون) منذ قرونٍ عديدة للتوصّل الى الحقيقة في الحديث تتّفق في جوهرِها واتّجاهِها والأنظمةَ التي اكتشفها علماءُ أوروبةَ فيما بعد في بناء علم المثودولوجية . ولو أن مؤرّخي أوروبةَ في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطّلعوا على مُصنّفات الأئمّة المُحَدِّثين لَمَا تأخّروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الثامنِ عَشَرَ . وبامكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكّد لهم أن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ؛ ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده » [2] .

*

على أننا في هذا الفصل سنَقْصُرُ الكلام على جانب الرواية فقط . فبما أن التاريخ اذن ، في أبسط أوجهه لا في أصحّها على كل حال ، خبرٌ عن الماضي ، فعلينا أن نكون أولاً على ثِقَةٍ من صِحة هذا الخبر الذي نُقل الينا . وطريقنا الى الماضي هو المستندات التي بَقِيَتْ لنا أو وصلت من ذلك الماضي . فلا بُدَّ لنا اذن من درس هذه المستندات التي تُقسم مصادرَ ومراجعَ .

---

(١) الميثودولوجية : الوسيلة المنطقية التي ندرس بها المعارف الانسانية (تنظيم الدراسة على أسس من التدرج والمنطق والبرهان) .

(٢) مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (بيروت ١٩٣٩) ، الصفحتان : و ، ز .

المصدر هو المُسْتَنَدُ الذي بَقِيَ لنا أو وصل الينا من العصر الذي نريد دراسة أحواله . والمستند يكون أثراً ظاهراً أو بناء باقياً أو وثيقة مكتوبة أو كتاباً مدوّناً . فالحِرار : (جمع حرّة) ، أي الأراضي البركانيةُ المنتشرة في الشّمال الغربي من شبه جزيرة العرب خاصة ، ونقش النمارة [1] والكعبة المشرّفة وما يشبهها من الأبنية الباقية ثم القرآن الكريم ، كلّها مصادرُ لدراسة أحوال العصر الجاهلي الذي هو موضوع هذا الكتاب .

ويلحق بالمصادر المتعلّقة بالعصر الجاهلي اللغةُ التي وصلت الينا من الجاهليين والأمثال والاشعارُ والخطب والوصايا ، وان لم تكن قد دوّنت في الوقت الذي نشأت فيه ، لأن الاجماع على صِحتّها (أو على صِحّة الجانب الأكبر منها) يقوم لها مقام التدوين .

---

(١) نقش النمارة كتابة على شاهد (حجر منصوب على قبر) بالخط النبطي (بعض أحرفه تشبه الخط الآرامي وتكتب متصلة ، وبعضها يشبه الخط العبري وتكتب منفصلة) . يتألف هذا النص من خمسة أسطر (نحو خمسين كلمة) . بعض ألفاظ هذا النص عربية فصيحة ، وبعضها عربية غريبة وبعضها سامية غير عربية على الحصر (آرامية ونبطية) . ولا يبدو على كلمات هذا النقش اعراب. وهو يرجع الى عام ٣٢٨ للميلاد (راجع العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ٢٢٦ – ٢٢٨ ؛ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٣ : ٤٣٧ – ٤٤٧ ، ٤ : ٣٣) .

– هذا النص لا يمثل اللغة العربية المعاصرة له (اللغة التي كانت قبل نحو مائة عام من لغة المعلقات التي وصلت الينا وقبل ثلاثمائة عام من لغة القرآن الكريم) لأن لغتنا العربية يجب أن تكون قد تمت على ما كانت في الشعر الجاهلي قبل هذا النص بقرون كثيرة . فالنص هذا اذن يجب أن يكون مكتوباً بلهجة محلية ضيقة . وكلمة « بر » هي كلمة «ابن » بالآرامية . أما كلمة «ملك» فلا يجب أن تعني أكثر من «شيخ ، رئيس » . وكلمة « عرب » تقابل كلمة « بدو» . واذا اتفق أن يكون هذا الملك ، على افتراض صحة فهم النص فهما تاريخياً ، قد حارب عدداً من مشايخ العرب وهزمهم ثم ملك (تغلب) على قبائلهم ، فانه لا يزيد على أن كان في خدمة الروم والفرس (كما يذكر النص نفسه) لجمع الضرائب للروم والفرس ولصد هجمات القبائل عن تخوم امبراطورية الفرس والروم (بجنود عرب وغير عرب) . وليس في هذا النص من القيمة التاريخية أكثر مما نجد في تاريخ المناذرة والغساسنة من محاربة هؤلاء للقبائل (النجدية البدوية) في خدمة الفرس والروم . ثم ليس له قيمة لغوية للغتنا العربية ، لأن لغتنا العربية كانت ، لما كتب هذا النص ، قد بلغت في التطور مبلغاً كبيراً جداً .

أما المَرْجِعُ فهو عادةً الكتابُ الذي كُتِبَ عن عصرٍ ما، ولكن بعد انقضاء ذلك العصر. وكلّما كان المَرْجِعُ أقربَ الى العصر الذي يعالج أحداثه وأحواله كان أهمَّ وأوثق.

والمراجع نوعان أساسيّان:

هنالك مراجع اعتمد مؤلّفوها كُتُباً ضاعت. إن أبا الفرج الاصفهانيَّ مؤلفَ كتاب الأغاني يسمّي في ثنايا فصول كتابه كتباً اعتمدها ونقل منها، ولكنّ هذه الكتبَ لم تصل الينا. من أجل ذلك يلحق كتاب الأغاني بالمصادر، فهو مَرْجِع بمثابةِ المَصْدَرِ؛ ونحن نعدّه اليوم من الناحية العملية مصدراً من مصادر الحياة الجاهلية.

وأما النوع الثاني من المراجع فيتناول الكتبَ التي اعتمد مؤلّفوها مصادرَ ومراجعَ لا تزال موجودة بين ايدينا، ككتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان. ان هذا الكتاب يعتمد كتباً نَعْرِفُها فيجب، اذا كتبنا في تاريخ الأدب العربي، ان نرجع اليها هي لا اليه هو. ولكنّ للمرجعِ الذي هو من طبقة كتاب تاريخ آداب اللغة العربية (في اتساعه وشموله ومحاولة اثبات عدد من المصادر والمراجع بعد كل ترجمة لشاعر او خطيب او لغويّ او نحوي) فائدتيْنِ:

أ — الاستدلالُ على مايتعلق بالأديب الذي نريد دراسة آثاره في وقت قصير، او الرجوعُ اليه في استطلاع خبر أديبٍ استطْلاعاً عارضاً.

ب — قد يتفق ان نجد في مثل هذا المرجع ملاحظةً او تعليلاً او تفسيراً يكشف بعضها لنا جانباً من حياة ذلك الأديب ومن خصائصه.

اننا من المصدر نأخذ الحقائق والآراء؛ أما من المرجع فنأخذ الآراء فقط.

*

وتُقسم المصادر من جهة ثانية قسمين: مصادرَ أساسيةٌ ومصادر مساعدة:

حينما نريد أن نؤلّف في تاريخ الحِقَبِ فاننا نعتمد بطبيعة الحال مصادرَ

أساسيةً ، أي مصادرَ ألّفها أصحابُها في تاريخ تلك الحِقبة وقصدوا أن يُلِمّوا بأحداث تلك الحقبة وبأحوالها الحَضارية . غير أننا نقع أحياناً على حقائقَ تاريخية تتعلّق بالأحداث وبأحوال الحضارة منثورةً في كتب لم يؤلّفْها أصحابها ليَقصّوا تاريخاً أو ليصفوا حضارة . قد تكون هذه الكتب دواوينَ شعرٍ أو قواميسَ أو كتباً في الفقه أو الموسيقى . فبالاضافة إلى أن هذه الكتبَ مصادرُ للجوانب اللغوية والأدبية والاجتماعية والفنية من البيئة التي ندرسها ، فاننا نجد فيها أحياناً إشاراتٍ في التاريخ السياسي على جانب من الأهميّة .

ان الذي يقصد التأليف في التاريخ يحاول أن يَتَخَيّرَ الحوادثَ التي يبني عليها كتابه ويحاول أن يَرْبِطَ بعضَها ببعض ؛ وقد يُهْمِل أشياءَ عَفْواً أو قصداً لأنها لم تتّسق في السلسلة المنطقية أو القَصَصيّة التي أخذ نفسه بسرد وقائعها. أما الشاعر مثلاً فانه قد يشير الى حادثة وهو خالي الذهن من الملابسات كلّها فتكون هذه الاشارة عنده ، أحياناً ، أصحَّ في التاريخ الواقع وأدل على منطق الاحداث مما جاء عند المؤرّخ في هذا الشأن . وبما أننا لا نعتمد دواوين الشعر وكتب الفقه وقواميس اللغة عند التأليف في التاريخ اعتماداً أساسياً ، بل نأخذ أحياناً منها كلها أشياءَ تفيدنا في تعليل أحداث تَرِدُ في كتب التاريخ الأساسية غامضةً كثيراً أو قليلاً ، فانّنا نسمّي هذه الكتبَ مَصادرَ مساعدةً .

وهنالك كتبٌ هي مصادرُ ومراجع في وقت واحد :

هنالك كتب تعالج عصراً واحداً : ان كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) يتكلّم على عدد من الاحداث والاحوال شَهِدَها أسامةُ في قتاله مع الإفرنج (الصليبيين) ، ثم لا يتجاوزها الى غيرها . فكتابُ الاعْتبار اذن مصدر من مصادر تاريخ الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عَشَرَ الميلادي) على الحصر .

غير أن عزالدين أبا الحسن عليَّ بنَ الأثير قد ألّف كتاباً مبسوطاً في التاريخ بدأه بالخليقة وانتهى به الى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٣١ م) . وبما أن ابن الأثير قد تُوفِّيَ

في سنة ٦٣٢ هـ . (١٢٣٤ م) ، فان كتابه في التاريخ المسمّى « تاريخ الكامل » هو مصدر للتاريخ في السنوات الأخيرة من القرن السادس وفي الثلث الأول من القرن السابع الهجريين (السنوات الأخيرة من القرن الثاني عَشَرَ والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين) ؛ ثم هو مَرْجِـعٌ لكل ما سبق ذلك . ومُعْظَم كتب التاريخ الواسعة ، كتاريخ الطبريّ والمسعوديّ وابن خلدون ، من هذا الباب.

فبعدَ اعتبار كلّ ما تقدّمَ نتساهلُ في ما نسمّيه مصدراً لتاريخ الجاهلية ونقبل كلّ ما أُلّفَ في العصور الوسطى (إلى أواخر القرن التاسع للهِجْرة : آخر القرن الخامسِ عَشَرَ للميلاد) على أنها مصادرُ للأسباب التالية :

ــ كان العلم بين العرب الى ذلك الحين لا يزال يعتمد الروايةَ : نقلَ الخالف عن السالف ، وكان العالم لا يزال يعتمد الرِحلةَ والتدوينَ نقلاً عن الرجال في الأقطار المختلفة . من أجل ذلك نستطيع أن نقول إن كثيراً من الكتب التي أُلّفَتْ قبل ذلك الحد من الزمن كانت كتباً أصيلة في موضوعاتها ورواياتها .

ــ ان الحروب الصليبية في مصرَ والشامِ واجتياحَ التتار للعالم الاسلامي في المشرق وتضافُرَ الأوروبيّين على إخراج العرب من الأندلس قد رافقها إتلاف كبير للمكتبات، فنحن نعتبر الكتب التي وصلت إلينا من تلك الحِقبة المديدة « مصادرَ » ، وإن كان بعضها نَقْلاً عن بعض لأنها تمثّل الكتب التي ضاعت وتقوم ، من الناحية العملية ، مقامَها .

ــ لا ريب في أن شيئاً من الشعر الجاهلي منحولٌ (موضوع على لسان شعراء لم يقولوه) . وهنالك أيضاً كتب يقال إنها موضوعة ككتاب المحاسن والمساوىء وكتاب التاج في أخلاق الملوك (وينسبان الى الجاحظ) ثم كتاب الامامة والسياسة (المنسوب الى ابن قُتَيْبة) [1] . ثم ان بناء الكعبة اليومَ ليس البناء الذي كان لها في الجاهلية الأولى . ان الكعبة قد تهدّمت مِراراً في الجاهلية وفي الاسلام ثم أعيد

(١) راجع مقالا لجبرائيل جبور : كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة – من هو مؤلفه ؟ (مجلة الابحاث – بيروت ١٣ : ٣ ايلول ١٩٦٠) .

بناؤها مرة بعد مرّة .

فنحن اذن نقبل الشعر الجاهلي كلّه (الثابت والمشكوك فيه) ، على أنه من مصادر الحياة في الجاهلية لأن الذين وضعوا ذلك القدر من الشعر الجاهلي قد حرَصوا على أن يقلّدوا خصائص الجاهليين المعنوية واللفظية . وهكذا يظل هذا الشعر المنحول يدلّ على ما يدلّ عليه الشعر الثابت (وان كنّا في الأدب لا نقبل الشعر المنحول للجاهليين على أنه جاهلي) . وشأن الكتب الموضوعة كهذا الشأن أيضاً .

وكذلك شأن الكعبة :

« في سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله (١٧ قبل الهجرة = ٦٠٥ م) هَدَمَتْ قريشٌ الكعبة ؛ وكان سبب هدمهم إياها أنها كانت رضيمة[1] (وكانت) فوق قامة الرجل ، فأرادوا رفعها[2] وتسقيفها »[3] . ولمّا اختلفوا في من يردّ الحجر الأسودَ الى مكانه حكّموا في ذلك محمدَ بن عبدالله قبل مبعثه[4] . وبعد ثمانين سنة احترقت الكعبة لمّا غزا مُسْلِمُ بنُ عُقْبَةَ المرّيّ مكّة في أيام يزيدَ ابنِ معاويةَ ، في ذي الحجة من سنة ٦٣ (آب — أغسطس ٦٨٢ م) . فلما استقرّ الأمر لابن الزبير بعد موت يزيدَ هدم الكعبةَ حتّى لَحِقَتْ بالأرض ، وكانت حيطانها قد مالت من إصابتها بحِجارة المنجنيق . فحفر ابن الزبير فوجد أساساً أمثال الجِمال (يقصد حِجارة كِبارا) ... فقال أقرّوها على أساسها وبناها ، وجعل لها بابين يُدْخَلَ من أحدهما ويُخرج من الآخر . وذلك سنةَ ٦٥ أو ٦٤ هـ (٦٨٣ — ٦٧٤ م)[5] .

طبقات المصادر وأصنافها

أرفعُ طبقاتِ المصادرِ القرآنُ الكريمُ :

(١) مبنية بحجارة مرصوف بعضها فوق بعض (بلا ملاط ، أي بلا طين) .

(٢) رفع البناء : تشييده عالياً .

(٣) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

(٤) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

(٥) ابن الأثير ٤ : ٨٧ ، راجع ٣٠ .

نَزَلَ القرآنُ الكريم مُنَجّماً (متفرّقَ السورِ والآياتِ حَسْبَ الحاجة) في مَدى ثلاثٍ وعشرين سَنَةً ، من ١٣ ق . ﻫ . الى ١١ ﻫ . (٦١٠ – ٦٣٢ م). وكانت السور والآيات تُدَوّن ساعةَ نزولها. ثم جُمِعَ القرآنُ الكريم (رُتّبت سُوَرُهُ ، فقد كانت الآياتُ مرتّبةً على ما هي في السور الآن منذ نزولها) مرتين : مرّةً في أيام أبي بكر ومرّةً في أيام عثمانَ بنِ عفّان . فالقرآن الكريم أقرب الوثائق المدوّنة الى الجاهلية. ثم هو تنزيل لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أخّرنا النقوش عن هذا المقام لقلّة عددِها ولضَعْف دلالتها على تاريخ الجاهلية بالاضافة الى سائر المصادر (راجع الحاشية ١ على الصفحة ١١ فيما يتعلق بنقش النمارة) .

ويلي القرآنَ الكريمَ في طبقات المصادرِ الحديثُ الشريف :

الحديثُ لم يُدوّن الا في أيام عمرَ بنِ عبدالعزيز ؛ ومعَ ذلك فان هذا التدوين لم يصل الينا .

وقيمةُ الحديث أنه يفصّل ما أجمله القرآن أو يشرح ما ذكره القرآن . من أجل ذلك نستطيع اعتمادَ الحديث في الدين وفي التاريخ اذا كان موافقاً لما ورد في القرآن الكريم .

ومجاميع الحديث كثيرة منها مُسْنَدُ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب من رواية أبي يوسف يعقوب بن شَيبة (ت ٢٦٢ ﻫ = ٨٧٥ م) . ومنها المُوَطّأ للامام مالكٍ (ت ١٧٩ ﻫ = ٧٩٥ م) ، مسند الامامِ أحمدَ بن حَنْبل ، سُنَنُ الدارمي ، صحيح البُخاري ، صحيح مُسلم ، سنن أبي داوود ، سنن الترمذي وسنن النَسائي (وقد تُوُفّي هؤلاء قبل ٣٠٣ ﻫ = ٩١٥ م) .

وللقرآن الكريم تفاسيرُ وضعها العلماء لتبيان ما أوجز فيه أو ما أشير اليه فيه اشارةً عارضةً او لِمَا غمض علينا نحن من تشابيهه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح أحكامه .

وأشهر التفاسير وأهمها : جامعُ البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعْفرٍ محمدِ ابنِ جريرٍ الطَبَريّ (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣م) وهو مشهور باسم تفسير الطبري . وتفسير الطبريّ تفسيرٌ تاريخي يحاول ان يفسر الآياتِ بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التي رافقت نزولها ، ولا غرو فالطبري في الأصل مؤرخ . ثم ان الطبري يستعرض جميعَ الروايات الواردَة في تفسير الآيات ، رواياتِ الحديث وروايات التاريخ وروايات الأدب ، بعدئذ يفاضل بين تلك الروايات ويُرجّح ما يراه في نظره أقربَ الى الواقع مما لا يعارض نص الآيات. والطبري يسلك في التفسير مسلكاً سلَفيّاً فهو فقيه من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت (بطل العمل بها) . فهو لذلك أقرب الى ما تُقرّه الروايةُ الصحيحة والواقع التاريخي .

وهنالك أيضاً الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل لأبي القاسمِ محمودِ بنِ عمرَ الزمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م) ويعرف باسم تفسير الزمخشري . يَسْلُكُ الزمخشريّ في التفسير مَسْلَكاً لُغوياً بلاغياً في الدرجة الأولى ، فهو يعتمد في التفسير الذوقَ البلاغيّ اكثرَ من اعتماد الواقعِ التاريخي. ثم ان الزمخشري كان من المُعتزلة الذين يحاولون تعليلَ مظاهرِ الوجود بالنظر العقلي اكثرَ مما يعتمدون الرواياتِ التاريخيةَ والدينية . من أجل ذلك كَرِهَ الفقهاءُ تفسيرَ الزمخشري .

ويلحق بكتب التفسير الكتب التي تبحث في « أسباب النزول » (الأسباب التي دعت الى نزول السور والآيات في الزمن الذي نزلت فيه كلّ واحدة منها) ، وكتب « الناسخ والمنسوخ » (الكتب التي تذكر الآياتِ المنسوخةَ التي بَطَلَ حكمُها والآياتِ الناسخة التي حلّت محَلَّ الآياتِ المنسوخة) .

والكتب المعنونة باسم « الناسخ والمنسوخ » كثيرة أشهرُها بلا ريب لابن حزمٍ الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) . ثم هنالك كتب أخرى في هذا الموضوع وبهـذا الاسم للطباطبائي الرّسيّ (ت ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م) ، ولأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) ولابن الجوزيّ

(ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ولغيرهم .

أما « أسباب النزول » ففيها كتاب لأبي الحسن عليّ الواحديّ النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م) وآخر للسيُوطي (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) .

وللحديث الشريف أيضاً كتب ناسخ ومنسوخ منها «ناسخُ الحديث ومنسوخُه لأبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين (ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م) .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية الأدب الجاهلي :

الأدب الجاهلي شعرٌ ونثر ؛ والشعر الذي وصل الينا مَرْوِيّاً عن الجاهلية كثير جداً بالاضافة الى ما وصل الينا من النثر الجاهلي . ومع أن الأدب الجاهليّ أقدمُ في الزمن من نزول القرآن الكريم ومن الحديث ، فانّنا قد أخّرناه في طبقات المصادر لأن تدوينه تأخّر ولأن الرُواة لم يَحْرِصوا على ضبطه وصِحّته حِرْصَهم عن تحرّي الصِحّة والضبط في تدوين القرآن الكريم وجمعه ونسخه . ثم ان الأدب الجاهلي ضاع معظمه ثم تجرّأ كثيرون عليه بالنَحل [١] ، إما بنقل شيء من قائل الى قائل وإمّا بوضع شيء منه على ألسنة الناثرين والشعراء . والشعر الجاهلي في التاريخ على كلّ حال مصدر مساعد .

فمن مجاميع الشعر الجاهلي « المُفضّليّات » للمُفضَّل الضبّيّ (ت نحو ١٧٠هـ = ٧٨٦ م) ، و « الاصمعيّات » للأصمعيّ (ت ٢١٦هـ = ٨٣١ م)، وديوان الحماسة لأبي تمّام ، والحماسة للبُحتري ، وشرح المعلّقات السبع الطوال الجاهلية لأبي بكرٍ الأنباري (ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) ، وجَمْهرة أشعار العرب لأبي زيدٍ القُرَشيّ ، وشرح المعلّقات السبع للزوزني ، وشرح المعلّقات العشر للتبريزي (ت ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م) ، وشرح حماسة أبي تمّام للتبريزي أيضاً .

ومن دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة : ديوانُ الشعراء الهذليين ؛ ودواوينُ أمرىء القيس ، عمرو بن قَميئة ، عَبيد بن الابرص ، علقَمة الفحل ،

(١) راجع فوق ، ص ١٤–١٥ .

أوس بن حجر ، الشَنْفرى ، الأفوه ، الأوْديّ ، المُتَلَمِّس ، طَرَفَة ، الخِرنِق أخت طرفة ، المُثقّب العَبْدي ، عمرو بن كلثوم ، تميم بن أبي مُقبل، الحارث بن حلِزّة ، طُفيل الغنوي ، أبي دؤاد الأيادي ، القَتّال الكلابي ، النابغة الذبياني ، حاتم الطائي ، جِران العَوْد النَمِري ، سلامة بن جَندل ، عبدالقيس بن خِفاف البُرجمي ، عنترة ، السَمَوْأل ، زُهير ، لَبيد ، كَعْب ابن زهير ، أعشى قيس، الخنساء ، أُميّة بن ابي الصَلت .

ويلحق بمجاميع الشعر مجاميع النثر ومنها : أمثال العرب للضبّي وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري والمُستقصي في امثال العرب للزمخشري ومجمع الأمثال للميداني .

وهنالك ايضاً مجموع حديث يدعى جَمْهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ اللغة :

ان اللغة العربية التي نكتب بها وننظم هي نِتاج العصر الجاهليّ ، فهي من أجل ذلك لا تزال تدل بمفرداتها على اوجه الحضارة الجاهلية . والقاموس العربي اليوم ليس القاموسَ العربي وحدَه ، بل هو القاموسُ الساميّ ايضاً ، ذلك لأن علماء اللغة جمعوا في كتب اللغة وفي القواميس خاصةً جميعَ ما سمعوه دائراً على الألسنة في البلاد التي سُمِعَتْ فيها العربية . ان كثيراً من الألفاظ التي يُقال فيها إنها غريبة يجب ان تكونَ بقايا اللغاتِ البابلية والكَلدانية والحِمْيَرية والآرامية وسواها .

والقاموس العربي ليس للمفردات اللغوية فحَسْبُ ، بل هو في الحقيقة يجمع المفرداتِ اللغويةَ والمعارفَ الجغرافيةَ والتاريخية ، والعملية والفنية . من اجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ، ومعاجمُ اللغة خاصة ، مصادرَ مهمةً للحياة في الجاهلية. وقواميسُ العرب الكبرى هي : القاموسُ المحيطُ للفيروزابادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للمرتضى الزَبيدي .

وهناك كتب في اللغة هي قواميس اختصاص يُعْنَى كلُّ واحدٍ منها بجانبٍ واحدٍ من مفردات اللغة او بمنهج واحد في دراسة مفردات اللغة . هذه الكتب تساعد على استعمال المفردات في وجوهها الصحيحة لأنها تجمع الكلمات في نطاقها المعنوي الصحيح، بينما القواميس تفرق تلك الكلمات تفريقاً آلياً بحَسْبِ الحروف .

فمن كتب اللغـة : فِقْهُ اللغة للثعالبي ، الخصائص لابنِ جِنّي ، المُخَصّص لابن سِيْده ، شفـاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخَفاجي ، ليس في كلام العرب لابن خالويه ، كتاب النبات لأبي حنيفه الدِينَوَرِيّ ، كتاب الخيل لأبي عبيدة مَعْمَر بن المُثنّى ، كتاب الاصنام لابن الكلبي ، كتاب الانواء (الرياح والأمطار والنجوم) لابن قتيبة .

وهنالك كتب في اللغة تجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، مع الاستطراد الى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع ، منها : الأمالي في لغة العرب لابي علي اسماعيل بن محمد القالي ، الكامل في اللغة لابي العباس المُبَرّد ، خِزانة الأدب ولُبّ لسان العرب لعبدالقادر البغدادي ، المُزْهر في علوم اللغة للسيوطي ، انساب الخيل في الجاهلية والاسلام لابي المنذر هشام بن محمد الكلبي .

ويلحق بكتب اللغة كتبُ النحو ، وهي كثيرة جداً يكفي ان نثبت هنا منها كتاب سِيبَوَيْهِ ، المُفصّـل للزمخشري ، الإنصاف في مسائل الخِلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لابي البركات عبدالرحمن بن محمد الانباري .

اما المصادرُ الأساسية للحياة في الجاهلية فهي كتبُ الجغرافية والتاريخ :

فمن كتب الجغرافية : صِفة جزيرة العرب للهَمْداني ، معجم ما استعجم للبكري ، ثم معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي . ومعجم البلدان في الحقيقة دائرةُ معارفَ اكثرُها الجغرافية ، ولكن فيه استطراداً كثيراً الى التاريخ والأدب — وفيه ملاحظات كِثارٌ تتعلق بالحضارة والثقافة .

وعمدة كتب التاريخ عند العرب تاريخ الرسل والملوك (او الامم والملوك) لأبي جعفرٍ محمدِ بن جريرٍ الطبَري، جمع مؤلفه فيه جميع الروايات التي وصلت اليه، على مثال ما فعل في التفسير [١]، الا انه في التاريخ يُورد الروايات من غير ان يُرجِّح إحداها على الأخرى الا نادراً. ومن كتب التاريخ ايضاً تاريخ الكامل لابن الاثير، وسيرة ابن هشام وكتاب الاصنام لابن الكلبي والمعارف لابن قتيبة ثم التنبيه والاشراف ومروج الذهب واخبار الزمان للمسعودي، والاخبار الطِوال لأبي حنيفة احمد بن داود الدِينَوَريّ والعِقد لابن عبد ربه وكتاب المُعَمَّرين لابي حاتم السَجِستْاني وكتاب العِبَر لابن خلدون.

وهنالك كتب تعالج الناحية الاجتماعية من التاريخ اشهرُها وأجلّها قيمة: الجزء الأول من كتاب العِبَر لابن خلدون وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون. وهنالك ايضاً نهاية الارب في فنون العرب صدر منه ثمانية عَشَرَ جزءاً تحاول ان تجمع أوجه الحضارة العربية في كتاب واحد.

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ الأدب:

في كتب الأدب مراجع تقوم مقام المصادر وتعالج الجانب الأدبي من حياة العرب وتتناول الجاهلية كثيراً أو قليلاً. من هذه الكتب: عيون الاخبار لابن قُتيبة، كتاب الاغاني لابي الفرج الإصفهاني أجمعُ كتب الأدب في تصوير الحياة العربية من الناحية الأدبية والاجتماعية. ومنها معجم الشعراء للمَرْزُباني، طبقات الشعراء لابن سَلاّم الجُمَحي، الشعر والشعراء لابن قُتيبة، البيان والتبيين والحَيَوان للجاحظ.

ولا ريب في أن كتب الأدب التي تتّصل بالحياة في الجاهلية من قرب أو من بعد كثيرة جدّاً. وفي عدد منها تاريخ مفصّل لعدد من نواحي الحياة الجاهلية.

*

(١) راجع فوق، ص ١٧.

وفي عدد من كتب اليونان وكتب السّريان التي أُلّفَتْ في مدى العصر الذي ندرسه إشارات الى العرب ؛ غير أن المتعلّق من تلك الاشارات بتاريخ الجاهلية، بتاريخ عرب الشمال في الجاهلية القريبة ، قليل .

أما المراجع في تاريخ الجاهلية السياسي والاجتماعي والفكري فأكثر من أن تُحصى ، وسَيُشار الى أهمّها وأشهرِها في أعقاب الفصول المختلفة . ولكن لا بُدّ هنا من الكلمة التالية .

ان أجمع المراجع لتاريخ الجاهلية بكل ما فيها وأحدث تلك المراجع « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي[1] . وقد حاول المؤلف ان يجمع في كتابه كلّ ما قاله العرب قديماً وحديثاً في تاريخ الجاهلية في اليمن ونجد والحجاز والعراق والشام . ثم هو يُضيف الى ذلك ما قاله المستشرقون في ذلك . ولا ريب في ان هذا الكتاب يُغني عن مراجعة عدد من اصول التاريخ، ومراجعه . ومع اتساع نطاق هذا الكتاب وتنوّع ما يتناوله من وجوه التاريخ فإن مؤلّفه يناقش رواياتِ المصادر والمراجع ويقارن بينها ويرجّح بعضَها على بعض ؛ فهو من أجل ذلك أوفى ما كتب في تاريخ العرب قبل الاسلام .

ومن مراجع تاريخ الجاهلية « تاريخ العرب قبل الاسلام » والجزء الأول من « تاريخ التمدن الاسلامي » ، لجرجي زيدان . وهنالك ايضاً : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ، العرب واطوارهم : طور العرب والعربية في أطوار الجاهلية لمحمد عبدالجواد الأصمعي ، مدنية العرب في الجاهلية والاسلام لمحمد شكري (مصر ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م) ، بلوغ الأرب في مآثر العرب لمحيي الدين بن ابراهيم العطار ، تاريخ الفلك عند العرب تأليف كارلو نالينو ، تاريخ الموسيقى العربية تأليف هنري جورج فارمر

(١) صدر في ثمانية أجزاء (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) ، وطبع في مطابع متعددة في بغداد بين سنة ١٣٦٩ (والرقم ١٣٧٩ على الجزء الأول الذي طبع في مطبعة التفيض خطأ مطبعي) وبين سنة ١٣٧٨ للهجرة (١٩٥٠ - ١٩٥٩ م) .

(منقول) ، القيان والغناء في العصر الجاهلي لناصرالدين الاسد ، تذكرة في تاريخ الطب قبل الاسلام للدكتور شوكت الشطّي ،اختلاط الجنسين عند العرب ، دراسات حول وضع المرأة الاجتماعي والقانوني في العصور القديمة لمحمود سلام زناتي ، الخ .

ومن مراجع الأدب الحديثة « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها » لناصر الدين الأسد ، تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الجزء الأول (نقله عبدالحليم النجار) ، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان .

وفي عام ١٩٢٦ اصدر الدكتور طه حسين كتاباً سماه في « الشعر الجاهلي » وتكلم فيه على صِحة الشعر الجاهلي . وصحة الشعر الجاهلي قضية معروفة مفصول فيها في جميع كتب الأدب القديمة . غير ان طه حسين استطرد استطراداً جانبياً الى صِحة الرواية المتعلقة ببناء الكعبة فأثار ضجة ادبية وضجة دينية .

اما الضجة الأدبية فأسفرت عن صدور رُدود منها كتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد الخضر حسين ، وكتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلي » لمحمد فريد وجدي و « النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي » لمحمد احمد الغمراوي (القاهرة ١٩٢٩) . واما الضجة الدينية فحملته على الاعتذار عما كان قد أعلنه وعلى ان يعيد اصدار الكتاب في عام ١٩٣٣ باسم « في الأدب الجاهلي » بعد أن حذف منه الأشياء التي اثارت الضجة .

*

مراجع للتوسّع في فلسفة التاريخ والطريقة العلمية للتأريخ وفي المؤرخين العرب . إن القائمة التالية تمثل هذين الفنين ولكنّها لاتستنفد الكتب المؤلّفة فيهما . ويحسن أن نعرف أن بعض هذه المراجع منقول عن اللغات الأجنبية (أو من لغة أجنبية الى لغة أجنبية أخرى) ، كما أن بعضها أحدث من بعضها الآخر

(وأن بعض ما ذكرناه يقوم مقام بعض ما لم نذكره في هذا الباب) :

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، تأليف السيد جمال‌الدين القاسمي الدمشقي ، دمشق ١٣٥٣ هـ (١٩٣٥ م) .

مقدمة ابن خلدون .

دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، تأليف ساطع الحصري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٣ .

مصطلح التاريخ لمؤلفه الدكتور أسد رستم ، بيروت ١٩٣٩ .

التاريخ : مجاله وفلسفته ، تأليف نوري جعفر ، بغداد ١٩٥٥ .

منهج البحث التاريخي ، تأليف حسين عثمان ، القاهرة ١٩٤٣ .

علم التاريخ عند العرب ، تأليف فرانتز روزنتال (ترجمة صالح أحمد العلي) ، بغداد ١٩٦٣ .

نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، تأليف حسن نصّار ، القاهرة ...

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري ، بغداد ١٩٦٠ .

مختصر دراسة للتاريخ ، تأليف أرنولد توينبي (ترجمة فؤاد محمد شبل) ، القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦١ .

ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره ، باشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٥٩ .

History of the Philosophy of Historv, by Robert Flint.

Introduction to the study of History, by Ch. V. Langlois and Ch. Seignobos, New York.

L'histoire et sa Philosophie, par Henri Gaston Gouhier, Paris 1952.

De la connaissance historique, par Henri Irénée Marrou, 3ème ed., Paris 1958.

History: its purpose and Method, by Gustaaf Johannes Renier, London 1950.

Kritik der historischen Vernunft, von Alois Dempf, Muenchen 1957.

The interpretation of history, by J. R. Strayer (editor), Princeton University Press 1943.

The Interpretation of history: Confucius to Toynbee, by Alban Widgery, London 1961.

Lectures on Arabic historians, by D. S. Margoliouth, Calcutta 1930.

جزيرة العرب

بلاد العرب شِبهُ جزيرة واسعةٌ جداً مِساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع . وقد سماها جغرافيو العرب جزيرة[1] لأن مياهَ البحار تحيط بها من ثلاث جهاتٍ ثم يَعْقِدُ لها نهرُ الفُراتِ ونهر العاصي عند اقترابهما في أعالي الشام حداً من الماء . وهذا يُدخل الشام كلها وبعضَ العراق في شبه جزيرة العرب ويزيد في مِساحتها زيادة ظاهرة .

سطح بلاد العرب

سطح بلاد العرب شديد التفاوُتِ فالقسم الاعظم منه بادية أي أرضٌ تَصْلُحُ للزراعة ولكن لا ماء فيها . ويتخلل البوادي في شبه الجزيرة واحات يَنْبتُ فيها الزرعُ والنخيل . وفي البوادي جِواء (جمع جَوّ) ؛ والجو والجوّة منخفض من الارض تتجمع فيه مياه المطر أو تتسرب اليه المياه فتبقى مدة طويلة فينبت فيه عشب . والجِواء المشهورة الكبيرة في بلاد العرب أربعةَ عَشَرَ موضعاً أعظمُها اليمامة[2] . أما الجواء الصغيرة فيبدو أنها كثيرة جداً ، وأكثر

---

(١) راجع كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني (ت ٣٣٤هـ – ٩٤٥م) . ثم انظر مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠م) : « بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب » (ص ٥٦ ، السطر ١٢ ، راجع ص ٤٧ ، السطرين ١١ و ١٥) .

(٢) الجو ما انخفض من الأرض، واليمامة ، وثلاثة عشر موضعاً غيرها (غير اليمامة) . واليمامة ... جارية زرقاء العينين ، وبلاد الجو (اليمامة) منسوبة اليها وسميت باسمها (القاموس ٤ : ٣١٤ ثم ١٩٣) .

ما يكون منها بضعة معاً، كما في معلّقة عنترة : يا دار عبلة بالجواء، تكلمي .. وتحلّ عبلة بالجواء ..

في الطرف الجنوبي الغربي من مستطيل شبه جزيرة العرب جبالٌ هي جزء من الكتلة الصخرية في شرقيّ إفريقية (في الحبشة) . هذه الجبال تتفرع فيذهب فرْعٌ منها شَمالاً على طول الساحل الغربي حتى يتصل بجبال الشام . هذا الفرع يُسمى الحجاز لأنه يحَجِزُ (يعترض) بين تِهامة (الساحل المنخفض) وبين نجد . وليس في هذا الفرع قِمَمٌ عالية . وأما الفرع الثاني فيمتد شرقاً : ينخفض في أثناءذلك كثيراً ثم يعود فيرتفع في عُمَانَ حيث يبدو وكأنه يتصل بجبال الأهواز في فارس . في هذه السلسلة قِمتان عاليتان احداهما عند صنعاء عاصمة اليمن وارتفاعها نحو ٣٢٠٠ متر والثانية في الجبل الاخضر في عُمَانَ وارتفاعها نحو ٣٠٥٠ متراً .

وفي شبه جزيرة العرب مرتفعات أشهرها نَجْدٌ ، والنجدُ في القاموس (١ : ٣٤٠) ما أشرف أو ارتفع من الأرض . ويبلغ علو نجد (وهو الهضبة الوسطى في شبه الجزيرة) معدّلاً هو ٧٥٠ متراً فوق سطح البحر . وفي نجد جبلا أجأ وسَلمى ، وهما من الصوّان [١] ، وقد اشتهرا بالمنَاعة وبصعوبة النفوذ اليهما [٢] . وتسمّى هذه المِنطقة الجبلية الآن جبلَ شُمّرٍ .

والى الشّمال الشرقي من نجد (بين بادية الشام ونجد وشماليّ الحجاز) صحراء النفود أو النفوذ (بالذال المعجمة) ، سُمّيت بذلك بالاضافة الى صحراء الدَهناء التي يَصْعُبُ النفوذُ منها [٣] . هذه الفلاة بادية تزيد مساحتها على مائة ألف كيلومتر مربّع تتكوّن من رملٍ أحمرَ ورمل أبيض مُتموّج تحمله الريح من مكان الى مكان وتشكّله على هيئات مختلفة .

---

(١) الصوان (جمع صوانة بتشديد الواو) : ضرب (نوع) من الحجارة شديدة (القاموس ٤ : ٢٤٢) .
(٢) أجأ جبل لطيء (القاموس ١ : ٧) ، وسلمى جبل لطيء شرق المدينة (القاموس ٤ : ١٣٠) .
(٣) النفوذ (بالذال المعجمة) : جواز الشيء (المرور فيه) والخلوص منه . والطريق النافذ هو الطريق السالك (القاموس ١ : ٣٦٠) .

والنفود يحدّها من الشمال وادي السِرحان ، ومن غربها الجنوبي واحة تَيماء ، ومن الجنوب جبلا أجأ وسلمى (جبل شمر)، ومن شرقها الجنوبي مدينة حائل .

والدهناء فلاة واسعة تبدأ ممرّاً ضيقاً في جنوب النفوذ ثم تسير في قوس كبيرة غرب نجد حتى تتّسع في الجنوب اتّساعاً كبيراً جداً ، من شرق اليمن الى عُمان، حيث تعرف باسم الربع الخالي (بفتح الراء بمعنى المكان) أو الربع الخالي (بضم الراء بمعنى الجزء من أربعة أجزاء) . والقسم الأوفر من الدهناء كلّها صحراء ذات رمل ناعم لا ينبت فيه شيء ولو سقطت عليه الأمطار . ولقد استعصى الربع الخالي عــلى الناس حــتّى اجتازه الرحّالــه الانكليزي برترام توماس في عام ١٩٣١ .

ويحيط بالربع الخالي من أطرافه مناطق هي :

– يبرين أو أبرين ، وهي رمل لا تُدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر [١] اليمامة ؛ وحجر اليمامة قصبة باليمامة ، أي مدينة أو حصن (قا ٢ : ٤ ، ١٤٣) .

– وَبار أو وَبارِ أرض بين اليمن ورمال يبرين كانت منازل عاد (قا ٢ : ١٥١) .

– الاحقاف . الحِقف المُعْوَجّ من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف (القاموس ٣ : ١٢٩) . والاحقاف بناحية الشِحر ، في الجانب الغربي الجَنوبي من الربع الخالي بناحية حَضْرَمَوْتِ اليمن . وفي الأحقاف كانت منازل عاد ؛ جاء في القرآن الكريم في سورة الاحقاف (٤٦ : ٢١) : « واذكرْ أخا عادٍ [٢] إذ أنذر قومه بالاحقاف » ، الآية .

وليس في بلاد العرب اليوم أنهار ، وان كان فيها أودية كثيرة تسيل فيها

---

(١) الحجر بفتح الحاء او كسرها او ضمها .

(٢) صاحب قوم عاد ونبيهم ، وهو هود .

مياه الأمطار في الشتاء والربيع ثم تَجِفّ . وكذلك مياه العيون فيها قليلة ، فبلاد العرب بلاد جفاف ، وهذا هو الذي جعل معظمها بادية ومُعْظَمَ أهلها بَدْواً رُحّلاً .

الحِرار

كانت بلاد العرب أكثر مياهاً وخِصباً ثم أدركتها ظاهرتان طبيعيّتان أحالتا أكثرَ أجزائها صحارَى وبواديَ . هاتان الظاهرتان كانتا زحفَ الرمال وانفجارَ البراكين . أما زحف الرمال فلا نعْرِفُ اليوم أسبابه ولا الطريقَ التي اتّبعها الاّ ظناً ، وإن كنّا نرى آثاره : نرى مدناً غطّتها الرمال وبِقاعاً فيها آثارٌ من حيَوان البر وحيَوان البحر . هذا الزحف بدأ في أعصر سحيقة ، منذ القرن الثلاثين قبل الميلاد أو قبل ذلك ؛ غير أنه لم يصل الى ما صار اليه في الربع الخالي إلاّ قبل نحو ثلاثمِائةِ سَنَةٍ من ظهور الاسلام . فقد جاء في القرآن الكريم آيـاتٌ تذكّر العربَ ، في مطلع القرن السادس للميلاد ، بحال تلك الربوع التي كان فيها جنّاتٌ وعيون (٢٦ : ١٢٣ ، في سورة الشعراء) ، مما يدل على ان العرب كانوا لا يزالون قريبي عهدٍ بعُمران تلك الاصقاع وعلى أن حديثهم عن خرابها وهلاك أهلها لم يكن قد انقطع .

وأما الحِرار فكان انتشارها في شبه الجزيرة قريباً جداً من ظهور الاسلام .

الحَرّة (جمعها حِرار) أو اللُوبة أو اللابة (القاموس ١ : ١٢٩) : أرض ذات حِجارة نَخِرةٍ سُودٍ (قا ٢ : ٧) تتشكّل من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين . .

والحرار الواسعة المشهورة في بلاد العرب خمس : الحَذَرِية حَرّةٌ لبني سُلَيم ، وحرّة واقم وحرّة ليلى وحرّة شَوْران وحرّة النار قرب خَيْبر [١] .

---

(١) القاموس ٢ : ٦ ، ٧ ، ٦٥ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ٤ : ٤٨ ، ١٨٧ ، ٢٦٥ .

وجميع هذه الحِرارِ الخمس في الحجاز قرب المدينة .

وهنالك حرّات أخرى يبدو أنها أقل اتّساعاً موجودةٌ (قا : ٢ : ٧) قرب حُنين وفي تَبوك ونَقْدة وبين المدينة والعَقيق وقِبليّ المدينة وفي بلاد عَبْسٍ وفي بلاد فَزارة وفي جَفْل وفي مِيطان من جبال المدينة (قا ٢ : ٣٨٧) ومعشر وعبّاد وقَمأة ولَفْلف بين تَيماء وجبل طيّء (قا ٣ : ١٩٦) والبُريك في طريق اليمن أو اليمامة (قا ٣ : ٢٩٤) وفي لُبن ، وهو جبل (قا ٤ : ٢٦٥) ، وغلاّس وقرب ضَرِيّة بنجد وفي جبال طيّء وفي أرض بارق وفي أعلى (شمالي) الحجاز وقرب فَيْد وفي بلاد بني القَيْن وفي الدهناء .

ونحن نلاحظ أن جميع هذه الحرّاتِ في غربي بلاد العرب منتشرةٌ من الشمال الى الجَنوب . ثم ان البراكين التي سالت منها هذه الحُمَم [١] ظلّت تشتعل مرّة بعد مرة الى ما بعد مجيء الاسلام : في سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) سالت حرّة ليلى ، وهي قرب المدينة ، ناراً ؛ فأمر عمر (بن الخطّاب) بالصدقة فتصدّق الناس فانطفأت » (ابن الاثير ٢ : ٢٣٨) .

الدارات والمناخ

وفي شبه جزيرة العرب دارات . والدارة : كلّ أرض واسعة بين جبال (قا ٢ : ٣١) . واذا نحن جعلنا دارة جُلجلٍ مثالاً وجب أن تكون الدارة مكاناً ضيّقاً فيه ماء غامر دائم حتى استطاعت عذارى امرِيءِ القيس أن يغتسلن فيه . وتُقْصَدُ الدارةُ عادةً للّهْوِ وشرب الخمر ، اذا نحن اعتمدنا صلة دَمّون بحديث امرىء القيس يوم مقتل أبيه ؛ فدمون من الدارات (قا ٢ : ٣١ ، السطر ١٥) . والدارات كثيرة لا يمكن احصاؤها لأنها أماكن محلّيّة . قال الفيروزابادي مفتخراً (قا ٢ : ٣١) : « ودارات العرب تُنيف على مائةٍ وعشرٍ لم تجتمع لغيري مع بحثهم وتنقيرهم عنها ، ولله الحمد . وأنا أذكر ما أضيف اليه

---

(١) الحممة (بضم الحاء وفتح الميم) جمع حممة (بضم الحاء وفتح الميمين) : الفحمة والجمرة من النار (راجع القاموس ٤ : ١٠١ ، السطرين ١٠ ، ٢١) .

الدارات مرتّبة على الحروف ، وهي دارة الآرام وأبرق وأحُد ... » .

ومُناخ شبه جزيرة العرب متفاوت جدّاً ، ولكنّ الغالب عليه أنه قارّي صحراوي يميل الى الجفاف كما تميل الحرارة فيه الى الاشتداد . وهذا المناخ الصحراوي يَغلِب على المدن أيضاً . ثم ان تفاوت الحرارة بين الليل والنهار في المكان الواحد أيضاً كثير ، وهذا من خصائص المناخ القارّيّ ، فهي في نجد مثلاً قد قيست مرة فوجدت تتراوح بين ١١٢ درجة و ١٨ درجة فارنهايت (بين ٥٠ درجة فوق الصفر و ٩ درجات تحت الصفر بالميزان المئوي) .

والمطر في شبه الجزيرة قليل جدّاً . أمّا على الساحل الغربي حيث معظم الأرض حرّة فان المطر ينهمر مِدراراً فتسيل السيول ، من غير أن يتسرّب منها شيء كبير الى باطن الأرض ، حتى تصب في البحر ثم تبدو الأرض وكأنْ لم يُصِبْها شيء . على أن ثمّت بقاعاً قليلة تستفيد من المطر كالعقيق في المدينة وبعض البقاع حول مكة . ولا ريب في أن الطائف مثلاً بلد خِصْب وخَيْبر كذلك ، ولكنّ تلك الأماكن الخصيبة قليلة جدّاً بالاضافة الى اتّساع شبه الجزيرة .

أما شأن المطر في البادية فانه مختلف قليلاً : اذا نزل المطر في بقعة ، على غير قياس فانّها تُنْبِتُ العُشبَ وشيكاً . ثم ينمو هذا العشب بسرعة . ثم يَصْفَرّ ويذوي بسرعة أيضاً . وقد جاء وصف ذلك في القرآن الكريم جامعاً واضحاً ؛ جاء في سورة الحديد (٥٧ : ٢٠) :

« اعلَموا أنّما الحياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتَفاخرٌ بينَكم وتكاثُرٌ[١] في الأموال والأولاد كَمَثَلِ زَرْعٍ أعجب الكفّارَ نباتُه ، ثم يَهيج فَتَراه مُصْفَرّاً ، ثم يكونُ حُطاما ؛ وفي الآخرة عذابٌ شديد ومغفرةٌ من الله ورِضْوانٌ ؛ وما الحياةُ الدنيا إلاّ متاعُ الغرور » .

هذه الحال في البادية هي التي جعلت البدوُ رُحّلاً : يَنْزِلون في مكان ريثما يَيْبَسُ عشبه ويَجِفّ ماؤه ثم يتركونه الى مكانٍ آخرَ سقط فيه غيثٌ جديد .

---

(١) تكاثُر الرجلان في الأموال : قال كل واحد منها إنه أكثر من الآخر أموالا .

والحياة في البادية في الشتاء أقسى من الحياة فيها في الصيف ، على قساوة الحياة في الصيف . من أجل ذلك يمدحون الكرم في الشتاء ويتمدّحون به . ولذلك قالت الخنساء في رثاء أخيها صَخْر : « وإنّ صخراً اذا نشتو لنَحّار » [1] .

المعادن

المعادن في بلاد العرب موجودة والبترول أولها وأعظمها . وفي جميع أنحاء شبه الجزيرة نجد الحديدَ والكلس والذهب والفضّة والنحاس والقصْدير والكبريت وغيرَها مما لم يُعْنَ بعدُ باستخراجه على نطاق واسع لأن الجهلَ من قبلُ قد حمل العرب على أن يتعجّبوا من البترول من غير أن يخطر ببالهم أن يستغلّوه ، مع أنهم عرَفوا أنه يحترق بشدّة مذْهلة . ويبدو من معلّقة عنترة أنهم استعملوا البترول استعمالاً بدائياً . قال عنترة :

وكأنّ رُبّاً أو كُحَيْلاً مُعقَداً   حَشَّ الوَقودُ به جوانبَ قِمْقِمِ [2]

وكذلك لم يستخرج العرب شيئاً من المعادن الاخرى استخراجاً منظّماً فيما بلغنا من تاريخهم . أما اليوم فإن كَثْرَةَ البترول قد غَطّت على قيمة المعادن الاخرى .

النبات والحيوان

النبات في نجد والحجاز وشرقيّ بلاد العرب ، حيث تُوجد المياهُ ، نباتاتُ منطقة البحر الأبيض المتوسط : النخيلُ والتين والزيتون والرمّان والكَرْم (العنَب) وسائر أنواع الفاكهة ثم القمح والشعير والذّرة وسائر الحبوب .

ومن النبات [1] الطَلْح ، وهي شجر عظام ترعاها الابل ، والموز ([1] :

---

(١) نشتو : نكون في الشتاء . نحار : كثير النحر (الذبح) للغنم (لتوزيع لحمها على القبيلة) .

(٢) الرب : ثفل السمن (قا ١ : ٧١) . الكحيل : النفط أو القطران تطلى به الابل (قا ٤ : ٤٤) . حش الرجل النار : أوقدها . قمقم : إناء من معدن أو جرة .

(٣) الأرقام التالية من القاموس للفيروزابادي . راجع أيضاً كتاب النبات ...

٢٣٨) ، والدّوْم وهو شجر المَقْل (تمر شجر الدوم ٤ : ٥١) والنّبْق (٤ : ١١٤) ، والسِدر شجر النبق (٢ : ٤٦) وهو الضالُ ، أو أن الضال هو السدر البرّيّ (٤ : ٦) . وهنالك أيضاً الطَرْفاء وهي أربعة أنواع منها الأثْل (١ : ١٦٧) . ثم هنالك الشَوْحط والشِريان والنَبْع والغَرْب [1] وهي شجر تُتّخذ منها القِسِيّ والسهام ؛ فاذا كان نابتاً في قلّة الجبال (وهذا أجود أنواعه) فهو النبع ، واذا كان في السفح فهو الشريان ، واذا كان في الحضيض فهو الشوحط [2]. والحَمْط شجر كالسدر (٢ : ٣٥٩) .

والأراك شجر محبّب الى الشعراء ، وهو الحَمْض أو شجر من الحمض تُتّخذ منه المساويك [3] وترعاه الابل ، فيه ملوحة ومرارة ، وهو للابل كالفاكهة للانسان تأكل منه الابل بعد أن تشبع من غيره . وللأراك ثمر اذا نَضِجَ يدعى الكَبَاث (١ : ١٧٢ ، ٢ : ٣٢٨ ، ٣ : ٢٩١) . والرِمث من الحمض (١ : ١٦٧) . ومن الرمث أيضاً ما يشبه الغَضى ، والغضى شجر جيّد للوَقود فإن لحطبه ناراً شديدة . والسَلَم أو السِلام والحَنْجات والقَيْصوم كلّها من النبات المرّ (١ : ١٦٣ ، ٤ : ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦) . والشِيح نبات مشهور يذكر مع القيصوم. والعرمض [4] شجر العِضاه أو هو كلّ شجر لا يَعْظُمُ أبداً ، ويقال لصغار شجر الاراك والسدر عرمض (٢ : ٣٣٦) . والعِضاهة شجرة عظيمة ذات شوك (٤ : ٢٨٨) .

وأطيب مراعي الابل السَعدان (١ : ٣٠٢) . وهنالك البرسيم وهو حبّ القُرظ (٤ : ٧٩) ، والقرظ نوع من الكُرّاث، كرّاث المائدة (١ : ١٧٢ ، ٢ : ٣٧٨ ، ٣٩٧ ، ٤ : ٧٩) . وهناك أيضاً النيل والوَرس (صباغ أصفر)

---

(١) الغرب في القاموس (١ : ١٠٩) بفتح الغين وسكون الباء ؛ وقد ورد في شعر أبي تمام : ليست بنبع اذا عدت ولا غرب (بفتح ففتح) . والغرب شجرة حجازية ضخمة شاكة .

(٢) القاموس ١ : ١٠٩ ؛ ٢ : ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ٣ : ٨٧ ، ٤ : ٣٤٨ .

(٣) يقطع من اغصان الأراك قطع تشعث أطرافها وتستعمل في تنظيف الاسنان .

(٤) بكسر العين والميم او بفتحهما .

والحناء ، والحنظل وهو نبات يشبه البطيخ صغير مر يستعمل لدبغ الجلد . ومثله القرظ الذي هو ورق شجر السلَم (٢ : ٢٩٧) . والسَنط قرظ ينبت في مصر (٢ : ٣٦٦) . وهنالك الأشنان (بضم الهمزة او كسرها) وهو نبت منظف كالصابون ، والسنا وهو دواء مسهل .

وهنالك الآس ، وهو شجيرة طيبة الرائحة ولها ثمر أسود وأبيض يؤكل ، والابيض أجود ؛ ثم هنالك العَرار وهو بَهار البر (زهر بري أصفر) طيب الرائحة ، والخُزامى المشهور بطيب الرائحة وشقائق النعمان .

ويكثر الفقع في البادية ، ويقال له الكمأة أيضاً .

أشهرُ حيَوان جزيرة العرب الإبِلُ ، وهي بِسنام واحد ؛ وتقسم عادة قسمين : الهِجان أو الهجائن ، أي خِيار الابل (٤ : ٢٧٧) ، وتُسمّى أيضاً ذُلُلا ، والواحد منها « ذَلول »، وتستخدم للركوب . وأحسن الهجائن ما كان من عُمان ومَهَرة (في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب) . ثم هنالك البُعران (جمع بعير) وهي الابل التي تستخدم في حمل الاثقال . وهنالك أيضاً الخيل والبغال والحمير . ثم هنالك الغنم (الضَأن والمِعزى) .

وهنالك الظباء وهي نوعان: العُفر (السمر) والآرام (جمع رِئم) البيض . أما الغزال فهو الظبي المولود حديثاً ، ومثله الرَبْرب والرَشأ والجُوْذَر . وبقر الوحش الظباء الكبيرة ذوات القرون ، ويدخل فيها أنواع كثيرة كالوُعول والايائل . وهنالك حمار الوحش له جلد مخطّط . والوعل خاصّة أو البَدَن تيس الجبل (٤ : ٦٥ ، ٢٠٠) . وهنالك اليربَوع والجراد .

وهنالك الأرنب والضَبّ والوَرِل والقُنْفُذ والظَرْبان . ومن السِباع الضَبُع والذئب والثعلب وبنات آوى . وكان من حيوان جزيرة العرب الفَهد والنَمِر والاسد ثم انقرضت . أما الاسود المذكورة في الشعر الجاهلي فيأتي ذكرها على التشبيه بالقوة . على أنه كان يتفق أن ينحدر أسدٌ من جبال العراق وفارس ثم يصل في مسيره الى نجد والى الشام ، كالاسدين اللذين ورد ذكرهما في القصيدة

التي مدح المتنبي فيها بدرَ بن عمّار .

ومن طيور جزيرة العرب النَسر والعُقاب والصَقر ، ومنها الهُدهُد والقطا والقبّرة ، ومنها الحمام والُحبارى والحجَل والدُرّاج والنعام والغراب .

وهنالك الحيات، منها الأفعى وهي حية خبيثة (٤ : ٣٧٤) أي سامة ، ومنها الصِل أو الصالّة وهي الحية الدقيقة الصفراء الداهية (٤ : ٣) وتكون قصيرة ، قال النابغة : « صِل صَفا لا تنطوي من القِصَرْ » . ومنها الأسود وهو الحية العظيمة (١ : ٣٠٤) ولعله الحَنَش (٢ : ٢٧٠) ، وهو حية سوداء كبيرة غير سامة . ومنها الناشر ، وهي حية اذا هاجت انتشرت (اتسع عنقها وانتفخ) تشبه الكوبرا المصرية .

ويكثر حول شواطىء جزيرته العرب القِرش (٢ : ٢٨٣) وهو سمكة كبيرة مفترسة تُعرَفُ باسم « كلب البحر » .

الأقسام الجغرافية

اذا نحن اعتبرنا شبهَ جزيرة العرب من الناحية الجغرافية التي تركت أثراً على الحياة الاجتماعية عامةً والحياةِ الاقتصادية والسياسية منها خاصة وجدناها تنقسم قسمين :

القسمَ الجنوبي أو اليمن، وهو يمتـد من الجانب الغربي الى الجانب الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ويضم ما نعرفه باسم اليمن ثم الشِحْر (ساحل البحر بين عدن وعُمَانَ) ثم عُمان .

القسم الشمالي ، وهو سائر ما يتبقى من شبه الجزيرة : من حدود اليمن الى تخوم الشام والعراق . هذا القسم الشمالي قسمه الجغرافيون العرب أقساماً مستطيلة من الشمال الى الجنوب . فاذا نحن انتقلنا في عُرض شبه جزيرة العرب من الغرب الى الشرق بدت لنا الاقسام الجغرافية التالية . :

— تِهامةُ : وهي ساحل شبه الجزيرة على البحر الاحمر من العَقَبة شمالاً الى عدن جنوباً ، وهي تتألف من تهائمَ (أقسامٍ ساحلية كتهامةِ الحجازِ وتهامة

اليمن) مُتَصوِّبةٌ (مُنْحدرة) الى البحر .

– الحجازُ : مِنْطقة جبلية تقع غربَ تِهامة وتحاذيها من الشمال الى الجنوب . وسميتْ هذه المنطقة « الحجازَ » لأنها تحجز أي تعترض وتفصل بين تِهامة ونجد .

والصلة الجغرافية والصلة التاريخية بين تِهامة والحجاز ، أو بين كل جزء من الحجاز وبين تِهامته ، وثيقتان جداً . ونحن نستطيع أن نتبين في هذه المنطقة المزدوجة أجزاء هي :

● مدين : مَدْينُ اسم قبيلة ، وهي اسم البقعة التي كانت تنزل فيها هذه القبيلة . ثم هي اسم مدينة في أقصى الشمال من البحر الاحمر محاذية لتَبوك .

● وادي القُرى أو الحجاز على الحصر ، أي مكة والمدينة والطائف ومخاليفها [1] ومن هذه المخاليف العُلا وهي بلد بناحية وادي القرى (٤ : ٣٦٦) . وكانت مكة أكبر بلدان الحجاز ولذلك دُعيتْ « أمَّ القرى » لأنها أعظم القرى شأناً [2] .

– عسير : مِنْطقة بين الحجاز واليمن ، والاسم حديث .

– نجْدٌ ، وهي الهضبة المرتفعةُ شرقَ الحجاز ، وهي التي تسمى بادية على الحصر ، وفيها نشأت اللغة التي نتكلم بها والادبُ الذي نتغنى به ، وفيها جرى معظم التاريخ الذي ندرسه قبل الاسلام ، ومنها خرجت الموْجات السامية التي عمرتِ الارض في العراق والشام ثم انتقل بعضها الى مصر وما وراءها ، كما خرجت منها معظم جيوش الفتح بعد الاسلام .

– اليمامة مِنطقة واسعة في الجنوب الشرقي من نجد .

– هَجَرُ أو البحرين : مِنْطقة تمتد من البصرة شَمالاً الى عُمانَ جَنوباً ، ولها سِيف (ساحل ضيق) على خليج البصرة . هذه المنطقة تتألف من كاظمة (الكويت اليوم) والاحساء وشبه جزيرة قَطَر .

(١) قا ٢ : ١٧٢ . والمخلاف : الكورة ، ما يتبع المدينة من الأراضي والبلدان .
(٢) قا ٤ : ٧٦ ؛ راجع القرآن الكريم : « لتنذر أم القرى وما حولها » في سورة الأنعام (٦ : ٩٢) وسورة الشورى (٤٢ : ٧) .

الساميّون والعرب

كان المؤرخون الغربيون يقسمون الجنس البشري ثلاثةَ عروقٍ : العرقَ الساميَّ والعرق الحامي والعرق اليافثي (الآري) نسبة الى أولاد نوحٍ الثلاثة سامٍ وحامٍ ويافث ، على ما في التوراة . ثم فَقَدَتْ هذه التسمية قيمتها لأن العروق البشرية أكثرُ من ثلاثةٍ ولأن ثلاثةَ نفرٍ ابناء رجلٍ واحدٍ لا يمكن أن يخرجَ منهم ثلاثةُ عروق متباينة (بمثل السرعة التي يُخيِّلها أولئكَ المؤرخون. ولقد عرَض ابن خلدون لهذه الروايةِ القديمة فقال (المقدمة ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٣٤ — ١٤٤) :

« وقد توهم بعضُ النسابين ممن لا علمَ (لهم) بطبائع الكائنات أن السودان هم ولدُ حامٍ بن نوحٍ اختُصُّوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه ... وفي القول بنسبة السواد الى حامٍ غفلةٌ عن طبيعة الحر والبرد وأثرِهما في الهواء وفي ما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شَمِل أهلَ الاقليم الاول والثاني [1] من مِزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة في الجنوب .. (حيث) يكثر الضوء ويُلحّ القيظ الشديد عليهم فتسود جلودهم لإفراط الحر ».

« السامية » مدرك لغوي

ومع أن قسمة البشر ساميين وآريين وحاميين لا تزال مألوفةً ، فليس المرادَ منها اليوم أن تدل على عروق بشرية بل على خصائص لغويةٍ : ان السومريين

---

(١) الاقليم الأول والثاني : اقليم خط الاستواء والذي الى الشمال .

والاشوريين والعبرانيين قد تكلموا لغات سامية في خصائصها ولكنهم هم لم يكونوا كلهم ساميين خالصين . واهل الصقع الواحد يتكلمون في الزمن الواحد عادة لغة واحدة ، ولكن ليس من الضروري أن يكونوا ذوي نسب واحد .

إن شبه المُجمَع عليه أن الشعوب التي سكنت بلاد العراق والشام وتفرق جماعاتٌ منها في شمالي إفريقية كله قد خرجت من شبه جزيرة العرب في أزمنة متعاقبة : ان الأكديين والبابليين والآراميين والفينيقيين قد انتقلوا الى مواطنهم المعروفة من شبه جزيرة العرب . غير أن البلاد التي انتقلوا اليها لم تكن خاليةً من الشعوب . فاختلط الساميون الطارئون بتلك الشعوب . ولقد اتفق للعرب الذين بقوا في شبه الجزيرة أيضاً ، وخصوصاً في اليمن وعلى السواحل الجنوبية والشرقية شيء من الاختلاط بشعوب أخرى : ان العنصر الافريقي بارز جداً في جميع سواحل شبه الجزيرة ؛ وكذلك العنصر الأسيوي (من الفرس والهنود خاصة) ظاهر الأثر على الساحل الشرقي .

فاذ قلنا نحن اليوم « ساميون » فإننا لا نعني أقواماً خالصي النسب بقدرِ ما ندل بذلك القول على جماعات تتكلم لغة ذاتَ خصائص يقال فيها إنها سامية[1] .

« العرب » ومعنى كلمة « عرب »

من المألوف أن تنتسبَ الامم والشعوب الى أسلاف لها حقيقيين أو خرافين فيتألف من ذلك الانتساب جماعات قَبَلِيَّة صغيرة أو كبيرة ، كما عرفنا في

---

(١) تختلف اللغات السامية من اللغات الآرية الأولى في أمرين أساسيين : تكون الكلمات السامية صيغا (فعل ، فاعل ، مفعول ، مفاعل ، مستفعل ، الخ) مشتقة على قياس واحد من أصول لغوية يقال لها جذور ؛ بينما الكلمات الآرية تأتي بالنحت ، أي بالجمع بين كلمتين أو أكثر ، أو بين أجزاء من كلمتين أو أكثر في الكلمة القاموسية الواحدة . ثم ان الجملة السامية مستقيمة التركيب (الفعل فالفاعل فالمفعول به) ، بينما التركيب الآري تركيب مجانب متفاوت تأتي الكلمات فيه على حسب أهميتها بالنسبة الى المتكلم ، فقد يأتي الفعل متقدماً أو يأتي متطرفاً في آخر الجملة . ويميل الآري اليوم الى أن يأتي بالفضلة (بالجمل الوصفية أو الظرفية) في أول الكلام ، بينما السامي يؤثر العمدة (الجملة الدالة على المعنى الأساسي) في أول الكلام .

تاريخ العرب من انتسابهم إلى عدنان أو قحطان ثم تقسّمهم بكراً وتميما وأسداً وعبْساً وشيبان أو طيئاً وخزاعة وأزداً وعنساً وهمْدان. ومثل هذا كان شأن الهنود واليونان والجرمان .

وإذا اتفق أن اتخذت الأمم أسماء جامعة فهي إما أن تشيرَ بذلك إلى نفسها بأنها « الشعب » أو « الأمة » ، وإما أن تتخذ اسماء « كريمة » . إن سكان شمالي غربي إفريقية يسمون أنفسهم « الإيمازيغن » أي الأشراف ، والجرمان يدعون أن اسمهم محرَّف من « هرمان » ، أي السيد ؛ وكذلك الإفرنسيون يزعمون أن اسمهم معناه « الأحرار » .

غير أن جميع الأسماء المشتهرة على الأمم في التاريخ إنما هي من صنع جيرانها أعداءً كانوا أو أصدقاء . إن سكان شمالي غربي إفريقية سماهم الرومان البربر ، وهذا هو الاسم الذي أشار به إليهم امرؤ القيس في شعره . ويبدو أن الغاليين هم الذين سموا الجرمان باسمهم هذا اشتقاقاً من كلمة « غير » ، بمعنى الجار . والإفرنسيون سُموا بذلك لأن سلاحهم القبَلي الخاص بهم كان يسمى « فرانقا » أي عنزة ؛ والعنزة هي الرمح القصير . والصينيون سماهم التجار القادمون إلى بلادهم من الشمال والجنوب أسماء كثيرة (صين ، ثين ، شين ، سيريس ، كاثاي) لا ندري اليوم معناها . والهنود يزعمون أنهم ينتسبون الى بهارتا فارشا ، وقد أطلقوا على بلادهم بعد استقلالها اسم « بهارتا » ، مع أن اسمهم المشهور في الشرق والغرب قديماً وحديثاً « الهند » اختصار من التسمية الفارسية : ما وراء النهر ، نهر الهند المحرف اسمه عن الكلمة السنسكريتية « سند » ومعناها النهر عامة ، وتطلق على نهر السند خاصة . ولقد أطلق الفرس اسم « الهند » في العالم الشرقي ، كما جعل اليونان كلمة الهند « اندس » ، على مقتضى لفظهم وإعراب الكلمات في لغتهم ، ثم أطلقوا الاسم في العالم الغربي : إنديا .

وما كان اسْمُ العربِ بدعاً في أسماء الأمم !

*

يبدو أن سكان ما بين النهرين القدماء ، البابليين والأشوريين ، كانوا على حق لما أطلقوا على أقاربهم الساميين وجيرانهم إلى الغرب والجنوب الغربي اسم « أ ـ ري ـ بي » .

ولا مَعْدى لنا عن الرجوع بهذه الصيغة « أريبى » إلى الجذر « ء ـ ر ـ ب » . غير أن هذا الجذر هجين جداً في لفظه وفي معناه ، إن الهمزة في هذا الجذر تأتي في الصيغ التي يقال إنها مشتقة منه مفتوحة وممالة ، وربما جاءت مكسورة ، والباء فيه في الأصل باء تنفرج عنها الشفتان بيسر ، ولكن قد ترد في عدد من مشتقات هذا الجذر باء مهموسة أو منفوثة .

وكذلك معاني المشتقات التي يقال إنها من هذا الجذر كثيرة جداً . ثم هي مزيج غير مؤتلف في بعض الأحيان ، ويبدو أن المعنى الأصيل لهذا الجذر « الغرب » الذي يقابل « الشرق » . ثم تناول هذا الجذر معاني تتصل بجهة الغرب من قرب ومن بعد . من هذه المعاني غروب الشمس ، والمساء ، والعتمة . ثم هنالك الغُراب لأن لونه يشبه لون العتمة . ومن المعاني المتعلقة بهذا الجذر من بُعْدٍ ، الجرادُ لوجوده في تلك المنطقة الغربية بالإضافة الى سكان ما بين النهرين ، ومن معانيه أيضاً القفر (الصحراء) لطبيعة تلك المنطقة عموماً .

ويهاجر هذا الجذر من بلاد ما بين النهرين بمشتقاته غرباً فيسلك طريقين أساسيتين إحداهما تنحرف شَمالاً والثانية تتّجه جنوباً .

في أثناء هذه الهجرة ينخفض مبعث الهمزة في الحنجرة فتصبح هاء مرة نحو « أيكلو » التي تصبح هيكل ، وعينا مرة ثانية نحو « أنزو » التي أصبحت « عنزة » ، وتصبح غينا مَعجَمة مرة ثالثة نحو « أريبى » فإذا هي (غروب). وأحياناً تبقى الهمزة همزة نحو « أربا » بفتح الهمزة وأمالتها بمعنى أربعين ، وقد تتحير الهمزة أحياناً فنجد في القاموس العربي كلمات مثل : أرب ، وعرب وذرب ، بمعنى واحد هو فساد المعدة . وأحياناً يذكر القاموس مثل هذه الجملة : « الأربان بضم الهمزة لغة في العربان بالعين » (تاج ١ : ١٤٧) .

ليس في ما مرّ تعرّضٌ للّغة التي أخذت من أختها ، إذ الغاية مما مر أن ندل على أن كلمة « عرب » تَشْرَكُ كلماتٍ كثيرة تبدأ بغير العين في لغة مُضَرَ التي نتكلمها ونكتب بها . من أجل ذلكَ وجب أن يكون الجذر الذي جاءت منه هذه الكلمة جذراً هجيناً غير خالص .

ونمر بالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا فلا نجد فيه صيغة من جذر « ع — ر — ب » للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس ولا على معنى يتعلق باللغة التي نتكلمها ؛ وهذا أمر له تعليله من تاريخنا السابق على الإسلام . لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم ، فيما لدينا من التُراث اللغوي ، ما يدل على المدرك القومي الجامع . ولكن لما وقف الجاهليون في أعقاب العصر الجاهلي وجهاً لوجه أمام الفرس على حدودهم الشرقية ثم كرهوا الحكم الفارسي الذي كان قد استطال في شبه الجزيرة ، بدأوا يستشعرون شيئاً من البغضة للفرس ، وشعر عنترة بهذه البغضة فقال في معلقته عن ناقته :

شرِبَتْ بماء الدُحْرُضَينِ فأصبحت   زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عن حياض الديلم[1] .

إن عنترة قد أحس بالدافع القومي الجامع ، ولكن لم يجد الكلمة التي تعبر عنه فاضطر إلى أن يدور حول المعنى ببيتٍ كاملٍ من الشعر .

وجاء الإسلام ونزل القرآن الكريم مُنَجَّماً في ثلاثٍ وعشرين سنةً في مكةَ والمدينةِ فلم يرِدْ فيه من الجذر « ع — ر — ب » إلا ثلاثُ صيغ : « عُرُباً » جمع عَرُوب (بفتح العين) نعتاً للمرأة المتحبِّبة لزوجها في قوله تعالى « عُرُباً أتْرَاباً » (٥٦ الواقعة : ٣٧) . ثم جاءت الصيغة « أعراب » عشر مرات في سور مدنية فقط . منها ست مرات في سورة التوبة وحدَها . ولا حاجةَ بنا الى الاستشهادِ على أن كلمة أعراب تدل في القرآن وفي غير القرآن على البَدْو .

أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن فهي كلمة « عربي » التي وردت في القرآن الكريم إحدى عَشْرَةَ مرةً ، في سور مدنية وفي سور مكية أيضاً . غير أن

---

(١) راجع لسان العرب (مادة « دلم ») .

هذه الكلمة قد وردت عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بيّنة، من مثل قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (١٢ يوسف : ٢) ، أي تفهمون . ويبدو أن هنالك مكاناً واحداً استُعملَتْ فيه الكلمة « عربي » لتنعت شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فُصّلَتْ آياتُه ، أأعجميّ وعربيّ ؟ » (٤١ السجدة : ٤٤) أي أكتابٌ أعجميّ اللغة ، ونبيٌّ عربيّ »؟

إن استعمال كلمة عربي في القرآن الكريم دلت الشعراء على التعبير الذي لم يقع عليه عنترة . ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعب بن مالك يذكر رسول الله :

بدا لنا فاتّبعناه نصدّقُــه وكذّبوه ، فكنا أسعدَ العَرَبِ .

وبعد ذلك بمدة يسيرة ، فيما يبدو ، قال حسان بن ثابتُ يقرّع بني هُذيل لما اشترطوا على الرسول أن يُحِلَّ لهم الزنا حتى يدخلوا في الإسلام :

سالَتْ هُذيلُ رسولَ الله فاحشةً ضلّت هذيلُ بما قالت ولم تُصِبِ :
سالوا رسولَهُمُ ما ليس مُعْطِيَهُمْ حتى المماتِ ، وكانوا سُبّةَ العرب !

وهكذا بدأ في الشعر العربي مَدْرَكٌ لم يكن معروفاً من قبلُ ، هو أن العرب جماعة واحدة ذات نِطاق من الوَحدة الجامعة . على أن مدرك العُروبة يومذاك ، أو المدرك القومي العام على الأصح ، كان والإسلامَ شيئاً واحداً . بعد غزوة الخندق ، في السنة الخامسة للهجرة ، وإجلاء اليهود من بني النضير وبني قُريظة ، رثى شاعر بني الأشهل ، واسمه الضحاك ، لحال أولئك اليهود . من أجل ذلك هجا حسانُ بن ثابتٍ هذا الشاعرَ ، وذكّره بأن نفراً من قبيلته بني الأشهل ، قد كانوا مسلمين حقاً ، منهم إياس بن أوس بن عَتيك الذي استُشْهِدَ في غزوة أحُد ، وأنس بن أوس بن عتيك الذي استشهد في غزوة الخندق . وهكذا قال حسان بن ثابت للضحاك هذا :

أتُحِبّ يُهْدانَ [١] الحجاز ودينَهم ، كبدَ [٢] الحمار ، ولا تحب مُحمّداً ؟

(١) يهدان جمع يهود .
(٢) في شرح القاموس – مادة هود (عبد) بدل (كبد) . كبد الحمار : يا كبد الحمار .

لو كنتَ منا لم تُفارقْ دينَنا وتَبِعْتَ دينَ عتيك حين تشهّــدا .

وسَرعانَ ما برزت كلمةُ (عرب) في مقابل كلمة (روم) وكلمة نَبيط (آراميين) واكتسبتْ بذلك معنىً قومياً واضحاً . جاء في الاغاني (دار الكتب ١٤ : ٨٧ — ٨٨) :

بعد فتح مكة ، في السنة الثامنة للهجرة ، قَدِمَ قيسُ بن عاصمٍ وعمرُو بن الأهتم ابنُ عمه على الرسول . فلما صارا عنده تسابّا وتهاترا . ثم قال قيس بن عاصم للرسول عن عمرو وقومه : « والله ، يا رسول الله ، ما هم منا ؛ وإنهم لمن أهل الحيرة » . ثم قال عمرو بن الأهتم : « بل هم ، والله ، يا رسول الله ، من الروم وليسوا منا » ، ثم قال عمرو بن الأهتم مخاطباً قيس بن عاصم :

إن تُبْغضونا فإن الروم أصلُكُمُ ؛ والروم لا تَمْلِكُ البغضاءَ للعرب !

ولقد نَهى الرسولُ صلى الله عليه وسلم قيساً وعمراً عن هذا التّلاحي ، وأفهمهما تلميحاً أن الإسلام قد أغرق العصبياتِ كلَّها .

وفي أثناء الفتوح العربية ، أو الفتحِ الاسلاميّ على الأصح ، في أيام عمرَ بنِ الخطاب ، بلغ الشعورُ العربي من الناحية القومية مبلغاً يتمثل في البيت التالي ليَرْبوع بن مالكٍ ، والذي أورده الطبري (١ : ٢٥٣٦ ليدن) ، وهو :

إذا العرب العَرْباءُ جاشت بحورُهــا فَخَرْنا على كل البحور الزواخــر .

ثم تقلبت كلمة « عرب » بعد ذلك بين المدرك القومي الخالص وبين المدرك المتصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً ، وجرى المدركان جنباً الى جنبٍ عصوراً ، والشواهد على ذلك كله كثيرة تحتاج الى دراسة مستقلة .

هذا كله من الناحية اللغوية في تاريخ كلمة « عرب » . ولكن يبدو لنا أيضاً أن الإسلام هو الذي جعل لكلمة « عرب » هذا المقامَ في شعور الجماعة ، ولكن نَهَى عن أن يكونَ هذا الشعورُ عاملاً مُفرّقاً بين صفوف الأمة التي وحّدها الإسلام .

طبقات العرب

يذهب مُعْظَمُ المؤرّخين الى أن العرب ثلاثُ طَبَقات : بائدة وعاربــةٌ ومُسْتَعرِبَةٌ . والأصوبُ أن نأخذ برأي صاعد الاندلسي (ت ٤٦٢ هـ – ١٠٧٠ م) فنجعلَهم طبقتين فقط : بائدةً وباقيةً (طبقات الأمم ٤١) .

أما العرب البائدة ، ويُطْلق عَلَيْهِمُ اسمُ العاربةِ أو العَرْباء ، فهم الذين كانوا عرباً صُرَحاء خُلّصاً ذوي نسب عربي خالص (نظرياً على الاقل) . هؤلاء كانوا قبائلَ عاد وثمودَ وعمْليق وطَسْم وجَديس وأُميم وجاسم . وقد يضاف اليهم أحياناً عَبيل وجُرهُمُ الأولى ثم وَبار .

وأما العرب الباقية ، ويُسَمّوْنَ أيضاً المتعرّبة والمستعربة ، فهم الذين ليسوا خُلّصاً ؛ وهم بنو يَعْرُبَ بنِ قَحْطانَ وبنومَعَدّ بنِ عدنانَ بن أُدّ . وكان يعرب بن قحطان ، في قول الرواة ، أولَ مَنِ انعدل لسانُه عن السُريانية الى العربية ، أو أولَ من تكلّم بالعربية [١] . وكيف قدّرنا أقوالَ الرواة ، ومهما قدّرنا لمعدّ بن عدنان بن أدّ من الزمن ، فان اللغة العربية أقدم من ذلك كثيراً ، مما نَعْرِفه من صرفها ونَحْوها وشِعرها ونثرها .

انقراض العرب البائدة

في تاريخ العرب قبل الاسلام حِقَبتان : الحِقبةُ القريبة من الاسلام ، وكانت نحو ما ئتي عام ، وهي التي سمّاها القرآن الكريم «الجاهلية» [٢] على الحصر . ثم هنالك حِقْبةٌ سبقت هذه الجاهلية يجوز أن نُسَمّيَها الجاهليةَ القديمة أو الجاهلية الاولى [٣] ، وهي تمتدّ في الزمن رجوعاً الى فجر التاريخ .

---

(١) الجمهرة لا بن دريد ١ : ٢٦٦ ، نهاية الأرب ١٤ : ٣٣٩ ، المزهر للسيوطي ١ : ٣١ – ٣٢ تاج العروس ١ : ٣٧١ ، ٢ : ٤٣٧ .

(٢) ٣ : ١٥٤ (آل عمران) ، ٥ : ٥٣ (المائدة) ، ٣٣ : ٣٣ (الاحزاب) ، ٤٨ : ٢٦ (الفتح) ، ٤٩ : ٦ (الحجرات) .

(٣) في سورة الأحزاب : «ولا تبرجن (بتشديد الراء وسكون الجيم وفتح النون) تبرج الجاهلية الأولى (٣٣ : ٣٣) .

وجميع أخبار الجاهلية القديمة أو الجاهلية الأولى قد ضاعت ، الا ما بَقِيَ من آثارها المادّيّة على وجه الأرض .

ويبدو أن العرب البائدة قد بادوا أوِ انقرضوا بعاملين طبيعيّين : بالرمـــل الزاحف وبهياج البراكـــين .

أما الرمل الزاحف فقد قضى على المدن التي كانت في أواسط شبه الجزيرة ، وفي الاحقاف على أطراف الربع الخالي خاصة .

وأما هِياج البراكين فنتج منه ظواهرُ متعدّدةٌ : قوّةُ الانْفجار ، خَسْفُ الأرض ، الغازات المنتشرة من البركان ، تساقط الرّماد والحِجارة ، الريحُ الشديدة العقيمُ .

عـــاد

عادٌ عند الاخباريين أقدمُ العرب البائدة ، حتى أن كلمة عاديّ وعاديّة تُستعملان صفتين للاشياء البالغة في القِدَم[1] . وعادٌ كانوا قومَ هودٍ ، وكانت مساكنُهم بالاحقاف ؛ وقد كانوا ذوي ثروة وذكاء . ثم ان عاداً هلكوا بعذابِ يومٍ غليظٍ ، بصاعقةٍ شديدةٍ ، فقد كانوا رَأَوْا عارِضاً (سَحاباً مُقْبلاً عليهم فاستبشروا بمطر غزير منه) ، ثم انكشف ذلك السحاب عن ريح فيها عذاب أليم دمّرت كلّ شيء ولم يَبْقَ إلا مساكنهم (أي الحِجارةُ) . فمن الآياتِ التي تصف مَهْلِكَهُمْ قولُه تعالى : « فلمّا رأوْهُ عارضاً مُسْتَقْبِلَ أوْدِيَتِهِمْ قالوا : هذا عارضٌ مُمْطِرُنا ؛ بل هو ما استعجلتُمْ به : ريحٌ فيها عذابٌ أليم * — تدمّرُ كلّ شيء بأمرِ ربّها ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم. كذلك نَجْزي القومَ المجرمين * ... وفي عادٍ اذ أرسلنا عَلَيْهِمُ الريحَ العقيم * ما تَذَرُ من

(١) قال ابن خلدون (المقدمة ، بيروت ١٩٦١) : « وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد ... » (ص ٦١٣ — ٦١٤ ، راجع ص ١٢٥) .

شيء أتتْ عليه الا جعلَتْهُ كالرميم * ... وأمّا عادٌ فأُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية * سخّرها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوما ، فترى القوم فيها صَرْعى ، كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية * فهل تَرى لهم من باقية ؟ — » * [1]

طسم وجديس

طَسْمٌ وجَديسُ قبيلتان عاشتا في اليمامة والبحرين وكانتا قريبتَيْ عَهْدٍ بعاد . وكانت طسم أقوى من جديسَ فاستبد عِمْليق ملك طسم بجديس وسامها ظلماً وذلاّ . ويَزْعُمُ الإخباريون أن جديسَ ثارت على طسم واستنجدت بملك اليمن حسّان بن تُبّع أسعد أبي كَرِب . وقيل بل غزا حسان القبيلتين . في ذلك الحين اتّفق أن جَذيمةَ الابرشَ أو جذيمة الوضّاح [2] غزا أيضاً طسماً وجديس فوجد أن حسّان بن تبّع قد أغار عليهما فعاد بمن معه . ولكنّ حسّانَ أصاب سَرِيّةً (قطعة من الجيش) لجذيمةَ فاجتاحها (ابن الاثير ١ : ١٣٦) .

بنو لِحْيان الأوّلون

في شَماليّ وادي القُرى ، جَنوبَ مَدينَ ، ثلاثة بلدان قديمة متقاربة : الحِجْر والعُلى وتَيْماء [3] . كانت هذه البلدان في منطقة خاضعة لنفوذ

---

(١) راجع في ذلك كله القرآن الكريم ١١ : ٥٠ وما بعدها ؛ ٤١ : ١٥ — ١٦ ؛ ٤٦ : ٢١ ، ٢٥ ؛ ٥١ : ٤١ — ٤٢ . العقيم : التي لا مطر فيها . ما تذر من شيء : ما تترك شيئاً (ذا حياة كالنبات والحيوان والانسان) . الرميم : البالي المتفتت . صرصر : شديدة الصوت . عاتية : قوية . حسوماً : متتابعة . صريع : مطروح أرضاً ، هالكاً . أعجاز نخل : أصول ، جذوع . خاوية : فارغ قلبها من القدم والتهرؤ .

(١) زعموا أن جذيمة كان يملك الفرات من هيت في الشمال الى الحيزة في الجنوب . وكان به برص (مرض يبيض منه الجلد) ، فهابت العرب أن تقول عنه أبرص فقالوا الأبرش (قا ٢ : ٢٦٢) ، والوضاح (والوضح والبرش : البياض) .

(٣) الحجر أو مدائن صالح ديار ثمود (٢ : ٤) ، والعلى كهدى بناحية وادي القرى (٤ : ٣٦٦) ، وتيماء واحة الى الشمال الشرقي من الحجر والعلى .

—راجع تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٣ : ٤٢٦ — ٤٢٩ ؛

Liyan und Lihyanisch, von Werner Caskel, Koeln 1953.

المَعينيّين (الدولةاليمنيةالأولى) ، منذ قبل الميلاد ، وكانت محطّة تجارية للمعينيين .

نَعِمَتْ هذه البلدانُ بحضارة قديمة وبازدهار اقتصادي . ويبدو أن النفوذ المعيني زال من هذه المنطقة في نحو ١٦٠ ق . م . وحلّ محله النفوذ المصري . هذه المنطقة حجريّة، ومنها جاء اسم مدينة الحِجر ، والبيوت فيها منحوتة في المرتفعات الحجرية عن جانبي الوادي . أما أهل هذه المنطقة فهم بنو لِحْيان الأولون ١ .

ويبدو أيضاً أن الدولة اللِحيانية التي نشأت في تلك المِنطقة ثم عاشت فترة وجيزة جداً قد انقرضت وشيكاً وخلفها دولة لبني ثمود .

ثمود

وكان قوم ثَمود بعدَ قوم عادٍ ، كانوا يسكنون الحِجْر ، بين الشام والحجاز ٢ — : كانت لهم جنّات وعيونٌ وزروع ونخل ، وكانوا يبنون قصوراً في السهول أو يَنْحِتون بيوتاً من الجبال . وقد هلَكوا بصيحة واحدة ، بصاعقة من العذاب فأصبحوا في ديارهم جاثمين : أخذتْهم الرَجْفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، مما يدلّ على أن بركاناً انفجر انفجاراً شديداً وأعقب ذلك ، بطبيعة الحال ، رجفة (زلزلة) فهلَكَ قوم ثمود على هذه الصورة ٣ .

أما مَدْيَنُ فكانت مدينةً ذات مياه كثيرة في شَمال البحر الاحمر ، الى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة سيناء . وقد كانت مدين بمركزها هذا محطّةً تجارية بين الحجاز والشام ومصر وما يتّصل بهذه . ولذلك كان أهلُ مدينَ تجّاراً

---

(١) لا صلة ، فيما يبدو ، بين بني لحيان هؤلاء وبين بني لحيان الذين كانوا يسكنون على مقربة من مكة والذين غزاهم الرسول في السنة السادسة للهجرة (الطبري ، دار المعارف ٢ : ٥٩٥) .

(٢) المسعودي : ١ : ٤٢ .

(٣) راجع في ذلك كله القرآن الكريم ٧ : ٧٤ ، ٧٨ ؛ ١١ : ٦٧ ؛ ٢٦ : ١٤١ وما بعدها ؛ ٢٧ : ٤٥ وما بعدها ؛ ٤١ : ٧ ؛ ٥١ : ٤٤ ؛ ٥٤ : ٣٠ .

وفيهم كلّ أخلاق التجّار ، ولقد وبّخهم نبيهم شُعيبٌ على أنهم كانـــوا يُخْسِرون الكيلَ والميزان ، فردّوا عليه بأنهم يريدون أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون (أن يستغلّوها استغلالاً كاملاً) .

وقد هلك أهل مدين بالصيحة والرجفة أيضاً لأن مدينتهم كانت في منطقة بلاد ثمود [1] .

لقد وقعت تلك الكوارث في اواخر الجاهلية الاولى ، فان القرآن الكريم يشير اليها وكأنها قريبة جداً من زمن نزوله . فقد جاء عن ثمود في سورة النمل (٢٧ : ٥١ – ٥٢) : فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم ، إنّا دمّرناهم وقومَهم أجمعين – فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا ؛ ان في ذلك لآيةً لقوم يعلمون – . وفي سورة العنكبوت (٢٩ : ٣٨) : وعاداً وثمودَ ، وقد تَبَيَّنَ لكم من منازلهم » .

اليهود والنصارى في بلاد العرب

ومنذ القرن الأول للميلاد جاء الى بلاد العرب جماعاتٌ من اليهود النصارى.

ثار اليهود على الرومان فقضى الرومان على ثورتهم وأبادوا جموعاً منهم (عام ٧٠ م) ثم حرّموا عليهم الدخول الى القدس . وتفرق اكثر الباقين من اليهود في الأرض فجاء جماعة منهم الى بلاد العرب لاجئين الى عدد من المدن ذات الزراعة والتجارة ، وقد كثروا خاصة في منطقة تمتد من يَثْرِب الى خَيْبَرَ الى تَيْماء . ولما جعل قسطنطين الأولُ النصرانيةَ ديناً للدولة (عام٣١٢ م) أصبحت الدولةُ مُتَنازَعةً بين أصحاب المذاهب المختلفة . فكان اذا استولى اهل مذهب على الحكم أسرعوا الى اضطهاد اصحاب المذاهب الاخرى . وكانت تلك السياسة الدينية تحمل في كل فترة جماعةً من المضطهدين علىمغادرة بلادهم. ولقد كانت شبه جزيرة العرب مكاناً صالحاً لِلُجُوءِ أولئك المُضْطَهَدين ، لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم ، بخلاف العراق والشام وآسية الصغرى ومصر وسائر بلاد العالم القديم .

---

(١) راجع القرآن الكريم ٧ : ٨٥ وما بعدها ؛ ١١ : ٨٣ وما بعدها ؛ ٢٨ : ٢٢ ؛ ٢٩ : ٣٦ وما بعدها .

العرب الباقية

حينما نقولُ العربُ البائدةُ والعرب الباقية لا نعني أن أقواماً انقرضوا فلم يَبْقَ منهم أحدٌ وأن أقواماً لم يكونوا ثم نشأوا من جديد . ان الذي يجب أن نَعْنِيَهُ هو المَدْرَكُ التاريخي التالي :

قد يقلّ عددُ قومٍ بالكوارث أو بالذَوَبان في غيرهم (بالاستعمار أو بالانتقال من دين الى دين او من حكم سياسي الى حكم سياسي) فيتوقّف تاريخُهم وتَبْطُلُ حضارتُهم ، فنقول : إن هؤلاء القومَ قد بادُوا : معَ العلم بأنه قد يكون قد بَقِيَ منهم بقايا قليلةٌ أو كثيرة ولكنْ من غير قيمة حَضارية . والتاريخ انما هو « تطورُ الحضارة » . أما الأمة الجديدة أو الجماعة الجديدة فهي أمة أو جماعة قديمةٌ بالمعنى الطبيعي ، أي أن أسلافَها موجودون منذ الأزلِ ككل جماعةٍ بشرية أخرى . فاذا عَظُمَتْ هذه الجماعة في زمن من الازمان بأنْ ظهر على يَدَيْها وجهٌ من أوجه الحضارة فإن اهتمامنا بها حينئذٍ يزيد فنبدأ بدرس تاريخها . بهذا المعنى تكون الجماعة أو الأمّة جديدةً : ان وجودَ الجماعات أوِ الأممِ في التاريخ يبدأ بنشوء حضارتها .

أما فيما يتعلّق بالعرب في الحِقْبة التي ندرس تاريخَهم فيها – في الجاهلية – فان أقواماً منهم ذوي حَضارات قد بادوا وانقرض مُعْظَمُ أفرادِهم فبادت حَضارتهم بانقراضهم . ثم برز أقوام آخرون من هؤلاء العربِ أنفسِهم لم تصلْ اليهم أيدي الكوارث وظهروا بوجه من الحَضارة البدوية وبدأوا يَشْغَلون

الأقوامَ الذين حَوْلَهم . هؤلاء الاقوامُ الذين شغَلونا في طورٍ متأخر من أطوار التاريخ بالإضافة الى أقوام سبَقوهم في الزمن نقول عنهم إنهم أقوامٌ من العرب الباقية . انهم جدَيدون لأن حَضارتهم جديدةٌ فبدأنا نحن تأريخَ حياتِهم ببدْء ظهورِ حَضارتِهم .

العرب الباقية هم البدو

ان البَدْوَ الذين يعيشون اليوم في خيامهم في بَوادي شبه جزيرة العرب وفي بادية الشام هم أحفادُ البَدْوِ الذين عاشوا في هذه البوادي نفسِها منذ أقدم أزمنة التاريخ التي وصلت الينا أخبارُها . ان النقوش المصرية والنقوش البابلية والاشورية تُرينا هؤلاءَ أسرى أو يقدّمون الجزية لملوك مصر والعراق . وفي عام ٨٥٤ ق . م . هاجم الملك الاشوري شلمانصّر (سلم نسر) قَرْقر (شَمال حَماة) وحارب ملكَ دمشق الآرامي وحليفيه أحب وجُندُب (البَدْويين) . وكان في ما غنمه شلمانصَر ألفُ جملٍ لجندب ١ .

وان اللقب « ملك العرب » لم يكن يعني أكثر من « رئيس البدو » أو شيخ القبيلة .

في نحو عام ٢٠٠ قبل الهجرة (٤٠٠ م) كان مُعْظَمُ أهل الجاهلية الأولى من أهل الحَضَر قد بادوا بالكوارث الطبيعية التي أصابت شبه جزيرة العرب . ولا ريب في أن جماعاتٍ من البدو هلَكوا بتلك الكوراث نفسها أيضاً .

لقد كان للبادية حضارتُها الخاصةُ بها . ويبدو أن هذه الحضارةَ البدويةَ لم تكن في مُستواها أقل من الحضارات المعاصرة لها . وكان الجانبان الروحي والأدبي من تلك الحضارة ساميَيْنِ جداً . ان اللغة التي وصلت إلينا من أولئك البدو كانت أتمّ اللغات الساميّة مُفرداتٍ وصَرْفاً ونَحْواً وبلاغة . وكان الأدب الذي وصل الينا من الجاهلية أدباً إنسانياً رفيعاً وغزيراً جداً . وكان في هذا الأدب

(١) Hitti, A History of the Arabs, th ed. 1937 .

الذي وصل الينا مُثُلٌ عُلْيا وآراءٌ في الحياة وجوانبُ من المعرفة وقواعدُ من السلوك الشخصي والجَماعي تَدُلّ كلّها على المستوى الذي وصل اليه أولئك البَدْوُ في حياتِهِمُ العامّةِ والخاصّة . على أنه كان لهؤلاء البدو مساوىءُ كثيرةٌ حملتهم عليها حياةُ الشظف القاسية التي خَضَعوا لها في بيئتهم تلك. ان معظمَ تلك المساوىء تبدو مُجَسَّمَةً لنا كثيراً لأننا نَقيسُها عادةً ببيئتنا نحن وبحضارتنا نحن . وكان كثير من عادات أولئك البَدْو مساوىء بالاضافة الى المُثُلِ العُلْيا والى الاخلاق الشخصيةِ والاجْتماعيّة التي تقبّلها البشرُ في تاريخ الحضارة الانسانية .

التُراث البَدْويّ

ان البَداوة لا تَعْرِفُ الكلامِ وتسجيلَ الآراءِ . والبدو يعتمدون في ذلك كلّه على الذاكرة ؛ ولكنّ الذاكرة الانسانية لا تحفظ الاقوال والآراء القديمة كثيراً ، ثم هي لا تحفظ تلك الأقوال والآراء حفظاً دقيقاً صحيحاً .

بعد أن جاء الاسلام ونزل القرآن الكريم ثم مضى الصّدْرُ الأول ، كان القرآن الكريم هو الشيءَ الأولَ الذي تعلّق به اهتمام المسلمين . لقد أراد المسلمون في الأجيال التالية أن يفهموا القرآن الكريم فهماً تاماً لأنه اساس الدين : لقد ارادوا أن يفهموه لُغَوِياً وبَلاغياً وتاريخياً وجُغرافياً واجتماعياً وثقافياً . وبما أن القرآن الكريم قد نزل باللغة التي كان أولئك البدو يتكلّمونها – وما أرسَلْنا من رسولٍ الا بلسان قَومهِ لِيُبيِّنَ لهم [1] – فقدِ اندفع العلماء لجمع كلّ شيء من التراث الجاهليّ يمكّنهم من فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً . لقد جمعوا ألفاظَ اللغة من أجل فهم ألفاظ القرآن الكريم ، وجمعوا الشعر القديم والاخبار القديمة والامثال والخُطَبَ من أجل فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً دقيقاً شاملاً . وباسْتِطاعتنا أنْ نقولَ إنّ أولئك العلماءَ الرواةَ لم يهتمّوا الا بما كان له صلَةٌ بفهم القرآن الكريم . غير أن هؤلاء العلماءَ الرواةَ لم يستطيعوا أن يجمعوا إلاّ

---

(١) سورة ابراهيم (١٤ : ٤) .

ما كان لا يزال عالقاً بالذاكرة العربية .

ان هذا الذي وصل الينا من التُراث البَدْوِيّ هو الطريق الوحيد الى اقتصاص تاريخ الجاهلية مما لم يُشر اليه القرآن الكريم .

الجاهلية وأهلها

الجاهليةُ هي الزمن الذي مرّ قبل الدعوة الاسلامية ، أو قبل الهجرة على الاصح ، ذلك لأن الحكم السياسي والنفوذَ الاجتماعيّ كانا لا يزالان قبل الهجرة للمشركين من العرب . والجاهلية اسم أطلقه القرآن الكريم على تلك الحِقْبة من الزمن .

ورد لفظُ الجاهلية في القرآن الكريم أربعَ مرّات :

– في سورة آلِ عِمْران (٣ : ١٥٤) : – ... وطائفةٌ قد أهمّتْهُمْ أنفسُهم يظنّون بالله غيرَ الحق ظنَّ الجاهلية ؛ يقولون : « هلْ لنا من الأمرِ شيء ؟ » – قل : « إنّ الأمرَ كلّه لله ! » يُخفون في أنفسِهم ما لا يُبْدون لك ؛ يقولون : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ههُنا » . – قل : « لو كُنتم في بيوتكم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتْلُ الى مضاجعهم [1] ... » *

– في سورة المائدة (٥ : ٤٩ – ٥٠) : وأنِ احْكُمْ بينَهم بما أنزل الله ، ولا تَتّبِعْ أهواءَهم ، واحْذَرْهم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنْزِلَ اللهُ اليك .. – أفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغون ! ومَنْ أحْسَنُ من الله حُكْماً لقوم يُوقنون * !

– في سورة الاحزاب (٣٣ : ٣٣) : وقَرْنَ في بيوتِكُنّ [2] ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأولى ... *

---

(١) لو كان اولئك الذين قدر الله عليهم منكم (أيها المسلمون) الموت بالقتل حينئذ في بيوتهم لخرجوا من بيوتهم من تلقاء أنفسهم الى حيث كان المشركون ولقتلوا .

(٢) امكثن ، يا نساء الرسول (ويا سائر نساء المسلمين) في بيوتكن ولا تظهرن محاسنكن للرجال (من غير أزواجكن) ، كما كان النساء يفعلن في أيام الجاهلية .

– في سورة الفتح (٤٨ : ٢٦) : اذ جعل الذين كفروا في قلوبِهِمُ الحَميَّةَ حَميَّةَ الجاهلية ... –

مما تقدّم ، ومما وَصَفَ اللهَ به العربَ قبل الاسلام من غير أن يُطلِقَ عليهم لفظ الجهل هذا ، ندرك أن « الجاهلية » مشتقّة من « الجهل الذي هو ضِدّ الحِلْم » ، لا من « الجهل الذي هو ضدّ العِلم » .

فأهل الجاهلية اذن هم العربُ الذين عاشوا قبلَ الاسلام في بَوادي شبه جزيرة العرب وفي مدنها الباقية ، إذ كان يَغلِبُ عَلَيْهِمُ التّنازُعُ والتقاتل والعداوةُ والثأر والتعاونُ على الإثْم والعُدْوان وظلمُ بعضِهم بعضاً بتقديم مصلحة قبيلةٍ على قبيلة وتقديم مصلحة الفردِ على مصلحة القبيلةِ ، كلّما وجد الفردُ فرصةً الى ذلك . كما كان يَغْلِبُ على جماعاتٍ منهم أحياناً وَأد الأولاد[1] وشرب الخمر ولعب الميسر وأخذ الربا والاسراف في الكرم .

عرب الشمال وعرب الجنوب

في الاخبار المروية وفي أشعار الفخر والهجاء أن العرب قسمان : قحطانيون من نسل قَحْطانَ أبي عرب اليمن (أو عرب الجَنوب) ثم عدنانيّون من نسل عدنانَ أبي عرب العالِيَةِ (عرب الشّمال) . ويُنْسَبُ عربُ الشّمال الى مَعَدّ بن عدنان والى نِزارِ بن معدّ والى مُضَر بن نزار والى قيس ، واسم قيسٍ هذا إلياسُ بن مُضَرَ (قا ٢ : ٢٤٤). وكان بين القحطانيين والعدنانيين[2]

(١) كان بعض الجاهليين من الفقراء والضعاف يدفنون الأطفال عقب ولادتهم خشية الفقر (لأنهم لم يكونوا قادرين على إعالتهم) أو خشية العار (اذا كان اولئك الأطفال بنات ثم سبين في المعارك أو الغارات) . والقرآن الكريم يذكر وأد الأولاد خوف الفقر . جاء في سورة الأنعام (٦ : ١٥١) : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق (فقر) ، نحن نرزقهم واياكم » . وجاء في سورة الاسراء (١٧ : ٣١) : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ؛ ان قتلهم كان خطئاً كبيرا » .

(٢) يلاحظ من القاموس أن جميع معاني أسلاف العرب المشهورين تتعلق بالقحط وبشظف العيش وبالحياة في البادية . قحطان من القحط (٢ : ٣٨٧) . وعدنان أبو معد مشتق من

عصبية[1] في الجاهلية والاسلام، ورَدَتِ الاشاراتُ اليها في الشعر الاسلامي والشعر الجاهليّ . قال عبد يَغوثَ بنُ وقّاصٍ الحارثي[2] .

أقول ، وقد شدّوا لساني بنِسْعةٍ : أمعشَرَ تَيْمٍ ، أطْلقوا عن لِسانيا .
وتضحكُ منّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيّةٌ ؛ كأنْ لم تَرَىْ قبلي أسيراً يمانيــاً[3] !

يورد الدكتور جواد علي في كتابه القيّم[4] مناقشة طويلة يُحاول أن يُثْبِتَ بها أن العرب يَجْمَعُهُم كلّهم أبٌ واحد ، وأنهم ليسوا منقسمين بين أبَوَيْنِ مُتناظرين : قَحطانَ وعَدنانَ . وسواءٌ علينا أكان العرب منقسمين بين أبوين أو كان يجمعهما أبٌ واحد ، فان مساكنَ العربِ البعيدةَ ما بين الشّمال والجَنوب قد جعلت منهم أهل عصبيتّين : عصبيةٍ قَيْسيةٍ وعصبية يَمانية (أو صف

= الجذر عدن : عدنت الابل الحمض (بسكون الميم : نبات تأكله الابـل ٢ : ٣٢٨) استمرأته (وجدته مريئاً : هنيئاً طيباً) وتمت (سمنت) عليه . ثم ان عدن جزيرة باليمن وبلدة مشهورة ، وهي وعدنان أبي عرب الشمال من جذر واحد (٤ : ٢٤٧) . ومعد ابن عدنان أبو العرب مشتق من « عد » وربما كانت الميم فيه أصلية لقولهم : تمعدد أي تزيا بزي معد في تقشفهم أو تصبر على عيشهم. وفي الحديث تمعددوا واخشوشنوا (١ : ٣١٣). ونزار والنزر (القليل) من جذر واحد (٢ : ١٤١) . ومضر بن نزار من الجذر « ضر » . والمضارة (بتشديد الراء) الشدة والقحط (٢ : ٧٥) ، وقيل سمي مضر لولعه باللبن الماضر أي الحامض (٢ : ١٣٤) . وقيس بن مضر هو قيس عيلان (بفتح العين) ، واسمه الياس ابن مضر بن نزار (٢ : ٢٦٠) ، والناس بن مضر (٢ : ٢٤٤) هو اخو الياس بن مضر (ابن الاثير ١ : ٢١٤) .

(١) العصبية : القتال بين قومين متقاربين في النسب لضغن (بكسر الضاد) وثأر بينهما قديمين؛ واكثر ما كانت تقع العصبية بعد الاسلام بين جماعات ينتسبون الي قيس وجماعات ينتسبون الى اليمن . وكانت العصبيات (القتال بالعصبية) تقع في الشام ومصر وافريقية والاندلس.

(٢) عبد يغوث يمني النسب من مذحج توفي عام ٤٢ ق.م (٥٨٠ م) . قاد عبد يغوث قومه اليمانيين يوم الكلاب (بضم الكاف) الثاني وحارب بهم بني تميم واحلافهم (من العدنانيين).

(٣) النسعة : زيق من جلد . وتيم هنا : تيم بن غالب بن فهر (بكسر الفاء) : قريش . عبشمية : نسبة الى عبد شمس . كأن لم تري: كأن لم تري أنت (بعد أن قال: وتضحك) على الالتفات من الغائب الى المخاطب . وهذا من أوجه البلاغة .

(٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ١ : ٢٢٠ وما بعدها الى الصفحة ٣٣٦

تينك العصبيتين بما شتت من الصفات) يتنازع أهلُهما ويتقاتلون منذ الجاهلية . وقد ظل هذا النزاع في الشام (سورية : في فلسطين ولبنان خاصة) الى القرن التاسع عَشَرَ !

ثم ان هذا التباعدَ في المسكن ، بالاضافة الى الاختلاف في الجِوار التابع للتباعد في المسكن وإلى التفاوُتِ في طبيعة الأرض بين الشمال والجَنوب ، قد جعل للعرب قبل الاسلام حضارتين مختلفتين .

حياة العرب في الجنوب وحياتهم في الشمال

اذا نحن ضربنا صفحاً عن قِسمةِ العرب قِسمةً جنسيةً قحطانيين وعدنانيين ، فلا مَعْدى لنا عن أن نقسمَهم قسمةً جغرافية ، جَنوبيين وشَماليين باعتبار اختلاف المسكنين من الجنوب والشمال . أما اذا نحن أدخلنا اليمن السياسية (التي هي الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة) فان الفرق سيكون عظيماً جـــدّاً . من أجل ذلك سنوازن بين العرب في الشمال وبين العرب في الجنوب باستثناء اليمن السياسية :

– ان عرب الشمال كانوا أصفى أنساباً . واذا فرضنا اختلاطهم بمن جاورهم في الشام والعراق ، فان هذا الاختلاط كان بين عربٍ وعربٍ أو بين عرب وساميّين. ثم إن الاختلاط بين عرب الشمال وبين الفُرس والرّوم كان أمراً نادراً جداً . أما عرب الجَنوب فكان اختلاطهم بالافريقيّين خاصة وبالفرس والهنود بارزاً جداً .

– ان حياة عرب الشمال كانت في مُعظَمها بَدَوية ، فلم ينزلْ بينهم جَوال أجنبية . أما عرب الجنوب فكانت حياتهم أقربَ الى أن تكون حَضَرية لأن أرضهم على سِيف البحر كانت أكثر خِصباً . ولقد نزلت في الجنوب جَوال زَنْجية وهندية وفارسية كثيرة ، مما أثّر في الانساب وفي الحياة الاجتماعية معاً .

– ان النفوذ الاجنبي (النفوذ الفارسي والنفوذ الحبشي والنفوذ الرومي من وراء النفوذ الحبشي) كان ظاهراً جدّاً في الجنوب . ومع المقاومة العنيفة التي

قاوم العرب الجَنوبيون بها النَفوذ الاجنبي ، فإن بعضهم قد تقبل هذا النفوذَ ورَضِيَ أن يكون آلةً لحُكْمِ إخْوانِهم عرب الشمال باسم الفرس أو الروم . وأشهر الأمثلة في ذلك المناذرة والغساسنة وآل كُنْدة .

وبما أن الحضارة كانت أغلبَ على عرب الجنوب فقد كانوا أبرع في الصناعة والتجارة وجِباية الأموال . من أجل ذلك كانوا يحاولون بسط نفوذهم على عرب الشمال البدو . وكانت البداوة في الشمال تغلب على المدن أيضاً .

– كان شماليّ بلاد العرب طريقَ التجارة الى العِراقِ والشام ومصرَ ، فلم يكن بدٌ لليمن ، في سبيل المحافظة على سَلامة طريق قوافلها ، من أن يكون لها شيءٌ من النفوذ على شماليّ بلاد العرب . وقد كان عرب الجَنوب أطوعَ لليمن وأقدرَ على التسلّط فاستخدمهم أهلُ اليمن وغير أهل اليمن (الروم والفرس) في بسط السيطرة على شماليّ بلاد العرب .

وكذلك كان شماليّ بلاد العرب ، وهو في أكثره بَدْوِيّ ، محتاجاً الى مصنوعات اليمن فكان سوقاً طبيعية قريبة لتلك المصنوعات . وهذا أيضاً قد دعا اليمن الى بسط شيء من نفوذها على عرب الشمال من وراء عرب الجنوب .

– كانت اللغةُ العربية هي السائدةَ في الشَمال والجَنوب . ولكنّ اللغة العربية الواحدة خضعت في الشمال والجنوب لمجريَيْنِ مستقلّين من التطوّر حتى كادت ان تصبح لغتين كالعربية والآرامية ، أوكالعربية والحبشية . ولولا أن الاسلام رد جميع المسلمين الى لغة أهل الشمال لكانت اليمن الجغرافية تتكلم اليوم لغة من اللغات السامية تختلف من اللغة العربية كثيراً أو قليلاً .

البداوة والحضارة

بين البداوة والحضارة فرقٌ أساسيّ واحد : يكتفي البَدْويّ بالضَروري من أسباب المعاش ، بينما يتوسع أهل الحَضَر في أسباب التَرَفِ من المطاعم والملابس والمساكن . من هذا الفرق الاساسي تتفرّع جميع خصائصِ البداوة وجميع خصائص الحضارة المدنية بما في البداوة وفي الحضارة البَدْوية مـــن

المحاسن والمساوىء . وباستعراض الفصل الثاني من مقدّمة ابن خلدون في العمران البَدْوي [1] نجد أن للبَدْوِ [2] خصائصَ هي :

أ ــ الرِحْلة في طلب المعاش :

البَدْوي مُضْطرّ الى الانتقال من مكان الى مكان في البادية طلباً للماء والكَلأ : كلّما نَفِدَ الكلأ والماء من مكان ارتاد مكاناً آخرَ يجدُ فيه ماء وكلأ من مطر جديد . فالبَدْويّ من أجل ذلك يسكن الخيام ويتخذ من الحَيَوان الإبِلَ والخيل والغَنَم (الضأن والمِعْزى) لقدرة هذه الانعام على الرِحلة معه [3] . والبدو في الاصل متوحّشون ، أي يَتَنْزلون البِقاعَ البعيدة عن العُمران الحَضَري (عن الأمصار أو الأماكن ذات البناء الثابت والسُكنى الدائمة) .

ب ــ القوة والشجاعة :

والبدو أصحّ أبداناً (من أهل الحَضَر) للنشأة الطبيعية ولِصِحّة الهواء في البادية ، ولذلك كان البدو أقلّ تعرّضاً للأمراض (القلة الأمراض في البادية) وأقدر على احتمال المَشاقّ والمجاعات . ثم ان البدو أكثرُ شجاعةً لاضطرارهم الدائم الى الدفاع عن أنفسهم وأهلِيهم وعمّا يَمْلِكون في وجه العَدُوّ المُغير وفي ردّ الحَيَوان المفترس . من أجل ذلك تصبح الشجاعة ويصبح القتالُ عادتين في البَدْوِيّ ينشأ عليهما منذ الصِغَر .

ج ــ العصبية :

يقول ابن خلدون [1] : « العصبية هي النُعْرة على ذوي القُربى وأهل الأرحام [2] أن ينالَهم ضيمٌ أو تصيبَهم هَلَكَةٌ » . وتكون العصبية (الشعور

---

(١) الفصل الثاني : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال .

(٢) البدو : البادية والذين يعيشون في البادية .

(٣) هذه حال البداوة في المشرق . أما في المغرب فان البدو يقومون على رعاية الحيوان ويعملون في الزراعة ايضاً . وربما اتخذ البدو في المغرب بيوتاً ثابتة مبنية في مكانين مختلفين يشتون في مكان منهما ويصيفون في المكان الثاني .

بالصلة بين أفراد الجماعة الواحدة) بين أهل النسب الواضح (القَرابة الظاهرة) ومن صاهرهم (تزوّج نساء منهم أو تزوّجوا هم من نسائه) أو انتسب اليهم بالولاء (دخل في حمايتهم أو أصبح رقيقاً عندهم) أو الحِلفْ (المعاهدة) » . وكلّما كان عدد أهل العصبية أكثرَ كانت قيمتهم أعلى وكان نفوذهم أوسعَ وكان استيلاؤهم على الرئاسة أهون وتغلّبهم على خصومهم أيسرَ . والاصل في العصبية القَرابة من النسب ؛ ولكنّ النسبَ لا قيمةَ له في العصبية إلاّ اذا رَفَدَهُ رابطٌ من المصلحة أو الجِوار .

والعصبية عادةً تنقسم عصائبَ صغيرةً ، وتكون الرئاسة على أهل العصبية كلّهم لأقوى تلك العصائب . ولذلك يقع التنافس بين أهل تلك العصائب على الرئاسة ، وقلّما انقادَتْ عصبيةٌ لعصبيةٍ أخرى بالقهر ، وإنّما تُقَدّمُ القبيلة للرئاسة شخصاً من أفرادها ترتضيه وتُطِيعه من تلقاءِ نفسِها . على أن البدوَ يُذْعنون للدعوة الدينية طَوْعاً لأنها تُغْرِقُ في نفسِها جميعَ العصائب فلا يقعُ فيها التنافس الذي يقع بين العصائب .

ومع أن البدو لا ينقاد بعضهم لبعض فانّهم يخضعون لأهل الأمصار ، لأن أهلَ الأمصار أقدرُ على أساليب السيطرة والادارة والسياسة ، ولأن البدو محتاجون الى أهل الامصار في البيع والشراء للحصول على ما يحتاجون اليه مما ليس في البادية (كالسلاح والمصنوعات المعدنية والفخّارية وما شابهها) .

وبقاء العصبية يقتضي المحافظةَ على الانساب ، فان الشعور بوَحْدة النسب يزيد في تماسك أفراد القبيلة . وهذا أمر نافع جدّاً في الحرب لأن الجماعة المتماسكة تكون أقدرَ في الدفاع عن نفسها وفي قتال عَدوِّها :

د — الظُلم والبِر :

الظُلم هو العُدوان : ان تَبْدَأ خصمَكَ بالهجوم عليه قبل أن يتمكّن هو من الهجوم عليك أو استلاب شيء مما تَمْلِكُ . قال زُهيرٌ في معلّقته :

ومنْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحهِ يُهَدَّمْ ؛ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

وأما البرّ فهو طاعةُ القَبيلِ : أن يطيع الفَرْدُ الجماعةَ التي ينتسب اليها ولو أضَرّ ذلك بمصلحته هو . كان طَرَفَهُ بن العَبْدِ يشكو ظلمَ أهلهِ له : منعوه حقّه في إرثه من أبيه وأساءوا اليه والى أمّه فلم يَزِدْ على أن قال في معلّقته :

فلو كان مولايَ امْرأ هو غَيْرُهُ لَفَرَّج كربي أو لأنْظرني غَدي ؛
ولكنّ مـولايَ امْرُؤٌ هو خانـقي على الشكر والتَسآل أو أنا مُفتدي .
وظُلمُ ذَوِي القُربى أشدّ مَضاضةً على النفس من وَقْعِ الحُسام المُهَنّدِ .

وأحياناً يَضرّ البر بمصلحة الجماعة نفسِها ، ولكنّ ضررَ الجماعة في موقف واحد (في معركة واحدة مثلاً) أفضلُ من تَفَسّخها وتشتّتِ أمرها بعصيان أفرادها لها . كان دُريدُ بن الصِمّة بطلاً شجاعاً مُجرّباً في الحروب . فلّما طعَنَ في السِن وعَجَزَ عن القتال كان قومه يحملونه معهم للانتفاعِ برأيه . انتصر قوم دريد في إحدى معاركهم فأرادوا ينزلوا في مكان خصيب على مقرُبة من مكان المَعْرَكةِ ليستريحوا . فنصح لهم دريدٌ بألاّ يفعلوا ذلك خوفاً من أن يَكُرَّ عليهم خصومهم وهم غارّون (غافلون وغير مُتَهَيّئينَ لقتال) فلم يقبلوا منه . وحدث ما توقعه دريد؛ وكر أعداؤهم عليهم فانهزموا، وقُتِلَ في تلك المعركة عبدُ الله أخو دريدٍ ، فقال دريد :

نصَحْتُ لعارضٍ وأصحاب عارض ورهطِ بني السوداء، والقومُ شُهّدي .
فلما عصوْني كنتُ فيهم ، وقد أرى غَوايتهم وأنني غـيرُ مُهتد .
مرتهُمُ أمري بمُنْعَرجِ اللّوى فلم يَسْتبينوا النُصْحَ الا ضُحى الغد .
وهل أنا إلاّ من غَزِيّةَ إن غَوَتْ غويْتُ ، وان ترْشُدْ غزيةُ أرْشُدِ !

فاذا تناست القبيلة البر استحالت جماعات مُتعاديةً ، كما حدث في شأن بني وائل: بكرٍ وتَغلِبَ ، فقد وقع بينهم من العَداوة والقتال ما لا يقع مثله بين المتباعدين في النسب والحضارة حتى قال عمرو بن كلثوم سيدُ تَغلِبَ وشاعرهم :

نجُذّ رؤوسهم من غير برٍ فما يَدْرون ماذا يتقونا ....
إليكمْ ، يا بني بكرٍ ، إليكم ! ألمّا تعلموا منّا اليقينا

ألمّا تعلموا منّا ومنكم كتائبَ يَطّعِنّ ويرتَمينا !

وبلغ البرُ في الجاهلية إلى أن أصبح عُرْفاً يقوم مقامَ الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية ، يدلنا على ذلك قول النابغة الذبياني في حديث الرجل والحيّة :

فلما وقاها اللهُ ضرْبةَ فأسه ، وللبر عينٌ لا تغمّض ناظره ..

هـ ـ الحياة الفِطرية :

ان البدوي أقربُ بطبيعته الى الخير ، ذلك لأن البشر لا يُشارّ أحدُهما الآخرَ إلاّ اذا كان بينهما مُنافسة . والمنافسة تنشأ من الحاجة الى أشياءَ يَقِلّ وجودها ويكثرُ طالبوها . فكلما كانت حاجاتُ الناس أقلّ خفّتِ المنافسة بينهم وخف من أجل ذلك عُنْصر الشر فيهم فغلب عليهم الخير . وبما أن الحياة البدوية تقوم على الضروري من أسباب الحياة ، فان البدوي اذا حصلت له أسبابُ الحياة الضرورية لم يَبْقَ له مطمعٌ كبير في ما وراءها .

على أن تنافس البدو على أسباب الحياة الاولى (على الماء والكلأ والماشية) شديد جداً يقود الى الغزو والقتال أحياناً . من أجل ذلك فرضت البداوة على أهلها محامدَ تقاوم الشرّ الناتج من تلك المنافسة : فرضت عليهم الشهامة والنجدة والكرم وحُبّ الضِيافة والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد والامانة والحِفاظ على العِرض والمحاماة عن الجار واللاجىء والمُستغيث والدفاعَ عن الضعيف . فانحصرت المنافسة بعد ذلك بين قبيلين : قبيلٍ يمْلِكُ أسبابَ الحياة فيَضِنّ بها على الذين لا يملكون ما يحتاجون اليه منها ، فعلى الغني في البادية أن يكون كريماً يُنْفق من ماله طوْعاً على المحتاجين وإلا كان عِرْضَةً للمذَمّة والشتم ، كما قال زُهير في معلقته :

ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ !

والبدو بعيدون عن سياسة الملك وعن المداراة والمُصانعة لأن هذه بعيدة عن الفِطرة قريبة من ضرورة الرياء في المدن . ثم ان البدو لا قُدرةَ لهم على الصِناعات ولا حاجةَ بهم الى التأنق فيها . وكما أن البدوي يرى أن الضيافة حقّ

على صاحب البيت فانه يرى أيضاً أن على الزائر قَبولَها ، ولو كان الزائر أغنى من المَزورِ . قال طَرَفَةُ :

متى تأتني أصبحْكَ كأساً رَوِيَّةً ؛ وان كنتَ عنها ذا غنىً فاغْنَ وازْدَدِ !

و ــ تطوّر الحضارة :

البداوة طَوْرٌ طبيعي في الحضارة . ان كل حضارة بدأت بدويةً ثم تطورت بتوسع الناس في المطاعم والمساكن والحكم والسلوك والعلم حتى أصبحت حضارة مَدَنيةً كالتي نشهدها اليوم .

على أن نشوء الحضارة المدنية لا يقضي على الحضارة البدوية (أو العُمران البدوي ، كما يقول ابن خلدون)، بل تظل الحضارتان (أو يظلّ العُمرانان) جنباً الى جنب .

والبداوة ضروريةٌ للحضر : ان أهل المدن قد جاؤوا كلهم من البادية التي ضاقت بسكانها أو جاءوا من البادية الى المدن لمّا زادت ثَرَواتهم وأحبوا التمتع بأسباب الترف ؛ وأسباب الترف لا تكون في البادية أبداً بل في المدن . وكذلك الذين يَقْوُونَ في البادية وتَقْوَى عصبياتهم يَنْتَقِلون الى الحضر لينشئوا الدول ، فإنّ الدولَ القائمة على المُلْك (على قهر الرعيةِ ، على الطاعة) لا تكون إلاّ في الحضر . أما في البدو فان الحكم يكون رئاسة بالعصبية (بتراضي الناسِ على تقديم واحد منهم ليحكم بينهم) .

وأهلُ الحضر يعتمدون على البادية في استيراد المواد الاولية للطعام والصناعة ، كما تعتمد البادية على الحضر في بيع منتوجاتها وشراء المصنوعات من المدن .

وليس بالبدو حاجة الى العلم الكثير ، فان العلم في الاصل ، والتبحُّر فيه خاصة ، من توابع الحضارة .

وكان البدو بطبيعة الحال أميين (لا يخطّون ولا يقرأون الخط) . على أن نفراً من أهل المدن ، وفي البوادي أيضاً ، لم يكونوا أميين . غير أن القراءة والكتابة كانتا في الجاهلية (في البادية وفي المدن معاً) معروفتين ، ولكن لم تكونا ثقافة عامة في الجاهليين .

جيرانُ عربِ الشمال

ليس هذا الفصل القصير مقصوداً لذاته ، ولكنّ الغايةَ منه أن نَقْرِنَ أحداثَ الجاهلية بالأحداث المحيطة بها وأن نرى تاريخَ عرب الشمال في مكانه من إطار التاريخ الانساني العام .

امبرطورية الاسكندر المقدوني

في عام ٣٣٣ ق . م . الْتَقَى الاسكندر المقدونيّ ملكُ اليونان بملك الفرس دارا الثالث في معركة ايّسوس (في شَماليّ غربيّ سورية) وهزمه ثم اندفع شَرْقاً ففتح الشام ومصر والعراق واخترق فارس حتى وصل الى نهر السِند في غربيّ الهند .

وعاد الاسكندر من الهند فلمّا وصل الى مدينة بابِلَ أدركته الوفاةُ ، عام ٣٢٣ ق . م . فانقسمت امبرطوريته الواسعةُ بين ثلاثة من قُوّاده :

أخذ أنتغونس المقاطعاتِ الأوروبيةَ وبعضَ آسية الصغرى ؛

أخذ بَطْلَيْموس مِصْرَ وجَنوبيّ سورية وبعض شواطيء آسيةَ الصغرى ؛

أخذ سُلوقُس ما تبقّى من المقاطعات الأسيوية .

ثم تقلّصت هذه الأقسامُ مع الأيّام وساءت أحوالُها السياسيةِ بالاستبداد ، ولكنْ تمتّعت بشيء من التقدّم العلمي والازدهار في العُمران . لقد بُني في هذه الحِقبة مدنٌ كثيرة أشهرها الاسكندريةُ العظمى في مصر والاسكندريةُ في العراق

والاسكندرونة وأنطاكية في شَمالي سورية .

تاريخ اليمن

بدأ تاريخ اليمن ، فيما وصل الينا بدولة مَعِين ، نحو عام ٢٥٠٠ ق . م ، وكانت عاصمة هذه الدولة مدينةَ مَعين نفسَها . وفي نحو عام ١٢٠٠ ق . م . عظمت دولة معين واتّخذت مكانها في تاريخ الحضارة . ولكنّها آثرت ان تكون دولةً تجارية في الدرجة الأولى فاكتفت بمحطّات تجارية أنشأتها في العُلى ومَدْيَنَ (شَماليّ الحجاز) وفي حوران (في الشام) وعلى ضِفاف الفُرات .

وفي مطلع القرن الأول ق . م . بدأت معين تضعف فنشأ الى جانبها دولة سَبَأ ، نحو عام ٩٥٠ ق . م . وأقامت عاصمتها في صِرواح . وقد كانت سبأ أيضاً دولة تجارية في الدرجة الأولى فورثت معينَ في التجارة وكسفت نورَهــا السياسي ، ثم حلّت محلّها مرة واحدة . في هذا الزمن كان رأسُ دولة سبأ يدعى مَكْرُباً ، وكان ملكاً وكاهناً في وقت واحد .

وفي نحو ٦٥٠ ق . م . انتقلب الدولة الى مأرِب واتخذ الحكّام لقب « ملك » واكتفَوْا بمنَصِب الحكم وتركوا المنصب الديني لكاهن مستقلّ . في هذا الدور عَظُمَ نفوذ سبأ . - ويَرْجِعُ بناء سد مأربِ الى هذا الدور من تاريخ اليمن .

ثم كان هنالك دويلاتٌ يمنية كدويلة قَتَبان وعاصمتها تمناء ، ودويلة حَضْرَمَوت وعاصمتها شَبْوة . إلاّ أن هذه الدويلات كانت تخضع لسبأ .

الامبرطورية الرومانية

لمّا قويت مدينةُ رُومِيَةَ (في ايطالية) بسطت سيطرتَها على الجزء المعمور من أوروبة وعلى الجانب الشَماليّ الغربي من قارّة إفْريقِيَةَ وعلى ساحل سورية من مملكة السلوقيين ، فأنشأت بذلك امبرطوريةً واسعة .

وفي عام ٤٨ ق .م . قاد يوليوس قيصر حملة على مصر ، في أيام كليوباطرة آخرِ البطالسة على عرش مصر ، ولكنه لم يُثَبِّتْ فيها حكم رومية .

وقتل يوليوس قيصر ، في ١٥ آذار (مارس) عام ٤٤ ق . م . فخلفه أوكتافيوس قيصر (٣٠ ق . م . الى ١٤ بعد الميلاد) فكان عهده مليئاً بالازدهار السياسي والاجتماعي وبالأحداث . فهو الذي أرسل ماركوس أنطونيوس لفتح مصر (٣٠ ق . م .) . فلمّا لم تنجح كليوباطرة في ردّ الغزو الروماني عن مصر ولا في اقناع أنطونيوس بالرجوع عنها ، كما كانت قد أقنعت يوليوس قيصر من قبل ، انتحرت . وأوكتافيوس هو الذي أرسل الحملة على اليمن ، عام ٢٤ ق . م . فلم يوفّق في فتحها .

وبعدَ فتح مصر تحوّلت طريق التجارة بين الهند واوروبة الى البحر الاحمر ، فقلّت قيمةُ الطريق البرية للتجارة ، وقلّتْ بالتالي قيمة اليمن كمحطة تجارية على تلك الطريق .

ظهور النصرانية

وفي أيام أوكتافيوس وُلِدَ عيسى عليه السلام في بيت لَحْمٍ (فلسطين) ثم أعلن رسالته في أيام طيباريوس قيصر (١٤ — ٣٧ بعد الميلاد) . دعا عيسى الى الايمان بالله والى المحبّة والرحمة والزُهد في الدنيا . ولمّا أراد الناس به شرّاً رفعه الله اليه . وكان عمره آنذاك ثلاثين عاماً ، أما مدّة رسالته فكانت أياماً معدودة .

انقسام الامبرطورية الرومانية

في مطلع القرن الرابع للميلاد كان الضعف قد ظهر جلياً على الامبرطورية الرومانية . فمن العوامل التي ساعدت على ضعف الامبرطورية انتشارُ البرابرة في أوروبة [1] وعودة الفرس الى قوّتهم السياسية والعسكرية بقيام الدولة الساسانية (٢٢٦ م) ، ثم القلاقل الداخلية والثورات ، النِزاع بين النصرانية والوثنية . ولمّا تجدّدتِ العداوةُ والحرب بين الرومان والفرس اضْطُرَّ الأباطرةُ

(١) قبائل متوحشة انساحت في أوروبة آتية من الشمال والشرق .

الرومانيون الى قضاء زمن في رومية وقضاء زمن آخر في آسية الصغرى ليكونوا قريبين من مَيْدان المعارك بينهم وبين الفرس . فلمّا جاء قسطنطين الأول الى عرش الامبرطورية ، عام ٣٠٦ م ، بنى عاصمة جديدة عند مَشْهَدِ بلدة بِيزَنطيوم القديمة وسمّاها باسمه « القسطنطينية » .

وفي عام ٣١٣ م . جعل قسطنطين النصرانية ديناً رسمياً للدولة .

وقبل أن يُتَوَفّى ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥ م .) قسم الامبرطورية بين ولديه فجعل أحدهما امبرطوراً في رومية والآخرَ امبرطوراً في القسطنطينية ، فانقسمت الامبرطوريةُ الرومانية بذلك قسمينِ مستقلّين تماماً . ولقد عُرِفَ القسمُ الشرقي من الامبرطورية الرومانية باسمِ « الامبرطورية الرومانية الشرقية » أو « الامبرطورية البيزنطية » ، وعرّفه العربُ باسم « مملكة الروم » .

سلع [1] - الرقيم - بطرا

في أقصى الجَنوبِ من سورية (في المملكة الأردنية الهاشمية اليوم) بلادٌ صخرية فيها واد يَصِلُ بين شَمالي جزيرة العرب وبين سورية . هذه البلاد كانت تدعى سَلْعاً .

نزل الأنباطُ [2] في سَلْعٍ منذ القرن السادس قبل الميلاد وجعلوا منها محطّة تجارية (من اليمن فالحجاز فشواطيء البحر الأبيض المتوسّط) . ومع أن سَلْعاً أصبحت ذات أهمّيّة سياسية وعسكرية فانها كانت في مُعْظَمِ الأحيان خاضعة للبطالسة ثم للرومان ثم للروم : ولما عرّف الرومان الطريقَ البحرية للتجارة قلّتْ قيمة سلع كما كانت قيمة الطريق البرية من اليمن الى الشام أيضاً قد قلّتْ .

---

(١) السلع : الشق في الجبل . وسلع حصن بوادي موسى من عمل (مقاطعة) الشوبك (قا ٣ : ٣٩) .

(٢) النبط والانباط والنبيط جيل (من الناس) ينزلون البطائح بين العراقين (قا ٢ : ٣٨٧) ، بين البصرة والكوفة . وهم ، فيما يبدو ، مزيج من العرب والآراميين . ويرى الدكتور جواد علي (٣ : ١٠ — ١١) . ان النبط (اهل سلع) غير النبط الذين يشير اليهم المؤرخون العرب . وهو يسمي بلادهم بطرا (٣ : ٣١ وما بعدها) اتباعاً للتسمية اليونانية .

دولة حِمْيَر

في عام ١١٥ ق . م . قامت في اليمن دولة جديدة هي الدولة الحِميْرَيّة . اتّخذت هذه الدولة مدينة ظُفار عاصمة واتّخذ ملوكها لقب « ملك اليمن وذي رَيْدان » .

امتدّ نفوذ حِمْيَرِ وعظمت تجارتها فأراد أغسطوس قيصر أن يستولي على اليمن ليستَوْليَ على ثروتها التجارية وعلى طريق تجارتها، ولكن الحملة التي أرسلها على اليمن (٢٤ ق . م .) خابت ، وكانت أول حملة وآخر حملة أرسلها الرومان على شبه جزيرة العرب .

كان سدّ مأرب ينثغر مرّةً بعد مرة فَيُرَمّمُ . على أن جانباً من السكّان المجاورين للسدّ كانوا يهجُرون اليمن تدريجاً الى شرقيّ افريقية والى نجد والشام والعراق . كما كان تكاثر السودان (الحبشة) في اليمن سبباً لنزوح أقوام من اليمن الى أقطار اخرى [1] .

التبابعة في اليمن

في نحو عام ٣٠٠ للميلاد نبعت في اليمن أسرةٌ جديدة اتّسع ملكها فضم حَضْرَمَوْتَ والشِحْر وشرقيّ اليمامة . كان ملوك هذه الدولة يُعْرَفون بلقب « تُبَّع » منهم أبو كَرِبٍ أسعدُ (٣٨٥ م) وابنه حسّانٌ (٤٢٠ ــ ٤٢٥ م) ثم ذو نُواس (٥١٥ ــ ٥٢٥ م) .

الدولة الساسانية

قامت الدولةُ الساسانية في فارس ، عام ٢٢٦ م (قبل الهجرة بنحو ٤٠٠ عام) ، أسّسها أرْدَشيرُ الاول (٢٢٦ ــ ٢٤١ م) بن بابَكَ .

لَعِبَتِ الدولةُ الساسانية في تاريخ العرب دوراً بارزاً ، فكلّ ما يذكره

---

(١) راجع الأخبار الطوال ٦٣ .

العرب من الحروب مع العجم ومن الوفود على ملوك العجم فانما يَقْصِدون به الدولة الساسانية . وكانت العداوة بين الروم « الامبرطورية الرومانية الشرقية » وبين الساسانيين شديدة متّصلة . وكانت ميادين القتال بينهما في الشام والعراق .

المزدكية

في أيام قباذ الأول (٤٨٨ – ٥٣١ م) نبع مذهب مزدك أو المزدكية .

المزدكية حركة اجتماعية شعبية وُجدت لتقاوم المانوية (مذهب ماني) ، دين الدولة الحاكمة ودين النبلاء ، فجاءت المزدكية وفيها عنصر شيوعي يقول بأن تقسم أموال الأغنياء بين الفقراء . ثم تطرّف مزدك فقال بشيوع النساء .

وقد اعتنق قباذ هذا المذهب وحمل الفرس عليه ودعا العرب في الحيرة ونجد اليه ايضاً .

تدمر

تَدْمُرُ واحة في بادية الشام على طريق القوافل بين العراق والبحر الأبيض المتوسّط . حافظت تدمر في أول الأمر على استقلالها عن الفرس والرومان حتى استولى عليها الامبرطور الروماني ترايان (عام ١٠٥ م) .

وبعد قرن من الزمن استطاعت تدمُر أن تسترد شيئاً من حريتها وأن تَبْلُغَ ذروةَ الازدهار التجاري والعسكري والسياسي . وحالف أُذَيْنَةُ أميرُ تدمرَ الرومانيين (عام ٢٦٢ م) ووقف الى جانبهم في حربهم مع الفرس فجعله الرومان (٢٦٥ م) قائداً على الجيوش الرومانية في الشرق وخلعوا عليه لقب « امبرطور » . ولمّا أراد أذينةُ أن تكون حريّته كاملةً اغتاله الرومان ، فَخَلَفَتْهُ امرأته زَنُوبِيَةُ وأرادتْ أن تقاوم الرومان للاحتفاظ باستقلال تَدْمُرَ ؛ فقاد الامبرطور الروماني أورليانوس حملةً على تدمر وحارب زنوبية وهزمها عندَ حِمْصَ (٢٧٢ م) ثم حملها أسيرةً الى رومية .

المناذرة والغساسنة

المناذرة والغساسنة أقوامٌ يقال فيهم إنهم من تَنوخَ من عرب الجنوب هاجروا من اليمن الى العراق والشام في مطلع القرن الثالث للميلاد. ويحسُنُ بنا أن ننظرَ إلى المناذرة والغساسنة، مهما قيل في أصلهم وموطنهم وزمن هجرتهم، على أنهم أُسرتان حكمتا في العراق والشام تحت سُلطان الفرس والروم؛ ولم يكن بين هاتين الاسرتين وبين الشعبين اللذين عاشا في حكمهما صِلةٌ من نَسبٍ ولا صلة من مودة.

أما الدور الذي قام به المناذرة والغساسنة في الحكم في العراق والشام فكان دوراً قاصراً على أمرين:

– كان المناذرة يجمعون الضرائب من القبائل العربية القريبة منهم ويقدمونها للفرس، كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضرائب للروم.

– كان المناذرة يحمون تخوم الامبرطورية الساسانية من غزَوات البدوِ الآتية من نجدٍ وبادية الشام، كما كانوا حاميات وطلائعَ في وجه الجيوش الرومية. ومثل ذلك كان شأن الغساسنة بالاضافة الى الروم.

وكان بين المناذرة والغساسنة، بطبيعة الحال، عداوةٌ انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم.

دويلة الحيرة

تَرْجِعُ نشأة هذه الدُوَيْلَةُ الى جَذِيمة الابرش [1] الذي خضع للفرس واستعان بهم على شيء من السيطرة على القبائل في بادية الشام. ثم ان رقاشِ أخت جَذِيمةَ تزوّجت رجلاً من بني أخوالها اسْمُهُ عَدِيّ بن نَصْرِ اللّخْميّ الإيادي، في حديث طويل، ورُزِقَتْ منه صَبِيّاً سَمّته عَمْراً. فلما مات جَذِيمة عام ٢٦٨ م خلفه عمروٌ هذا واتّخذ الحيرة على مَقْرُبَةٍ من بابلَ، ومن

(١) راجع ص

الكوفة اليوم منزلاً . فمن عمرو هذا جاء ملوك الحيرة وقيل لهم بنو نَصْرٍ وآلُ لَخْمٍ .

وبعد عمرو بن عديّ جاء ابنه امرُؤُ القيس الأول (٢٨٨ – ٣٢٨م) ويقال له امرؤُ القيس البَدْءُ أو البَدَنُ [١] ؛ ولعلّه صاحب نقش النمارة [٢] . ومعَ أن امرأ القيس هذا قد عاش في الحكم مدة طويلةً فانه لم يَزِدْ على أن أوقع بعددٍ من القبائل العربية خدمة للفرس وبمعونة الفرس .

وبعدَ أمَدٍ جاء النّعمانُ الأولُ الأعور أو السائح (٤٠٠ – ٤١٨ م) ، قيل له السائح لأنه تخلّى عن المُلك وساح في الأرض مُتَنَسِّكاً . وإلى النعمان الأولُ يُنسب بناء قصرُ الخَوَرْنَقِ قرب الحيرة وبناء قصر السَّدير في بادية الشام . وكان للنعمان كتائبُ أشهرُها اثنتان : الشَّهْباء من العرب ودَوْسَر من الفرس ، أو أنه كان للكتيبة الثانية قائدٌ فارسي الى جانب قائدِها العربي فقيل لها دُوسَر (ذاتُ الرأسين ، أي القائدين) .

ومن مشاهير ملوك الحيرة المُنْذِرُ الاول بن النعمان ، وكان قديراً حازماً علت منزلته في البَلاط الساساني ، ثم أصبح جميع ملوك الحيرة بعده يُدْعَوْنَ المَناذرة [٣] .

وبعد أمد طويل جاء المنذر الثالث (نحو ٥١٤ م) بن ماء السماء [٤] ، وكان قوياً قادراً فكَرِهه قُباذُ ملك الفرس اذ شكّ في صلاتٍ له معَ الروم . وعَرَض

---

(١) يظن جواد علي أن لقب «البدن» خطأ في الرواية (٤ : ٣٧) . ولكن للبدن ، فيما أرى وجهاً . ان البدء هو الأول أو السيد (قا ١ : ٨) ، والبدن : الرجل المسن (بتشديد النون) والوعل المسن (قا ٤ : ٢٠٠) . وفي البادية يقال : للأمير الكبير ولرأس الأسرة : الشيخ العود (بفتح العين) . والعود هو ثاني البدء والمسن من الابل والقديم من السؤدد (قا ١ : ٨ ٣١) ؛ ويقال زاحم بعود : أي استعن على حربك بالمشايخ الكمل (بضم الكاف وتشديد الميم المفتوحة) (١١ : ٣٢٠) .

(٢) راجع ص ١١ .

(٣) كان (النعامة) لقب كل من ملك الحيرة (قا ٤ : ١٨٢) .

(٤) ماء السماء أم بني ماء السماء ولا اسم لها غيره (قا ٤ : ٣٤٤) .

قَباذ على المُنْذِر أن يَدْخُلَ في المَزْدكية ، فلمّا رفض المنذرُ ذلك عزله قُباذُ ووليّ مكانه الحارث بن عمرو بن حِجْرٍ الكِندي (عام ٥٢٤ م) . ويبدو أن ذا نوس ملك اليمن أرسل في ذلك الحين وفداً الى الحيرة ليُقْنِعَ المنذرَ باضطهاد النصارى الذين كانوا تحت حكمة [١] .

ولمّا تُوُفّيَ المنذرُ خلفه ابنه عمرٌو المعروف باسم عمرو بن هِند (٥٦٢ — ٥٧٤ م) ، وكان ظالماً مستبداً سفّاكاً للدماء ، وقد سُمّيَ المُحَرّقَ ومُضرّطَ الحِجارة [٢] . ومات عمرُو بن هند مقتولاً ، قتله عمرو بن كلثوم .

وبعد عمرو جاء شقيقه قابوسُ [٣] ، وكان مُسِنّاً . ولم يكن عمرو بن هند يَعْطِفُ على أخٍ له آخرَ اسمه عمروُ بن مامة ، فكان عمرو بن مامة صديقاً لطَرَفَةَ بن العبد الذي كان يهجو عمرو بن هند .

ثم جاء النعمان بن المنذر أبو قابوسَ صاحب الشاعر النابغة والذي كانت في أيامة وقَعة ذي قار .

الغساسنة في الشام

يبدو أن الغساسنة في الشام أحدث عهداً من المناذرة في الحيرة ، وقد ملّكهم الرومُ على الشام [٤] . وقيل ان أول ملوكهم جَفْنة بن عمرو بن عامر ، ويُعْرف بمُزَيْقِياء [٥] . وكانت دولة الغساسنة ، في أول أمرها ، بَدْوية موغلة في البداوة فكان مُقامها في خيام ينتقل بها أصحابها من مكان الى آخر : نزلوا أولاً في

---

(١) جواد علي ٤ : ٥٣ .

(٢) قال أبو عبيدة : كان عمرو بن هند شريراً ، وكان يقال له مضرط الحجارة لشدته (ابن الأثير ٨ : ٢٢٦ ؛ الانباري ٤٣٢ ، راجع ١١٥) . و« المحرق » لقب عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بني تميم (قا ٣ : ٢٢٠) .

(٣) قابوس تعريف كاووس الفارسية ، وهو ممنوع من الصرف للعجمة والمعرفة (قا ٢ : ٢٣٨) .

(٤) مروج الذهب ٢ : ١٠٧ .

(٥) مزيقياء لقب عمرو بن عامر ملك اليمن كان يلبس في كل يوم حلتين ثم يمزقهما بالعشي لأنه كان يكره أن يعود الى لبسهما مرة ثانية (قا ٣ : ٢٨٣) .

جابية الجَوْلان ، ثم انتقلوا الى جِلّق التي في حوران ثم الى بُصْرى الحرير [١] .

وتاريخ الغساسنة غامض جداً . أما أقدم ملوكهم المذكورين فكان جَبَلَة بن أبي شَمِرٍ في أواخر القرن الخامس للميلاد . وبعد جبلة جاء ابنه الحارث الثاني (٥٢٩ – ٥٦٩ م) ، ويعرف ايضاً باسم الحارث بن أبي شَمِر وبلقب الحارث الأعرج ؛ وقد كان معاصراً للمنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة (ت ٥٤٤ م) . ورَضِيَ الرومُ عن الحارث الاعرج بن جبلة فسمّاه الامبرطور يوستنيانوس « فولارخوش » (رئيس عشيرة) وعيّنه بِطريقاً [٢] ، في عام ٥٣١ م .

ثم جاء بعد الحارث الاعرج بن جبلة ابنُهُ المنذر الثالث (٥٦٩ – ٥٨٢ م) ، وقد كان معاصراً لعمرو بن كُلثوم وقابوسَ والمنذر الرابع من ملوك الحيرة ، فكَثُرَتْ في أيامه الحروب بين الدُوَيْلتين .

ويبدو أن الغساسنة لمّا اعتنقوا النصرانية إرضاء للروم اتّخذوا المذهب اليعقوبي السائد في الشام والقائل بأن في المسيح طبيعةً واحدة [٣] ، إرضاء لمن حولهم من النصارى . على أن الغساسنة كانوا ككلّ البدو قليلي الاحتفال بالدين وقليلي التفريق بين نصرانيّتهم الجديدة ووثنيّتهم القديمة ، اذ كانت قصورهم المتأخّرة مملوءة بالأصنام . وليس يبدّل شيئاً من حكمنا قولُ القائلين بأن الغساسنة غَنِموا هذه الاصنام من أعدائهم ثم أقاموها في قصورهم شاهداً على انتصاراتهم [٤] .

---

(١) تقع هذه المدن جنوب دمشق .

(٢) البطريق : القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل (قا ٣ : ٢١٤) ؛ راجع الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ٢٠٢ .

(٣) كان نسطور (ت ٤٤٠ م) أسقف القسطنطينية يرى أن في المسيح طبيعتين : طبيعة الهية (لأنه بزعمه ابن الله) وطبيعة بشرية لأنه ابن مريم . أما يعقوب البردعي (ت ٥٧٨ م) يقول ان للمسيح طبيعة واحدة لأن الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية اتحدتا فيه .

(٤) العرب في سوريا قبل الاسلام ٥١ .

سقوط مكانة الغساسنة عند الروم

في خريف عام ٥٧٨ م توفّي امبرطور الروم يوستينوس وخلَفه طيباريوس. وكان طيباريوس حريصاً على أن يُوَحّد آراء القائلين بالطبيعة الواحدة ثم يجمع هؤلاء كلّهم مع القائلين بالطبيعتين ، ففي مطلع عام ٤٨٠ م أرسل طيباريوس يدعو المنذر الثالث الى زيارة القسطنطينية . ولمّا وصل المنذر الى القسطنطينية في شباط (فبراير) من عام ٥٨٠ أكرمه طيباريوس وسمّاه ملك الشرقيين ثم عهد اليه بأمر التوحيد بين القائلين بالطبيعة الواحدة ثم بين هؤلاء وبين خصومهم القائلين بالطبيعتين[1] لأن جميع هؤلاء كانوا ممن يسكنون الشام والعراق . وكانت هذه المهمّة بطبيعة الحال أصعبَ مما يَقْدِرُ عليه المنذر . ثم لم يُوَفّقِ الروم في حرب الفرس فاتّهموا المنذر الغسّاني بأنه لا يسهر على ما يريدونه منه سهراً صحيحاً ، فاستدعاه طيباريوس الى القسطنطينية مرة ثانية (في ربيع عام ٥٨١م) . فلمّا وصل المنذر الغساني الى حوّارين (بين تدمر وحمص) قبض رجال الروم عليه وأرسلوه الى القسطنطينية ، ثم قُطعت الاعانة السنوية التي كان الروم يدفعونها للغساسنة . فثار أبناء المنذر الأربعة من أجل ذلك على الروم وأغاروا على بُصرى وسواها من المدن . غير أن الروم أخمدوا هذه الثورة وقبضوا على النعمان أكبر أبناء المنذر . ثم لم يأبه الروم للغساسنة بعد ذلك . غير أنه بقي للغساسنة ظلّ من السيطرة المحلّية المحدودة الى أن غزا الفرسُ الشام فَقَضَوْا على تلك السيطرة . ولكن نفراً من الغساسنة ظلّوا يعيشون على مكانتهم بالأمس من غير أن يكونَ لهم من الأمر شي .

الحبشة

حَبَشَ وحَبّشَ : جَمّع ؛ والحُباشة والأحبوشة الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة (قا ٢ : ٢٦٦) واحدة .

أهل الحبشة قوم من الحاميّين أو الكوشيين ومن الساميين هاجروا الى شرقي

(١) العرب وصلاتهم بالروم ١ : ٢٠٢–٢٠٦ ؛ راجع أيضاً الحاشية .. على الصفحة ...

إفْريقيةَ منذ زمن قديم ثم اختلطوا بجماعات من الزُنوج ، فهُمْ في مُعْظَمهم عرب جلبوا معهم لغتهم العربية الساميّة من موطنهم الاصلي ؛ وأقدم نقش عربي وجدناه في الحبشة يَرْجِعُ الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولا ريبَ في أن العرب والعربية في الحبشة أقدمُ من ذلك كثيراً . ومع الأيّام تطوّرت العربية في الحبشة فأصبحت « الجعِزَ » ، وتُعرَف أيضاً باللغة الأثيوبية أو الحبشية . ومع أن لغة الجعِزِ قد بَطَلَتْ أن تكونَ لغة المخاطبة منذ القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد ، فانها لا تزال لغة الدين في الكنيسة الحبشية .

وكَثُرَ العرب في شماليّ الحبشة فأقاموا في مدينة أُكسومَ (أو يَكْسومَ) ، في القرن الأول للميلاد ، دولة عُرفت باسم مملكة أكسوم ، وعُرِفَ ملكها باسم النجاشي [1] .

وفي القرن الرابع للميلاد ، في أيام النجاشي عَيْزان [2] ، دخلت النصرانية الى الحبشة ، ولكن يبدو أن الأسرة الحاكمة لم تَتَنَصر منذ ذلك الحين .

وغزا الأحباش اليمن مرتين : مرّة في القرن الرابع ومرّة في القرن السادس ؛ ويبدو أن المرّة الأولى كان في أيام عَيزانَ . ومع أنّ الاحتلال الحبشيَ لليمن في هذه المرّة لم يطلْ ، إذِ انتهى في عام ٣٧٨ م ، فانه قدِ اتّسع كثيراً في القسم الجنوبي من جزيرة العرب .

النفوذ الحبشي في اليمن

كان الرومُ البيزنطيون والفرس الساسانيون يتنازعون السيادةَ على بلاد كثيرة في الشرق . ولم يستطعِ الروم أن يَغزوا اليمنَ بأنفسهم غزواً مباشراً فبَثّوا في اليمن جماعات من المُبشّرين أرسلوهم من الحَبَشَة ومن الشام والعراق ، فأخذت النصرانيةُ تنتشر في اليمن. وفي سنة ٣٤٠ م أَوْعَزَ امبرطور الروم قسطنديوس الثاني

(١) النجاشي (بفتح النون ، وقد تكسر النون ، وقد تشدد الياء) : ملك الحبشة (قا ٢ : ٢٨٩) .
(٢) راجع أيضاً جواد علي ٣ : ١٥٢ .

ابن قسطنطين الكبير الى النجاشي عَيزانَ بأن يَغزُوَ اليمن. ولم يكن ملوك الحبشة قد اعتنقوا النصرانية بعد ، ولكنّ الطمعَ بخيرات اليمن جمع بين الروم والحبشة.

ولقيتِ النّصرانيةُ تشجيعاً كبيراً في أثناء الحكم الحبشي وزادَ انتشارُها . ثم ان تُبّعَ كَرِبَ يَهْأمَنْ [١] هزم الاحباش ، عام ٣٨٧ م ، وأخرجهم من اليمن فعادتِ الوثنية الى اليمن وفقدتِ النصرانيةُ كثيراً من مكانتها . ولكن يبدو أنّ المبشرين النصارى عادوا الى نشاطهم . فلما جاء تُبّعٌ زُرْعَةُ ذو نُواسٍ (٥١٥ – ٥٢٥ م) اضطهدَ النصارى الذين لم يرضَوْا أن يعودوا الى الوثنية ثم حفر أُخدوداً (حفرة تشبه الخندق) وأشعل فيه ناراً وألقاهم في النار [٢] .

ويُرْوى أن تُبّعاً ذا نواس واسمه زرعة بن زيد [٣] كان قد اعتنق اليهودية ولذلك اضطهد النصارى [٤] . ولكنّنا اذا رجعنا الى القرآن الكريم رأينا فيه قولَه تعالى في سورة البُروج (٨٥ : ٤ – ٩) : « قُتِلَ أصحابُ الأخدود [٥] : النارِ ذاتِ الوَقود – ؛ إذ هم عليها قُعودٌ –، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهود [٦] – . وما نَقَموا منهم الاّ أن يُؤمنوا بالله العزيز الحميدِ – الذي له مُلْكُ السموات والأرض ؛ والله على كلّ شيء شهيد – » .

ان هذا يدل على أن ذا نُواسٍ دعا اليمانيين النصارى الى الرجوع الى الوثنية لا الى اليهودية [٧] ؛ لأن اليهوديةَ والنصرانية المعاصرتين لنزول القرآنِ كانتا ديانتينِ سماويتين لا مجالَ لتفضيل إحداهما على الاخرى . واذا بدا أنَ اليهود كانوا أشدّ عِداء للرسول وللاسلام ، وأن النصارى كانوا أقربَ مودةً

---

(١) جواد علي ٣ : ١٥٢–١٥٣ .
(٢) مروج الذهب ٢ : ٧٧–٧٨ .
(٣) الاخبار الطوال ٦١ .
(٤) الطبري ٢ : ١٢٣ .
(٥) أصحاب الاخدود : الذين حفروه ليحرقوا فيه خصومهم .
(٦) قعدوا قرب الخندق ليشهدوا بأعينهم احتراق خصومهم .
(٧) ليس في الاخبار الثابتة ما يقطع بأمر اليهودية في اليمن (راجع جواد علي ٣ : ١٧٠ وما بعدها) .

فان هذا يقتضي أن يُفضل النصارى على اليهودِ ولا يقتضي تفضيل اليهودية الاولى على النصرانية الاولى[1] .

الغزو الحبشي الثاني لليمن

غيظَ الرومُ من عمل ذي نواس فأوعز يوستينوس الاول[2] الى النجاشي كَلَبٍ يغزو اليمن (وكانت الاسرة الحاكمة في ذلك الحين قد أصبحت نصرانية) فأرسل النجاشي حملة بقيادة أرياطَ[3] ، عام ٥٢٣ م . في أواخر حكم ذي نواس ، فانبسط حكم الحبشة على اليمن من جديد ، وكان في هذه المرة حُكماً فعلياً قاسياً .

في هذه الحِقْبةِ انفجر سدّ مأرب انفجاره العظيم الاخيرَ المشهورَ ، بعد عام ٥٤٢ م وقبل عام ٥٧٠ م . ومع أن انفجار سد مأربٍ كان سببَ التأخر الاقتصادي في البُقعة المحيطة به ، فان العامل الأساسي في التأخر الاقتصادي العام في اليمن كلها يرجع الى تحوّل طريق التجارة من البر الى البحر .

وفي هذه الحِقبة أيضاً ، في عام ٥٧٠ م سار أبْرَهَةُ بن الصباح (قا ٤ : ٢٨١ الى الحِجاز ليهدمَ الكعبة في مكة وليحوّلَ الحجاج الى اليمن . ولكن حملته باءت بالفشل .

الحكم الفارسي في اليمن

لم يكنْ بإمكانِ اليمنيينِ في هذه المرة أن يُخرجوا الاحباشَ من اليمن بأنفسهم فقام رجلٌ منهم شريفُ النسب يُدعى سيفَ بن ذي يزَنَ ورأى من الحكمة أن

---

(١) راجع سورة المائدة : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ؛ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون .

(٢) امبرطور الروم (٥١٨ – ٥٢٧ م) الذي جاء قبل يوستنيانوس المشهور (٥٢٧ – ٥٦٥ م) .

(٣) الطبري ٢ : ١٢٣–١٢٥ .

يستنجد بالفرس الساسانيين أعداء الحبشة والروم. أصغى كسرى أنوشروان لسيف بن ذي يزن وأمده ، في عام ٥٧٥ م ، بجيش ساعد اليمنيين على إخراج الاحباش من اليمن. ولكن ذلك لم ينفع اليمنَ نفسها كثيراً ، اذ تحولت مع الايام «مَرْزُبانةً» (مقاطعة فارسية) يحكمها «مَرْزُبانٌ» (حاكم فارسي). وقد بَقِيَ الحكم الفارسي في اليمن الى أن جاء الاسلام.

أيّام العرب
طبيعتها وأسبابها

ايامُ العربِ هي المعارك التي وقعت بين القبائل العربية في الجاهلية . كانت هذه المعارك تَنشَبُ لأسباب تافهة جداً : وقعت حرب البسوس لأن كُليبَ وائلٍ قتل ناقة كانت ترعى مع ابله . وكانت تلك الناقة لأمرأة كانت ضيفة عند جسّاس ابن مُرّة . فعد جساس فعل كليب إهانة له فقتل كليباً . فنَشِبَتْ المعارك بين بكرٍ وتَغْلبَ ودامت نحو اربعين عاماً من العداوة المتصلة والقتال المتقطّع . واختلف نفر من بني عَبْسٍ وبني ذُبيانَ على سباق خيل فنشبت حرب داحس والغبراء ودامت ايضاً اربعين عاماً .

هذه الحروب والمعارك كانت تقع عادة بين قبائل البادية ، وكانت تقع ايضاً بين اهل القرى (المدن) ، كما اتفق في ايام الأوْسِ والخزرج سكان يثرب . وربما وقعت بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب كما اتفق في يوم خزازى ، اذ كانت الحرب بين ربيعة ومَذْحِج . وقد تنشب المعارك بين عرب الشمال انفسهم كما كانت الحال في حرب البسوس بين بكر وتغلب ثم في حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان . وربما كانت بين عرب الجنوب انفسهم كأيام الأوس والخزرج . وربما اجتمعت قبائل من عرب الشمال وعرب الجنوب معاً فحاربت قبائل من عرب الشمال معاً ، كما اتفق في يوم حليمة اذ سار المنذر الاسود بن المنذر بن ماء السماء بعرب العراق اجمع وقاتل الحارث الاعرج بن أبي شَمِرٍ

الغساني الذي سار الى المعركة بعرب الشام اجمع . وهنالك ايضاً يوم ذي قار الذي نشب بين العرب والفرس .

على ان الاسباب التي كانت باعثة على نشوب ايام العرب لم تكن دائماً تافهة ، بل كانت في مُعْظَمِ الاحيان تَرْجِعُ الى بواعثَ اقتصاديةٍ كحرب البسوس فان باعثها الصحيح ان كليبَ وائل قد حمى أراضيَ واسعةً واستبد بمراعيها ومائها ومنع عدداً من القبائل من ان تَسْتَقِيَ منها وترعى فيها . وقد تكون تلك البواعث سياسية كما كانت الحال في يثرب بين الاوس والخزرج ، فقد كان كل فريق منهم يرى ان يستأثر بحكم البلد . وربما كانت البواعث اجنبية كما اتفق في يوم عين أباغ ويوم حليمةَ اذ كان النفوذ الفارسي وراء المناذرة وكان النفوذ الرومي وراء الغساسنة .

العصبية القبلية والشعور الجامع

ان ايام العرب تدلنا على ان العرب لم يكونوا يشعرون في تاريخهم الجاهلي الطويل أنهم أمةٌ واحدة ، بل كانوا يشعرون انهم عَصَبيّاتٌ : ان المَدْرَكَ الجاهلي للحياة الاجتماعية كان ان كل قبيلة كانت وَحْدَةً قائمة بنفسها في النِطاق الاجتماعي : في السياسة والاقتصاد ، لأن القبيلة كانت تعدّ نفسها وَحْدَةً مستقلة في النسب . ولم يكن الجاهلي يَقْدُرُ الشعورَ الجامع للأمة ولا للعشيرة ، فكانت القبيلة (او العشيرة) اذا كَثُرَ عدد أفرادها انقسمت فأصبحت أقساماً يجمعها النسب احياناً كثيرة وتفرق بينها المصالح الاقتصادية والاهواء النفسانية فيأخذ كل قسم من القبيلة الواحدة يقاتل القسم الآخر منها كما لو كان يقاتل قبيلة اخرى او جماعة أجنبية . لما عظمت قبيلة (أو عشيرة) غَطَفانَ وتفرّعت عَبْساً وذُبيان ومُزينة ومرّة وفزارة وكثر بينها القتال ، وخصوصاً في حرب داحس والغبراء ، تألم زهير بن ابي سُلمى المُزَني لِما وقع من القتال الطويل العنيف الذي لا رحمة فيه بين عبس وذبيان . ثم لما تقدم الحارث بن عَوْف وهَرِمُ بن سِنان المُرّيان لحسم الخلاف ودفعا بقايا الدِيات من اموالهما مدحهما زهير في معلّقته وأشار الى حال

القتال فقال :

سعى ساعيا غَيْظِ بن مُرّةَ بعدما   تبزّل ما بين العشيرة بالدم
تداركتما عبساً وذُبيانَ بعد ما   تفانَوْاودقّوا بينهم عِطر مَنْشِمِ .

ان معلّقة زهير مهمة جداً في تاريخ العرب : هي حَلْقة بين الشعور الفردي الضيق وبين الشعور القومي الجامع ؛ ثم هي المَعْلَمُ الأول في تاريخ العرب ، بل في تاريخ العالم ، للّجوء في حَل المنازعات الى الطرق السلمية في زمن كانت الحربِ هيالوسيلةَ الوحيدةَ للفصل فيالنزاع . والذي يبدو ان حب السلم والشعور الجامع بين العرب كانا قد بدأا بالبروز في اواخر العصر الجاهلي .

عدد أيام العرب وترتيبها

وفي تاريخ ايام العرب امور تجب مراعاتُها :

● عددُ ايام العرب (مع تمييز الحروب المتصلة منها من المعارك المنفردة الداخلة في الحرب) ،

● ترتيبُ ايام العرب تاريخياً ،

● تقديم بعض ايام العرب على بعضٍ من حيثُ الأهميةْ ،

● نطاق ايام العرب ، والقبائل التي اشتركت فيها ،

● تحقيقُ أحداثِ ايامِ العرب وسردُها سرداً متعانقاً .

● اثر ايام العرب في الحياة العربية العصبية وفي صلات العرب بغيرهم من الأمم (كالفرس والروم) .

اما عدد ايام العرب فعظيم جداً لا يمكن ان يدخل تحت الحصر ، ذلك لأن حياة العرب الاقتصادية كانت قائمة في الحقيقة على الغزو ، وكان هذا الغزوُمتصلا. على ان الرُواةَ والإخباريين نقلوا الينا عدداً من ايام العرب إما لأنها دامت مدة طويلة كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، واما لانها كانت ذاتَ اهمية

خاصة في تاريخ العرب كيوم ذي قار .

ونحن اذا قلنا ايام العرب ، فإنما نعني شيئين أحدُهما تابع للآخر « أما الشيء الأول فهو الايامُ التي استمرت مدة طويلة والتي يجمعها عادة اسم حرب » كقولنا « حرب داحس والغبراء » او « حرب البسوس » اللتين دامت كل واحدة منهما اربعين سنة . ثم هنالك الايام المفردة في اثناء الحرب الواحدة والتي يَحْسُنُ ان نُسَمّيَها معارِكَ . ان يوم تَحلاق اللِمَمِ مثلاً هو معركة داخلة في حرب البَسوس وليس يوماً مستقلاً قائماً بنفسه . ومع ان الاخباريين قد سَمَّوْا جميع حروب العرب ومعاركهم أياماً ، من غير تمييز بينها ، فمن الاصوب ان نتّبع نحن إحدى تَسْمِيَتَيْنِ :

التسمية الاولى : تُسمّى الايامَ المتصلة والمتعلقة بسببٍ لها واحد « اياماً » بالجمع ، ثم نسمي كل صِدام مُفْرَدٍ في اثناء تلك الايام يوماً ، فنقول مثلاً : ان يوم تَحْلاق اللِمَم يوم من ايام البسوس .

التسمية الثانية : تسمى الايام المتصلة حرباً ، كما كان الرواة ايضاً يَدْعُونها أحياناً ، ثم نسمّي كل صِدام مفرد أو معركة في تلك الحرب يوماً .

اما ترتيب تلك الايام ترتيباً تاريخياً فأمر صَعْبٌ جداً ، لأن تلك الايام اتّصفت من الناحية التاريخية بصفتين :

● انها كانت تَنْشَبُ في القبائل المختلفة في اوقات متقاربة . ثم ان اكثرها كان متداخلاً : تبدأ الحرب ثم يبتدىء غيرها قبل ان تنتهي الأولى . وربما بدأت حرب ثم بدأ عدد آخر من الحروب وانتهى قبل ان تَنْتَهِيَ الحرب الأولى ايضاً. أضف الى ذلك كله ان جميع هذه الايام التي وصلت الينا اخبارها قد نَشِبَتْ في مدى قصير من الزمن ، في نحو مائة وخمسين عاماً ، وكانت حروباً مستقلة ولكن تَنْشَبُ لأسباب متشعّبة ، فلم يكن في اسبابها ما يساعدنا على الربط بينها . ثم ان الاخباريين قد اهتموا بقصة تلك الايام اكثر مما اهتموا بتخريج اسبابها وضبط زمنها .

● وهنالك أمرٌ مهمّ جداً هو أنّ الحروب في جاهليات الأمم من حيّز الفخر اكثرَ منها من حيّز التاريخ . ولا ريب في أن كثيراً منها قد دخله مبالغاتٌ كثيرة فيما بعد ، كما انه لا شك ايضاً في ان بعضها من صنع الاجيال التالية . ومما يجعل هذا الرأي قوياً عندنا هو ان الطبريّ مثلاً ، وهو شيخ المؤرخين المسلمين ، لم يذكر سوى يوم ذي قار ، إما لأنّ الأيام الباقية لم تثبتْ في رأيه ، وإما لأنه لم يرَ لها الأهميةَ الكافية لإثباتها في كتابه .

على ان ابن الاثير اثبت أياماً كثيرة ثم حاول ، فيما يبدو ، ان يسردَها سرداً فيه محاولة لترتيب تاريخي .

عظام أيام العرب

اذا نحن قَبِلْنا صِحّةَ جميع ايام العرب التي وصلت الينا أخبارُها فلا مندوحة لنا عن ان نُقَدّمَ بعضَها على بعض من حيثُ الأهميةُ والأثرُ . جاء في الاغاني (١١ : ١٣١) أن عِظامَ ايام العربِ ثلاثةٌ : يومُ الكُلابِ ، وهو يوم انتصر فيه عرب الشمال على عرب الجنوب بعد عهد من الانتصارات المُتوالية لعرب الجنوب على عرب الشمال ؛ ثم يوم شِعْبِ جبَلَةَ وهو يوم بدأ بين عبس وذبيان ثم انضم الى كل قبيلة أحلافٌ لهم من عرب الشمال ؛ ثم يوم ذي قار ، وهو يوم كان بين العرب وبين الفرس انتصر فيه العرب على الفرس لأول مرة في تاريخهم .

قال ابن الاثير [١] إنّ الطبريّ لم يَذْكُرْ من أيام العرب إلاّ أيامَ جَذِيمة والزبّاء وطَسْمٍ وجَدِيسَ (لأنها أيام بين ملوك) وإلاّ يومَ ذي قارٍ [٢] . أما أنا فانّني أذكرُ « الأيّامَ المشهورةَ والوقائع المذكورة التي اشتملت على نفرٍ كثيرين وقتال شديد ؛ ولم أعرّجْ على ذكر غاراتٍ تشتمل على النفر اليسير لأنها كثيرة تخرج عن الحصر ».

---

(١) ابن الاثير ١ : ٢٠٥ .
(٢) الطبري (دار المعارف) ٢ : ١٩٣-٢١٢ .

مجرى التاريخ في نجد

أيام العرب - كندة

ان أيام العرب كثيرة في العدد وقديمة في الزمن ، ولكنّ الرواةَ لم يحفظوا لنا لنا منها الا عدداً قليلاً قريبَ التاريخ من ظهور الاسلام . ومن المعقول جدّاً أن تكون أيام العرب الاولى قد كانت بين عرب الشَمال وبين عرب الجَنوب : حِرْصاً من عرب الشمال على مراعيهم القليلة أن يَشْرَكَهُمْ فيها عرب الجنوب الطارئين على تِهامة ونَجد .

ولقد كان من المعقول أيضاً أن تُحاولَ القبائلُ الطارئةُ من الجَنوب أن تَنْزِلَ في البِقاع التي هي أكثر خِصْباً من غيرها . فنتج من ذلك رحيلُ القبائل الشمالية عن أراضيها ، اذا كانت هي قليلةَ العددِ ضعيفةً وكانت القبائل الطارئة كثيرة العدد قوية .

وكان من القبائل الجنوبية الطارئة على الشمال بنو كِنْدة .

بنو كندة

بنو كِندةَ قبيلة يمنية كانت تسكن جبال اليمن الشرقية مما يلي حَضْرَمَوْتَ . في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي غادرت جماعات من كندة بلادها واتجهت شَمالاً حتى نَزَلت في مكان دُعِيَ فيما بعد غَمْر كندة أو غَمْرَ ذي كندة ، وهي ارض لبني جُنادة بن مَعَدّ في نجد على بعد يومين من مكة شرقاً .

وكان ذلك نحو ٣٥٠ م . (٢٧٢ قبل الهجرة) .

وفي القرن التالي اختلط بنو كندة هؤلاء بعرب الشمال اختلاطاً أصبحوا به وكأنهم من عرب الشمال . في ذلك الحين تفاقم الشر ، فيما يبدو ، بين عرب الشمال انفسهم فسار جماعة منهم الى تُبّع بن كَرِب ملك اليمن وطلبوا منه ان يُوَلّيَ عليهم ملكاً ، فولّى عليهم حُجر بن عمرو (عمرو المشهور بآكل المرار) الكندي . وقد كانت تولية حجر بن عمرو موافقة للسياسة اليمنية : كانت عصبية حجر يمنية ، وكان هو من اسرة تولّت الملك في بلادها الاولى . ثم ان هذه الاسرة كانت قد استقرّت في الشمال قبل نحو قرن من الزمن وعرفت اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية .

أقدم أيام العرب

ذكر جرجي زَيْدان[1] أنّ أقدم ما حَفِظَه التاريخُ من أيام العرب يوم البيضاء بين عَدْنانَ واليمن في أواسط القرن الرابع للميلاد . وقد انتصر بنو عَدْوانَ العدنانيون يومذاك بقيادة سيّدهم عامر بن الظَرِب على مَذْحِج .

لم يُعَلّقِ الدكتور حسين مؤنس على هذا اليوم بما يجلو شيئاً من غموضه . ثم ان الدكتور جواد علي نقل ذلك في كتابه (٤ : ٣٤٨) . أما أنا فلم أجد في المصادر التي بين يَدَيَّ ذكراً لهذا اليوم .

ويبدو أن بني بغيضِ بن رَيْث بن غَطَفان كانت منازلُهم في تِهامة ثم اضْطُرّوا الى أن يهاجروا منها الى نجد لما أزعجهم عنها قبائلُ طارئةٌ من الجنوب. في أثناء هذه الهجرة تعرّضت لهم صَدّاء ، وهي قبيلة من مَذْحِج كانت فيما يبدو تبحث عن أرض تنزل فيها .

وانتصر بنو بغيض في القتال ثم استقرّوا حيث شاءوا وكَثُرَتْ أنعامهم وزاد

(١) العرب قبل الاسلام ، تأليف جرجي زيدان (طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس) ، القاهرة (بلا تاريخ) . ص ٢٥٤ .

عددهم وقويت عصبيتهم . وخطر لبني بغيض أن يتّخذوا حيث نزلوا «حرَماً» مثل حرم مكة وأن يكون لهم كَعْبةٌ ؛ ولقد كانوا بالأمس ، قبل أن يغادروا منازلهم في تِهامة ، شُركاءَ في حرم مكة وكعبتها .

وكان في بني كِنانة بن بكر من قُضاعة [1] سيّدٌ هو زُهير بن جَناب بن هُبَل ابن عبدالله بن كنانة بن بكر ، وقد اتّفقت قضاعة على تقديمه وترئيسه . وكان زهيرٌ معروفاً بصحّة الرأي وبالشجاعة والظفر في الحروب . عزّ على زهيرٍ أن يقومَ حرَمٌ فيه كعبة غيرَ حرمِ مكّةَ فجمع جموعاً من قومه ثم أغار على غَطَفان وأكثر القتل فيهم . بعدئذ أخذ فارساً من فرسانهم وقتله في « الحرم » الذي كانوا قد اتّخذوه . فبطل ذلك المكان أن يكون حرماً .

زهير بن جناب وأبرهة

استولى الحبشةُ على اليمن ، عام ٥٢٥ م ، بقيادة قائد اسمه أرياط . ولكنّ أبرهةَ [2] الحِمْيَرِيَّ قتل أرياط واستبد بحكم اليمن مكانه من غير أن يستطيع التملّص من سيطرة الحبشة . أراد أبرهة — جرياً على عادة ملوك اليمن من قبلُ ، أن يَبْسُطُ نفوذه على نجد ويَفْرُضَ على القبائل اتاوة يجمعها منهم في كلّ عام .

قال ابن الاثير (١ : ٢٠٥ — ٢٠٧) : « إن ابرهةَ حين طلع الى نجد أتاه زهير (بن جناب)، فأكرمه (أبرهة) وفضّله على من أتاه من (شيوخ) العرب، ثم أمّره على بني بكر وبني تَغْلِبَ « ليجمع منهم الاتاوة المفروضة . وأصابت بني بكر وبني تغلب سَنَةٌ فلم يَحُطّ عنهم زهيرٌ شيئاً من الأتاوة ، بل أصرّ

(١) قيل في قضاعة انها من عرب الشمال ، وقيل بل هي من عرب الجنوب ، وقيل انما هي جذم قائم بنفسه مستقل عن عرب الشمال وعرب الجنوب (راجع جواد علي ٤ : ٢٣٨-٢٤١) .

(٢) في أمر أبرهة هذا شيء من الغموض . يعرف أبرهة بلقب الاصحم ولقب الاشرم . أما « أبرهة» فهو الصيغة الحبشية لصيغة « ابراهيم » العربية . والأصحم من كانت فيه غبرة الى سواد (قا ٤ : ١٣٨) . والاشرم المشروم الانف ، ومنه قيل لأبرهة (الأشرم) (قا ٤ : ١٣٦) . والذي يؤخذ من أقوال الرواة أن أبرهة هذا يجب أن يكون يمني المولد ولكن حبشي الاصل ، وأنه كان نصرانياً .

على استيفائها كاملةً ومنعهم النّجعة (الانتقال بمواشيهم الى أرض فيها عشب) حتى يؤدّوا ما عليهم. فكادت مواشيهم أن تَهْلِكَ.

وكان في بني تَيْمِ الله بن ثَعْلبة رجلٌ فاتك اسمه ابن زيّابة، فدفعه بنو بكر وبنو ثعلبة الى قتل زهير. انتهز ابن زيّابة غِرّة من زهير حتى وجده ذات مرّة نائماً فشكّه بالسيف في بطنه. ولكنّ السيف لم يُصِبْ منه مقتلاً. وتماوتَ زهير فظن ابن زيابة أن زهيراً قُتل. ثم ان زهيراً جمع جموعاً من أهل اليمن وغزا بكراً وتغلب وقتل منهم جماعات كثيرة وأسر عدداً كبيراً منهم. وكان في من أُسِرَ في ذلك اليوم وائلٌ وعَديّ ابنا رَبيعة.

يوم مَنْعِج [1]

كان زهير بن جَذيمة العَبسي سيد قَيس عَيلان، وكان النعمان بن امرىء القيس ملك الحيرة (ت ٤٣١ م) قد أصهر اليه (تزوّج امرأة من قومه).

جاء شاسُ بن زهير يوماً لزيارة النعمان. فلمّا غادر شاسٌ الحيرة حمّله النعمان هدايا نفيسة. ومرّ شاس في أثناء رجوعه بمَنْعج (وهو ماء لبني غَنيّ ابن أعْصُر) عند موضع يقال له الرّدهة، فقتله رِياح بن الأسَلّ وطمره هناك وسلب ما كان يحمله من الهدايا. وفُقِدَ أثرُ شاسٍ زمناً ثم عُرِفَ أن رياحَ بن الاسلّ قد قتله. فجمع زهير بن جَذيمة جموعاً كثيرة أغار بها على بني غنيّ وقتل منهم مقتلةً عظيمة.

يوم النفراوات [2]

وكان لزهير بن جَذيمة العبسي أتاوة على بني هوازن في كلّ عام. فجاءت اليه في أحد الاعوام عجوزٌ من هوازن عن نفسها بأتاوة لم تُعْجِبْه فقتل العجوز.

غضب بنو هوازن فاجتمعوا هم وأقاربُهم بنو عامر بن صَعْصعة بقيادة خالد

(١) نهاية الارب ١٥: ٣٤٤–٣٤٦؛ العقد ٦: ٣–٤؛ ابن الاثير ١: ٢٢٩–٢٣٠.
(٢) نهاية الارب ١٥: ٣٤٦–٣٤٨؛ العقد ٦: ٤–٥؛ ابن الاثير ١: ٢٣٠.

ابن جعفر بن كلاب العامريّ . ثمّ ان خالد بن جعفر ركب في ستّة نفر من قومه حتى أدرك زهيرَ بن جذيمة — وكان زهير قد شاخ وضَعُفَ — فقتله .

يوم بطن عاقل [1]

بعد مقتل زهير بن جذيمة العبسي أصبح الحارث بن ظالم المُرّي سيّدَ بني غَطَفان . واتّفق أن اجتمع خالد بن جعفر بن كلاب العامري والحارث بن ظالم المُرّي عند النعمان بن المنذر [2] فتنازعا . فقال خالد للحارث : أتنازعني ، يا حارثُ ، وقد قتلتُ حاضرتَك (جماعة من قومك) ؟ فقال له الحارث : ذلك يوم لم أشْهَدْهُ ! فقال خالدٌ : فهلاّ تشكُرُ لي إذ قتلت زهير بن جذيمة وجعلتك (سهلّت عليك أن تصبح) سيّد بني غطفان ؟ فقال الحارث لخالد عندئذ : بلى ، سوف أشكرك على ذلك .

فلمّا افترقا تتبّع الحارث خالداً حتى وجده في خيمته ليلاً فاقتحمها عليه وأيقظه ثم قتله . وكان مع خالد ابن أخيه عُروة الرّحّال بن عُتْبة بن جعفر ، فذهب عروة الى النعمان فأخبره الخبر واستجار به . فبثّ النعمان الرجال في طلب الحارث .

ملك كندة في نجد

في أواخر القرن الخامس للميلاد اتّجه حُجر بن عمرو الى قلب نجد وانتزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ثم نزل في مكان يدعى بَطْنَ عاقل (جَنوب وادي الرُمّة على الطريق بين مكّة والبصرة) . وهكذا تسرّب النفوذ الاجنبي الى مكان جديد في جزيرة العرب : نفوذٌ روميّ مناهضٌ (معادٍ) لنفوذ الفرس في الحيرة ومغلّف بسياسة يمنية ظاهرة .

واتّبعت الأسَرُ الثلاثُ (كندة في نجد والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام)

(١) نهاية الارب ١٥ : ٣٤٨–٤٣٩ ؛ العقد ٦ : ٥–٦ ؛ ابن الاثير ١ : ٢٠٩ .

(٢) في الروايات : النعمان بن المنذر مرة والاسود بن المنذر مرة (راجع جواد علي ٤ : ٣٥٧) .

في مبدأ الأمر ، سياسة ودية مرة وعدائية مرة : ان اليمن دفعت حُجراً الى التملّك في نجد والى مهاجمة الحيرة عاصمة المناذرة ، وكان ذلك كله في مصلحة الغساسنة ، او في مصلحة الروم من وراء الغساسنة .

لم يَسْعَ حُجرٌ الى توسيع ملكه نحو الشمال (في اتّجاه العراق) فقط ، بل حاول أن يوسّعه نحو الشرق في البحرين (الشاطيء الغربي من خليج العرب) أيضاً . سار حجر بقبائل ربيعة لِيَغْزُوَ البحرين . علم زِياد بن عمرو بن الهَبولي بن ضَجْعَم ابن حَماطة بن سعد بن سَليح القُضاعيّ بذلك فخالف حجراً (سار في غير الطريق التي سار فيها حجر) الى غَمْر كندة وأفسد في البلاد ثم حمل معه أسرى كثيرين فيهم زوجةُ حجر ، فيما قيل . عندئذ لَحِقَ حجر بزياد فأدركه عند الحَفير ، قرب عين أباغ (بين الفرات والشام) ، وقتله واستعاد زوجته . ثم انه علم ان زوجته كانت راضية عن عمل زياد فانتقم منها بأن ربطها الى فرسين ثم أجراهما فشقّاها نصفين .

وتوفّي حجر بن عمرو (عام ٥٢٨ م) بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة ، وبعد أن طَعَنَ في السن . ودفن في بطن عاقل .

عمرو المقصور

بعد حجر بن عمرو جاء ابنه عمرو الذي عُرف بلقب المقصور لأنه قُصِرَ على مُلْك أبيه ، أي اكتفى بما تركه له ابوه من المُلك ، ثم لم يَتَلَقَّبْ بلقب ملك ، بل اكتفى أيضاً بأن يُدعى سيّد كندة . وتولّى مُعاوية الجَوْن (الأسود) أخو عمرو اليمامة .

حَسُنَتْ سياسة عمرو المقصور نحو اليمن فتزّوج بنتاً لحسان بن تُبّع أسعدَ الأكبر ، وحسنت صِلاته بالغساسنة فتزّوج هند الهنود بنتَ ظالم بن وهب (وكانت أُختُها ماريا زوجةً للحارث الأكبر الغسّانيّ ، فيما قبل) . ثم تقرّب الى القبائل التي كان يحكمها في نجد فتزّوج أمّ إياسٍ بنتَ عَوْف بن مُحَلّمٍ الشَيْبانيّ من بكر بن وائلٍ .

وكذلك كانت صلات عمرو المقصور بالمناذرة حسنةَ ، فقد تزوّج الأسود بن المنذر ملك الحيرة بنتاً لعمرو فوَلَدَتْ له النُعمانُ بن الاسود الذي حكم الحيرة أربع سنوات (٤٩٩ — ٥٠٣ م).

وظلّت اليمن تُعين آلَ كندة على حكم نجد ، ولكنّ آلَ كندة كانــوا يَضْعُفون . في ذلك الحين ظهر وائلُ بنُ ربيعةَ المعروف بُكليب وائلٍ في بني تَغْلِبَ فانتزع من عمرو المقصور السيطرةَ على جميع قبائلِ ربيعةَ ، فلم يَبْقَ لعمرو سلطان الا على كندة وحدَها ، كما كان الشأن قبل أيام حجر والد عمرو . ويبدو أن قبائل ربيعة انحازت الى كليب من تلقاء نفسها .

استنجد عمروٌ المقصور بمُرشِدِ بن عبد يَنْكَف الحِمْيَري فأنجده مرشد بجيش كبير . والتقى عمروٌ بكليبٍ في ديار بني أسد ، على مَقْرُبَةٍ من جبل القَنان ، فقُتل عمرو المقصور في المعركة فتحرّرت قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة الى حين .

الحارث بن عمرو الكندي

كان الحارث بن عمروٍ أشهرَ ملوك كندة وأعظَمهم . وكان اشتباكُ بكرٍ وتغلبَ في حرب البسوس قد ذهب بأبطال القبيلتين وشتّت جهودَهما فاستطاع الحارث أن يُعيدَ سُلطانَ كندة على قبائل ربيعة في نجد ، وعلى بني أسد وبــني كِنانة وبني بكر خاصة ، ثم طَمِعَ بغزو التخوم الفارسية والرومية (طمعاً بالبلاد التي كان يحكمها المناذرة والغساسنة) .

في ذلك الحين ، قبل أن يَنْتَهِيَ القرن الخامس الميلاديّ (قبل ١٢٥ ق . هـ .) كان ملوك اليمن لا يزالون يُعينون آل كندة . وكان على عرش فارسَ قُباذُ بن فَيْروزَ (٤٨٨ — ٥٣١ م) ، وفي الحيرة المنذرُ بن ماء السماء ، وفي الشام الحارث بن جبَلَة الغساني . وكان امبرطورَ الروم أنسطاسيوسُ الأول (٤٩١ — ٥١٨ م) . وكانت بلاد الروم خاصّة مشغولةً بالقلاقل الداخلية : بالمؤامرات على العرش وبالنزاع الديني الذي كان حرباً كلامية فأصبح حربــاً

بالسلاح بين الحزب الحاكم والأحزاب الباقية. وكذلك كانت قبائل البلغار والصقالبة قد بدأت تتغلغل في التخوم الشمالية للامبرطورية، وكان بعض رؤساء هذه القبائل قد دَخَل في خدمة الدولة، في الجيش والادارة. فعَظُمَ خطر هؤلاء على الامبرطورية وعلى الدولة من خارج ومن داخل. ثم عادت الحرب بين الفرس والروم (٥٠٢ م = ١٢٠ ق. هـ.).

كان الحارث بن عمرو قد أرسل (نحو عام ٤٩٧ م) جيشاً بقيادة ابنه حجرٍ لغزو فلسطين، ولكن رومانوس (الحاكم الرومي في فلسطين) هزم حجراً. وقد كان الحارث بن جبلة الغسّاني قد سار في نحو ذلك الحين الى غزو فلسطين أيضاً فأسره رومانوس.

من أجل ذلك كلّه آثر أنسطاسيوس، وخصوصاً بعد بدء الحرب الفارسية، أن يخفّف من مشاكله ويقلّل من أعدائه فعقد مع الحارث بن عمرو الكندي معاهدةً: أن يترك آلُ كندة مهاجمة الشام وأن يتعاون آل كندة والروم على قتال الفرس والمناذرة. وفي العام التالي (٥٠٣ م) قام الروم بمساندةٍ من آل كندة بهجوم على الحيرة واستَوْلَوْا على قافلة.

الحارث الكندي يحكم الحيرة

كان قُباذُ قد دعا المنذرَ بن ماء السماء الى المزدكية [1] فأبى، فدعا الحارثَ بن عمرو الكندي فأجابه الى ما طلب. عزل قباذ عندئذ المنذرَ عن عرش الحيرة ونصب مكانه الحارث الكندي. واضْطُرّ المنذرُ الى أن يخضع للحارث، ثم تقرّب اليه بأن تزوّج ابنته هند (بنت الحارث وعمّة امرىء القيس الشاعر).

ولمّا ملك الحارث الكنديّ الحيرة بين عام ٥٢٤ — ٥٢٨ م [2]، فرّق أبناءه في القبائل (جعلهم ملوكاً على القبائل): جَعَلَ حُجْراً (والد امرىء القيس) على بني أسد بن خُزيمة وعلى غَطَفان، وجعل شُرَحْبيل على بكر بن وائل

(١) راجع فوق، ص ٦٧

(٢) يرجح جواد علي (٤: ٦٩) ان يكون ذلك بين ٥١٥ و ٥٣١ م.

بأسرها وعلى عدد من القبائل الاخرى ، وجعل مَعْدِيكَرِب (وكان يلقّب « غَلْفاء » (لأنه كان يغلّف رأسه بالطيب) على قيس عَيْلان وطوائفَ من غيرهم ، وجعل سَلَمة على بني تَغْلِبَ والنَمِرِ بن قاسط وعلى بني سعد بن زيد مَناةَ من تميم .

وادرك قباذ وشيكاً ان الحارث اقوى شخصيةً واكثرُ دهاء مما كان يتخيّل فعقد معه معاهدة (بين ٥٠٢ و ٥٠٦ م) في اثناء الحرب الفارسية الرومية ، على ان يكون للحارث وقومه ما دون (جَنوبَ) الصَراة (قناة تصل بين دِجلةَ والفُرات قرب بغداد اليوم) يُسيمون في تلك المِنطقة أنعامهم . أما ما فوق (شَمال) الصراة فهو لقباذ (لفارس) لا يجوز للعرب ان يَرْعَوْا فيه انعامهم .

وفي عام ٥٤١ م (٩١ ق. هـ.) تُوفيّ قباذ فخلفه ابنه كسرى الاول أنوشروان ، ولم يكن على رأي أبيه في المزدكية فأبْعَدَ الحارثَ ثم ردّ المنذر بن النعمان الى حكم الحيرة . فلما عاد المنذر الى عرش الحيرة عزم على الانتقام من الحارث الكندي فتعقبه حتى أسره معَ جماعة من اهل بيته ثم قتلهم جميعاً في دير بني مرينا العِباديين (نصارى الحيرة) ، بين دير هند والكوفة . وكان الحارث قد بقي في الحكم نحو خمساً وثلاثين سنة .

وفي العام ٥٣١ م نفسه امر كسرى انو شروان بقتل مَزْدَكَ ، وعادت فارس الى مذهب زرادشت المجوسي ، وعاد للطبقة الغنية وللكهّان نفوذهم في فارس .

أبناء الحارث الكندي

بموت الحارث بني عمرو مال نجم آلِ كندة نحو الغروب .

كان حجر أكبر أبناء الحارث وأعظمهم جاهاً فانتقل اليه عامّة ملك كندة . ثم ان الحارث هاجم الحيرة ليعيدها الى حكم كندة فلم يُوَفّقْ . بعدئذ قُتل أبناء الحارث واحداً بعد واحد . ففي نحو عام ٥٣٢ م (٩٠ ق. هـ.) قتل حجر :

عاد الى بني أسد شيء من القوة فامتنعوا عن أداء الأتاوة (الضريبة) التي كان حجر قد فرضها عليهم ، فأساء اليهم حجر وقتل نفراً من روسائهم وشرّد نفراً آخرين منهم عن نجد الى تهامة . ثم إن حجراً عاد فعفا عن المشرّدين لمّا شفع بهم اليه شاعر بني أسد عَبيد بن الابرص . غير أن هؤلاء لما رَجَعوا الى نجد انضموا الى إخوانهم الناقمين وحاربوا حجراً بقيادة عَلْباء بن الحارث الكاهليّ . وقُتِلَ حُجْرٌ في المعركة وفرّ إخوته وأبناؤه ، وكانوا كلّهم معه في المعركة .

وكَثُرَ تنازع اخوةِ حجر وأبنائه على ما بَقِيَ لهم من مُلْكِ أبيهم في نجد فلم يَجِدّوا في السعي للأخذ بثأر أبيهم .

يوم الكُلاب الأول [1]

بعد مقتل حجر الكندي اختلف أبناهُ سَلَمَةُ وشُرَحْبيلُ ثم عزما على القتال . فسار شرحبيل ومعه بنو بكر وبنو حَنْظلةَ وعمرو بن تميم والرِبابُ حتى نزل في الكُلاب (وهو ماء بين البصرة والكوفة) ، فلَحِق به سَلَمَةَ ومعه بنو تَغْلِبَ وبنو سعد وكان معه أيضاً الصنائع ، والصنائع قوم من شُذّاذ العرب كانوا يحاربون مع الملوك (إمّا بأجر أو بحق من الغنيمة) .

واشتدّت الحرب يوم الكُلاب الى آخر النهار فتخلّى عن شُرَحْبيلَ بنو حنظلة وبنو عمرو وتميم والرِبابُ وثبت معه بنو بكر . وكذلك تخلّى بنو سعد عن سلمة وثبت معه بنو تغلب (للعداوة التي بينهم وبين بني بكر) . ثم ان مُنادياً في جيش شرحبيل نادى : من جاء برأس سلمة فله مائة من الابل ! فنادى منادٍ في جيش سلمة : من جاء برأس شرحبيل فله مائة من الابل .

واخيراً انهزم بنو بكر وسلمة ، فتبع سَلَمَةَ جماعةٌ من بني تغلب فقتله واحد منهم يقال له أبو حنش ثم احتزّ رأسه وجاء به الى سلمة .

(١) نهاية الارب ١٥ : ٤٠٦ – ٤٠٧ ؛ العقد ٦ : ٦٧–٦٨ ؛ ابن الاثير ١ : ٢١٠، ٢٢٦–٢٢٨ .

يوم أُوَارَاة الأول [1]

بعد يوم الكُلاب أخرج بنو تغلب من بينهم سلمةَ بن الحارث الكندي ، فالتجأ سلمة الى بني بكر بن وائل . ولحق بنو تغلب بالمنذر بن ماء السماء . ثم ان المنذر كتب الى بني بكر يدعوهم الى التخلّي عن سلمة والى ان يدخلوا في طاعته هو .

ولم يستجب بنو بكر للمنذر بن ماء السماء فحلف ان يَغْزُوَهُمْ وأن يذبحهم ، اذا ظفر بهم ، على قِلّة جبل أوارة حتى يبلغ دمهم الحضيضَ (سَفْحَ الجبل).

واقتتل الفريقان عند جبل أوارة فقُتل من بني بكر مقتلةٌ عظيمة ، وأسَرَ المنذر منهم خلقاً كثيراً فذبحهم على قِلة جبل أوارة .

انقراض دويلة كندة

بعد أن رأى امْرُؤُ القيس بن حجر خيبة أعمامه وإخوته في طلب ثأر أبيه أراد هو أن يحاول ذلك ، مع أنه كان أصغرَهم سِنّاً وأقلهم أملاً واهتماماً بطلب الملك .

وُلِدَ امروُ القيس نحو سنة ١٢٢ ق . هـ . (عام ٥٠٠ م) ، في نحو السنة التي قَسَمَ فيها جدّه الحارث بن عمرو ملكه بين أبنائه أو بعد ذلك بقليل . أما أمّه فهي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير التغلَبية أختُ مُهَلْهِلٍ وكُلَيبِ وائلٍ في أصح الأقوال . واذا ثبت أن هذا البيت :

ألا هل أتاها ، والحوادث جَمّةٌ ، بأنّ امْرَأ القيس بن تَمْلِكَ بَيْقَرا

هو لامرىء القيس ، كان اسم أمّه « تملك » [2] ، أو كان ذلك لَقَباً لها . وقد سمّت العرب نساءها « تملك » [3] .

---

(١) ابن الاثير ١ : ٢٢٨ .
(٢) غ ٨ : ٦٠ ، ٦١ ؛ الانباري ٤٥٩ ؛
(٣) قا ٣ : ٣٢٠ .

كان مولدُ امرىء القيس ونشأته في ديار بني أسد من نجد . وكان يتنقّل ، على عادة الامراء والمُتْرَفين ، بين الأماكن المقصودة للهو في اليمامة والبحرين خاصّة ؛ واليمامة والبحرين كانتا داخلتين في حكم أبيه . وليس في التاريخ الثابت ما يدلّ على أن أباه طرده من منزله ولا أنه كان يوم مقتل أبيه يشرب الخمر في دَمّون : لقد كان معَ اخوته وأعمامه في المعركة التي قتل فيها ابوه ثم فرّ منها معهم . ولقد عيّره بذلك شاعرُ بني أسد عَبيد بن الابرص .

حاول امرؤ القيس أن يَطْلُبَ بثأر أبيه ، بعد أن خاب أعمامه واخوته في ذلك : طلب ثأر أبيه بجماعة من كِندة ثم بجماعة من غير كندة كانوا خاضعين لأبيه واخوته أو كان له عليهم حقّ الجوار ، ثم بجماعة استأجرهم . ولم يُجْدِهِ ذلك كلُّه نفعاً .

كان المفروضَ أن يستنجد امرؤ القيس بملوك اليمن من حِمْيَرٍ . ولكنّنا نعلم أن ملك اليمن في ذلك الحين كان ذا جَدَنٍ ، وأنه لم يكن لذي جدنٍ في حكم اليمن شيء من الامر فان الأمر كلّه كان بيد الحبشة . ولم يكن للحبشة ، ولا للروم من وراء الحبشة ، مصلحة في مساعدة امرىء القيس على الطلب بثأر أبيه لأن المستعمر لا يأبه لأهل خِدْمته إلاّ اذا كانوا أقوياء : انه يريدهم ليدافعوا عنه لا ليدافعَ هو عنهم !

وعزم امرؤ القيس على أن يذهب الى القسطنطينية يستنجد بملك الروم ، واعتذر لذلك بقوله :

ولو شاء كان الغَزْوُ من أرض حِمْيَرٍ ؛ ولكنّه عَمْداً الى الروم أنفرا !

كان امرأ القيس محتاجاً في اتمام رِحلة القسطنطينية الى مال فذهب الى تَيْماء ورهن سلاحه ودروعه عند مُرابٍ يهودي اسمه صموئيل (السموأل) . ولمّا وصل الى القسطنطينية استقبله الامبرطور يوسطنيانوس المشهور بالترحاب ، ولكنْ لم يُساعِدْهُ في شيء : كان للروم « عميل » في الشام (البلاط الغسّاني) مسؤول عن مشاكل المِنطقة ؛ وكانت النجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرةً جدّاً ،

والجيش الرومي لم يكن معدّاً للحرب في الصحراء ؛ ثم ان الغاية التي جاء امرؤ القيس من أجلها : الأخذَ بثأر رجل واحد، كانت بعيدة عن سياسة الروم وعن مألوفهم ؛ ثم ان الامبرطورية الرومية كانت مهدّدة بهجمات البرابرة ، وكان يوسطنيانوس محتاجاً الى جنود للدفاع عن امبرطوريته وعاصمته [1] .

ويذكر مؤرّخو الأدب أن امرأ القيس أحب ابنة يوسطنيانوس فغضب يوسطنيانوس من امرىء القيس وأعطاه حُلّةً مسمومة كانت سبب وفاته في أثناء رجوعه الى نجد .

أما حبُ أمرىء القيس لابنة قيصرٍ فأمرٌ جائز ان يكون وألاّ يكون في عالم الصلات الاجتماعية . واما غَضْبة قيصر فرواية اسلامية متأخرة . كانت الحياة في البلاط الروميّ مخالفة لما استنتجه المؤرخ المسلم . لقد كانت الصِلاتُ الجنسية هنالك أمراً مألوفاً ، وكان القياصرةُ يُوَلَّوْنَ ويُعْزَلون في ميادين سِباق الخيل وفي مخادع النساء .

واما الحُلّة المسمومة فينفيها ان امرأ القيس مات بداء كان مستكنّاً ثم اتفق ان هاج : فقد قال امرؤ القيس : « تأوّبني دائي القديم فغلّسا » . ويمكن ان يكون قد مات بالجُدَري لما مرّ بأنقرة في زمن الشتاء القارس ، نحو سنة ٨٢ ق . ﻫ . (٥٤٠ م) .

(١) قال الدكتور أسد رستم (الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ١٩٣) عن جيش يوسطنيانوس : « وتضاءل جيشه فتناقص من ... ، ٦٥٠ مقاتل الى ... ، ١٥٠ وخلت حصونه من الرجال حتى قال أغاثيوس إنها أصبحت خالية خاوية لا يسمع فيهـا نباح كلب واحد » .

تفاقم النزاع بين العرب

بكر وتغلب - المناذرة والغساسنة

كان القرن السادس للميلاد ، ذلك القرنُ الذي سبق ظهورَ الاسلام ، حقبةً من الدهر امتلأت بالاضْطراب السياسي وبالقلَق الروحي ؛ ولقد بلغ النزاع والقتال بين القبائل العربية في هذه الحِقبة ذِرْوتَيْهما . ان الخصومةَ بين المناذرة والغساسنة وبين بكرٍ وتَغْلِبَ وبينَ عبسٍ وذُبيانَ ثم بين الأوْس والخزْرج في المدينة كانت في تلك الحِقبة مَضْرِبَ الأمثال ومادةً قَصَصيّة غنيّة لأصحاب الأسمار وللقصّاصين . ولم يَبْقَ للعرب في تلك الحِقبة من جامع بينهم الا اللغةُ التي كانوا ينظمون فيها أشعارهم والمعاركُ التي كانوا يقتتلون فيها . لقد أصبح القتل والقتال في تلك الحقبة عادة ولهواً ، قال عمرو بن كُلْثوم في معلّقته :

تَخال جماجم الابطال فيها وُسوقاً بالاماعــز يرتمينا ؛
نَحزُّ رؤوسَهم من غير برّ فما يَدْرون مــاذا يتّقونا .
كأنّ سيوفَنا فينا وفيهــم مخــاريقٌ بأيدي لاعبينا [1] .

وساق عنترة هذا المعنى سياقَ الهُزُؤ والاِسْتخفاف معَ البراعة في التعبير فقال :

(١) الاماعز جمع أمعز : الأرض القاسية ذات الحصى . الوسوق جمع وسق : الحمل (مقدار ما يحمل البعير) . المخاريق (جمع مخراق) : قطع من النسيج تفتل ويتضارب بها اللاعبون (لأنها لا تحدث أذى في المضروب) .

وسيفي كان في الهيْجا طبيباً يُداوي رأسَ من يشكو الصُداعا !

ولقد كان من الطبيعيّ أن يأسَى نفرٌ من العقلاء لحال قومهم تلك ، فرأينا الحارثَ بن عوْف وهَرِمَ بن سنان يدفعان ديَاتِ القتلى في حرب داحس والغبراء من مالهما حتّى تَقفَ الحربُ بين عبس وذبيان ، ثم رأينا زُهير بن أبي سُلمى يستخرج من ذلك العمل النبيل دعوة إنسانية الى السلام قبل أن تنشأ فلسفةُ السِلم الحديثةُ بخمسةَ عَشَرَ قرناً .

وكذلك نشأ في الجاهلية نفرٌ من الحُنَفاء الذين لم يَرْضَوْا عن الحياة الدينية الوثنية ولا عن الحياة الاجتماعية العامّة التي كانت تسيطر على الناس ، ثم لم يَجِد هؤلاء النفرُ اطمئناناً في اليهودية المنطوية على نفسها والمنافرة للطبيعة السَمْحة في الانسانية ، ولا وجدوا اطمئناناً في النصرانية التي كانت منقسمةً مذاهبَ متعاديةً يتقاتل أهلها باللِسان والسِنان . من أجل ذلك انصرف هؤلاء الى حياة فطرية تأخذ عناصرَها من الأخلاق الشخصية وحبِ الخيرِ للناس : تركوا عبادةَ الاوثان وشُرْبَ الخمر واعتزلوا المنازعاتِ القبليةَ وزهدوا في منافسة معاصريهم على الدنيا ثم ساح بعضهم في الأرض ترفّعاً وتنسّكاً . من هؤلاء النفر خالد بن سِنان العبسي الذي صفت بصيرته حتّى نسب اليه الرواة أشياءَ من الحكمة ومن الأخبار التي تشبه ما يروى عن أنبياء بني اسرائيل [1] .

ومن هؤلاء النفر الذين عاشوا في الجاهلية وأنكروا حالَ قومهم في الوثنية والتدابر الاجتماعي ثم حرَصوا على الحصول على شيء من الإطْمئنان الروحي : عامرُ بن الظَرِب العَدواني ، حَنْظلة بن صَفْوان ، زيد بن عمرو بن نُفيل ، ورَقة ابن نَوْفل، أبو قيس صِرمة بن أبي أنَسٍ ، زُهير بن أبي سُلمى، جَزْءَ بن غالب ابن عامر الخُزّاعي المعروف بأبي كَبْشة، أُميّة بن أبي الصَلْت الثقفيّ وقَسّ بن ساعدة الأيادي [2] .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٢٦ ؛ ابن الاثير ١ : ١٥٠ .

(٢) راجع جواد علي ٥ : ٣٦٨ وما بعدها .

وهنالك جماعاتٌ سلكت سلوكَ هؤلاء الافراد :

كان هؤلاء يُدْعَوْنَ « الحُمْس » ؛ كان لهم مُثُلٌ عُليا فِطْرية ، وكانت فضيلتهم أنهم كانوا يتمسّكون بما يعتقدون .

الحمس هم المتشدّدون في الدين ، وكانوا جماعاتٍ من قريشٍ وكِنانةَ والأوْس والخَزْرج وبني ثَقيف وغَطَفان وغيرهم . وكانَ هؤلاء يشترطون على كلّ من يتزوج من نسائهم أن يكون أولاده على دينهم هم . وكانوا يُعظّمون الأشهرَ الحُرُمَ . وكانوا اذا أحرموا للحجّ لا يأكلون السمن ولا يَسْلأونه (يستخرجونه من دهن الانعام وشحمها) ولا يَغْزِلون الوَبَر ولا يَنْسِجونه ، ولا يأكلون من نبات الحَرَم . ومن غريب أفعالهم أنهم اذا أحرموا للحج لا يدخلون بيوتهم من أبوابها المعهودة بل من منافذها الخَلْفية أو من فَتَحات أو أنقابٍ [1] في سطوحها [2] . ولقد قرّعهم الله تعالى على فعلهم هذا . جاء في سورة البقرة (٢ : ١٨٩) : « يسألونك عن الأهِلّة[3] ؛ قلْ : هِيَ مواقيتُ للناس والحج . وليس البرُّ بأنْ تأتوا البيوتَ من ظهورها ، ولكنّ البرَّ مَنِ اتّقى ، وأتُوا البيوتَ من أبوابها ؛ واتّقوا الله لعلّكم تُفْلحون » —

ان سلوك الحُنَفاء والحُمس كان رِدّةَ فعلٍ لنُفْرةِ هؤلاء الافراد والجماعات من سلوك أقاومهم في الدين والمجتمع وفي الصِلات الشخصية .

يوم خزازى

خَزازى أو خَزاز جبل بطِخْفة في نجد على يسار الطريق بين البصرة والكوفة ؛ ويوم خزازى قديم قبل حرب البَسوس كان الرئيسَ فيه على الارجح وائلُ بن ربيعة بن الحارث بن زُهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب ... بن تغلب بن وائل [4] ،

(١) النقاب والانقاب فتحات تكون في أصل بناء البيوت أو تنقب بعد تمام بنائها .

(٢) راجع جواد علي ٥ : ٢٢٤ وما بعدها .

(٣) الاهلة جمع هلال : ولادة القمر (ظهور القمر في أول الشهر) .

(٤) الذي اصبح معروفاً ، فيما بعد ، بلقب كليب وائل .

وقيل بل الاحوص بن جعفر ، وقيل زُرارة بن عُدَسَ .

بعد مقتل حُجْرٍ الكندي يوم الكلاب الاول قتل شُرَحْبيل ومُحرِّق ابنا حجر. وأراد سَلَمة بن حجر ان يثأر لأبيه وأخويه فسار ليقاتل نزاراً (عرب الشمال) فانضمت اليه جماعات من اليمن ومن قبائل مَذْحِج اليمنية (وكانت تسكن في تهامة على ساحل البحر الاحمر). ولما رأى عرب الشمال من أهل تهامة فعل مذحج انضموا الى اخوانهم من أهل نجد من بني بكر وبني تغلب ومن بني عامر بن صَعْصعة من بني تميم. سار كُليب بتغلب وجعل على مقدمته سَلَمه بن خالد، (المعروف بالسفاح التغلبي [1]). ثم امره بأن يتقدمَ الى جبل خزازى ويوقدَ عليه ناراً. فاذا رأى ان الاعداء كثيرون فَلْيُوقِدْ نارين.

وانتصر بنو ربيعة على مذحج، فكان يوم خزازى اول يوم انتصر فيه عرب الشمال على عرب الجنوب؛ وعلت منزلة بني وائل في العرب. وقد اشترك عمرو بن كلثوم في يوم خزازى وأشار اليه في معلّقته :

ونحن – غَداةَ أُوقِدَ في خَزازى – رَفَدْنا فوق رِفْد الرافدينا [2].

نشوب حرب البسوس [3]

كانت حربُ البسوسِ معاركَ متفرّقةً حيناً ومتباعدةً حيناً آخرَ؛ ولقد امتدّت العداوةُ والمعارك في هذه الحرب أربعين عاماً أو نحوَ ذلك، منذُ نشوبها في العَشْر السنواتِ الاخيرة من القرن الخامس الميلادي الى أنِ انسحب عَديِّ ابن ربيعةَ (المعروف بلقب مُهَلْهِلٍ) عام ٥٢٥ م أو بعده بقليل. فحرب البسوس نفسُها تابعة للحقبة التي نعالجها في هذا الفصل، أما التحكيم فيها وفي المنازعات التي تفرّعت منها فراجعٌ الى دور متأخّر لا يدخل سَرْدُه في فصلنا هـذا.

---

(١) في الاخبار الطوال : السفاح بن عمرو (ص ٥٣).

(٢) رفدنا (قدمنا معونة) فوق رفد الرافدين : أتينا بجيش أكبر من جيوش الآخرين.

(٣) ابن الاثير ١ : ٢١٤ – ٢٢٢.

١ – توارث اللواء (قيادة الحرب) :

كان اللواءُ في نَسْل ربيعةَ بن نزارٍ ينتقل من الأكبر في جيله الى الأكبرِ في جيله : كان في بني عَنَزةَ بن أسدِ بن ربيعة ثم انتقل الى بني عبد القيس بن أفصى ثم الى النَمِر بن قاسط ثم الى بكر بن وائل. وكان لصاحب اللواء سلطانٌ يَفرُضه على قومه وعلى أحلاف قومه كيفَ شاء ، فاتخذ بنو بكر شاهداً على سلطانهم فَرْخَ طائر كانوا يوثقونه بقارعةِ طريقٍ فلا يَجسُرُ أحدٌ على أن يَسلُكَ من تلك الطريق ، بل يسلكُ عن يمينه أو عن يَساره .

ثم انتقل اللواء الى بني تَغْلبَ أقاربِ بني بكر ومنافسيهم في الجاه . وكان وائل بن ربيعة بنُ الحارث قد عَظُم شأنهُ وارتفعتْ مَنزلته بعد انتصاره على بني مَذْحِجٍ من عرب الجنوب في يوم خَزازى ، فأصبح سيّد بني تَغْلبَ ثم صاحبَ اللواء في بني ربيعة بن نزار . واختار وائل بن ربيعة شاهداً على سلطانه « كُلَيْباً » (جَرْوَ كلبٍ) ثم حمى أرضاً من العالية[١] فكان يُلقي ذلك الكليبَ في أية بقعة منها شاء فلا يستطيع أحدٌ أن يرعى أو أن يَستَقِيَ من مكان يُسمع فيه عُواء ذلك الكليب الا بإذنٍ من وائل . فعُرِفَ وائلُ بن ربيعة بن الحارث ، منذ ذلك الحين ، بلقب كُليبِ وائلٍ أو بلقب كليبٍ فقط .

٢ – زواج كليب في بني شيبان :

كان بنو جُشَمٍ التَغْلَبيّون (قوم كليب) وبنو شَيْبان بن ثَعْلبة البكريون يعيشون « أخلاطاً في دارٍ واحدة إرادةَ الجماعةِ ومَخافةَ الفُرْقةِ ». فتزوّج كليب جليلةَ بنتَ مُرّة بن شيبان بن ثعلبة ، أختَ جسّاسِ بن مرّة ، رَجاءَ أن تظلّ الألفة بين تغلب (قوم كليب) وبين بكر (قوم جليلة) .

٣ – البَسوس :

في تاريخ الكامل لابن الأثير (١ : ٢١٥) أن سعد بن شُميس بن طَوق

(١) العالية : ما فوق نجد الى ارض تهامة الى ما وراء مكة (قا ٤ : ٣٦٥) .

الجِرمي نزل بالبسوس بنت مُنقذ التيميمية خالة جسّاس . وكان للجرمي ناقة اسمها سَراب ترعى مع نوق جسّاس . فرأى كليبٌ مرةً هذه الناقة ترعى مع إبلهِ فأنكرها (استغرب وجودَها مع ابله) ، فقال له جسّاس (وكان معه في ذلك الحين) : هذه ناقةُ جارِنا الجرمي . فقال كليب لجسّاس : لا تَعُدْ هذه الناقة الى هذا الحِمى . فقال جسّاس : لا ترعى إبلي مرعىً إلا هذه الناقةُ معَها . فقال كليب : لئن عادت لأضعَنَّ سهمي في ضِرْعها ! فقال له جسّاس : لئن وضعتَ سهمك في ضرعها لأضعنَّ سنانَ رمحي في لَبَّتك (في أعلى صدرك) !

في نهاية الأرب للنويري (١٥ : ٣٩٧) : كان لجليلةَ أختِ جسّاسٍ وزوجةِ كليبٍ ناقةٌ يقال لها السَراب أو البَسوس ، وكانت معقولة (مربوطة) بفِناء بيتها بجِوار جسّاس . ومرّت بذلك المكان إبِلٌ لكليب فقطعت تلك الناقة عِقالها واختلطت بتلك الإبل .

ورأى كليب تلك الناقة مع إبله مرّة أخرى فقتلها .

٤ ـ مقتل كليب ومفاوضات الصلح :

غضب جسّاس وترصّد كليباً حتى رآه فقتله .

استعدَّ بنو تَغْلبَ للقتال ، ثم أخرجوا جليلةَ من حيّهم لأنها أخت جسّاس قاتل كليب (وإن كانت زوجةَ كليب أيضاً) .

ورأى مُرَّةُ بن ذُهْلِ بن شَيبان (والد جسا س) أن يفاوضَ عَديَّ بن ربيعة المعروف بلقب مُهلهِلٍ (أخا كليب ورئيس تغلب بعده) في سبيل الصلح ، فقال مهلهل : إمّا أن تُحيْوا لنا كليباً ؛ واما أن تدفعوا إلينا جساساً أو همّاماً (أخا جسّاس) نقتُله به ؛ وإمّا أن تُمَكّنَنا (يا مُرّةُ) من نفسك فنقتلَك !

فقال مُرّةُ لمهلهلٍ :

أما إحيائي كليباً فلستُ قادراً عليه ؛ وأما جسّاس ، فانه غلام طعن طعنةً

على عَجَل ثم ركب فرسَه ، فلا أدري أيّ بلاد قصد ؛ وأما همّام فانه أبو عَشْرةٍ وأخو عَشرة وعمّ عَشْرة كلّهم فُرسانٌ ، فلن يُسْلموه اليكم بجريرة غيره . وأما أنا ، فما هو إلاّ أن تجولَ الخيل جوْلة فأكونَ أولَ قتيل ، فما أتعَجّلُ الموتَ ! ولكنّ لكم عندي خَصْلتين : أما إحداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيّهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ؛ وأمّا الأخرى فانّي أدفع اليكم ألف ناقة ...

ورفض مهلهلٌ ما اقترحه مرّة .

٥ – مجرى الحرب الأول :

وقعتِ الحربُ بين بني بكر وبني تَغْلِبَ ، ولكنْ كان في القبيلتين عُقلاءُ اعتزلوا القتال : أما من بكر فاعتزل الحارث بن عُبَاد سيد بني بكر القتال مع أهل بيته فلم يقاتلوا ؛ وظعنت لُجيم عن منازلها حتى لا تشترك في الحرب ، وكفّ بنو يَشْكُرَ عن القتال ، فلم يشتركْ في القتال من بني بكر إلاّ بنو شَيبان قوم جساسٍ الاقربون . وفعل بنو عجل وبنو قيس بن ثعلبة مثل ذلك .

كان أول أيام البسوس يوم عُنيزة عند فَلج فكان الفريقان في ذلك اليوم على السواء : تكافأوا وتناصفوا ولم يظفرْ أحدهما بالآخر ظفراً ظاهراً . وبعد زمن قاد مُهلهلٌ بني تغلب وأغار على بني شيبان ، وكانوا نازلين على ماء يدعى النِهي . ومع أن بني شيبان كانوا أكثر عدداً فان الظفر في ذلك اليوم كان لبني تغلب . ثم تَلَتْ أيامٌ منها يوم الذنائب ويوم الحِنو ويوم القُصيبات ، وفيها كلّها انتصر بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلةٌ عظيمة. ثم قُتل هَمّام بن مرة أخو جساس وظن بنو بكر أنه لن تستقيم لهم حالٌ بعد ذلك . وأسرف بنو تغلب في قتال بني بكر حتى أنهم كانوا يُغيرون على القبائل البكرية التي كانت قد اعتزلت القتال .

ثم قُتل جسّاس ايضاً في حديث طويل . فكتب الحارث بن عُبَاد الى مُهلهل كتاباً أرسله مع ابن اخيه بُجير ، قال فيه : « انك قد أسرفتَ في القتل وأدركت

ثأرك ، سوى من قتلتَ من بكر . وقد أرسلتُ ابني [1] اليك ، فإمّا قتلتَه بأخيك وأصلحتَ بين الحيّين ، وإما أطلقته وأصلحت ذاتَ البَيْن ، فقد مضى من الحيّين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم » .

قرأ مهلهل الكتاب ثم قتل بجيرا وقال : « بُوءْ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيبٍ » [2] .

٦ — تَبَدّل مجرى الحرب :

غضب الحارث بن عُبَاد عندئذ وعزم على دخول الحرب فركب فرسه « النَّعامة » واعتذر لعَمَله بقوله :

قَرِّبا مَرْبِطِ النّعامة منّي شاب رأسي وأنكرتْني رجالي ؛
لم أكن من جُناتها — علمَ اللهُ — وإنّي بِحَرِّها اليوم صال !

وكان أولَ يوم شَهِدَهُ الحارث بن عُبَاد في تلك الحرب يوم قِضّة أو يوم تَحلاق اللِّمَم ، لأنّ بني بكر حلقوا رؤوسهم في ذلك اليوم حتى يَعْرِفَ بعضُهم بعضاً . وقُتِلَ من تغلب في ذلك اليوم مقتلةٌ عظيمة ، وأَسَرَ الحارثُ ابن عُبَاد في ذلك اليوم مُهلهلاً من غير أن يَعْرِفَه ، فقال له : « دُلّني على عَدِيّ وأنا أُخلّي عنك » . فقال له مهلهلٌ : « عليك عهدُ الله بذلك إن دَلَلْتُك عليه ! » قال الحارث : « نعم ! » فقال عديّ عند ذلك : « أنا عديّ » . فجزّ الحارث ناصية عديّ ثم أطلقه . وتتالت انتصارات بكر .

٧ — اعتزال المهلهل وانقضاء القتال :

دامت حرب البسوس أربعين سنة حتى قام بالصلح بين بكر وتغلب قيس ابن شُراحيل بن مرّة بن همّام . ويبدو ان مهلهلاً ادرك ، بعد الهزائم التي توالت على تغلب ، ان الحرب يجب ان تقف ، ولكن لم يشأ أن يَقِفَها هو فترك منازل

---

(١) يذكر الحارث بن عباد ابنه ويقصد ابن أخيه : بجير بن عمرو بن عباد أخي الحارث بن عباد (ابن الأثير ١ : ٢٢٠) .

(٢) الشسع : سير ضيق من جلد تربط به النعل . بوء (ارجع) بشسع كليب : ان قتلك يوازي قيمة شسع كليب .

قومه (بين العراق ونجد) الى اليمين ووَقَفَتِ الحرب . ثم ان مهلهلاً مات في بني مَذْحِجٍ من اليمن (جنوب بلاد العرب) في حديث طويل ، عام ٥٣٠ م.

الحرب بين الفرس والروم

جاء يوسطنيانوس الأول الى عرش القسطنطينية عام ٥٢٧ م فقام بحَمَلاتٍ مُظَفَّرَةٍ في أوروبة وإفْريقيةَ . وعَدَّ كسرى أنوشروانُ (٥٣١ — ٥٧٩ م) تلك الانتصارات الرومية خَطَراً على نفوذه فقام ، منذ عام ٥٤٠ م [1] بحَملات على الشام والقَوقاس [2] أجفلَ لها يوسطنيانوس فأنفذ في عام ٥٤٣ م حَمْلةً مؤلّفة من ثلاثين ألفاً على أرمينية الفارسية . إلاّ أن هذه الحَمْلَةَ خابت . وأدرك الفريقان أن الحرب في القوقاس خاصةً شاقّةٌ جدّاً فعقدا هدنة عامَ ٥٤٤ م [3] .

يوم طِخفة [4]

كانت الرِدافة في بلا ط الحيرة لبني يَرْبوع . والرديف كان كالوزير ، وكان يَجْلِسُ عن يمين الملك ويشرب بعده ويَخْلُفُه اذا غزا (قا ٣ : ١٤٣) . طلب حاجب بن زُرارة بن عُدَس الدراميّ من المنذر بن ماء السماء أن يحوّل الردافة من بني يربوع ويجعلَها في بني مُجاشع للحارث بن بَيْبَةَ بن قُرط سيّد بني مجاشع (قا ١ : ٣٨) ؛ ويربوع ودارم ومجاشع كلّهم من بني تميم .

طلب المنذر من بني يربوع أن يتنازلوا عن الردافة فأبَوا فسيّر عليهم في منازلهم

---

(١) في العام الذي عاد فيه امرؤ القيس من القسطنطينية وتوفي أثناء الطريق .

(٢) القوقاس مقاطعة جبلية بين الروسية وفارس (تفصل بين أوروبة وآسية) .

(٣) الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ١٨٨ — ١٩٠ .

(٤) ابن الاثير ١ : ٢٧٢ — ٢٧٣ . طخفة بكسر الطاء وفتحها يوم انتصر فيه بنو يربوع على قابوس ابن المنذر بن ماء السماء (قا ٣ : ١٦٦). يذكر ابن الاثير أن هذا اليوم كان في أيام النعمان ابن المنذر أو في أيام ابنه المنذر . وقيل في أيام المنذر بن ماء السماء . الصنائع (راجع فوق ، ص ٩١) . الوضائع : جند يجعلون في منطقة ولا يرسلون الى غيرها . والوضائع أيضاً رجال من القبائل المختلفة يرتهنهم الملك عنده حتى لا يخرج أقوامهم عن طاعته (راجع القاموس ٣ : ٩٥)

في طِخْفَةَ جيشاً كثيفاً من الصنائع والوضائع ومن أقوام من بني تميمٍ وغيرهم ، وكان على هذا الجيش أبناه قابوسُ وحسانٌ .

واقتتل بنو يربوع وجيش المنذر في طخفة فانتصر بنو يربوع وأسروا قابوسَ وحسّاناً ونفراً كثيرين ممن كانوا معهما . فاضطرّ المنذر الى أن يَفْتَدِيَ ابنيه وأن يترك الرِدافة في بني يربوع .

يوم عين اباغ [١]

في عام ٥٤٤ م ، في العام الذي عُقدت فيه الهدنة بين فارس والروم ، سار المنذر الثالث بن ماء السماء[٢] ومعَه جيش كثيف من معَدّ ؛ فلمّا وصل الى عين أباغ كتب الى الحارث الأعرج بن جبَلة الغسّاني يقول : إمّا أن تُعْطِيَني الفِدية فأنصرفَ عنك وإمّا أن تأذَنَ بحربٍ .

أسرع الحارث الى عين أباغ ثم راسل المنذر وقال له : لا يجوز ان نُهلِكَ جيوشَنا بزحفٍ ؛ ولكنّي سأدفع الى الميدان ابناً من أبنائي ليبارزَ ابناً من أبنائك. وكلّما قُتِل أحد أبنائنا برز أخوه الى الميْدان ؛ فاذا فَنِيَ أبناؤنا تبارزنا نحن .

تظاهر المنذر بالقبول ثم دفع الى الميدان عَبْداً من عبيده ؛ وبرز ابن من أبناء الحارث فقتل . ثم برز ابن آخر للحارث فقُتل أيضاً . وعرَف الحارث بالخدعة فزاحف جيشَ المنذر فسقط المنذرُ قتيلاً في الزحف وانهزم جيشه .

يوم حليمة [٣]

جاء بعد المنذرِ الثالث بن ماء السماء ابنه المنذرُ بن المنذر الملقّب بالأسود . في

---

(١) ابن الاثير ١ : ٢٢٢-٢٢٣ . عين أباغ واد غرب الفرات على الطريق الوسطى بين العراق والشام .

(٢) راجع مناقشة للتحقيق في اسم الملك الحيري والملك الغساني اللذين اشتركا في القتال يوم عين أباغ (جواد علي ٤ : ٦٢ وما بعدها) .

(٣) ابن الاثير ١ : ٢٢٣-٢٢٦ . مرج حليمة (ابن الاثير ١ : ٢٢٣) أو الحيار (بكسر الحاء) ، حيار بني القعقاع في برية قنسرين (بكسر القاف وتشديد النون المفتوحة) ، كما في القاموس (٢ : ١٦) . قرب تدمر (راجع جواد علي ٤ : ٦١ ، ٦٤ ، ١٣١).

عام ٥٥٤ م ، بعد يوم عين أباغ بعَشْر سنين ، وكانت الهدنة بين الفرس والروم لا تزال قائمة تتجدّد ، عزم المنذر على الأخذ بثأر أبيه .

سار المنذر الاسود بعرب العراق أجمَع ، وفيهم جموع كثيرة من بني تميم . فلمّا عـرَفَ الحارث الأعرج بن جبَلَةَ بذلك سار بعرب الشام أجمعَ حتى توافى الفريقان الى مرج حَليمةَ . بدأت الحرب سجالاً ثم تزاحف الجيشان مرّتين فانهزم المنذرُ مرّتين وقتل في المرّة الثانية .

قيل عُرِفَ اليوم بيوم حليمة لأن الحارثَ الغسّانيّ أمر ابنته حليمة بأن تمسح جنوده بالطِيب وتُلبسهم سلاحَهم ، ثم أعلن أن من قتل ملكَ الحيرة زوّجه ابنته حليمة .

تحوّلُ تاريخِ العربِ

الى الحجاز

منذ أواسط القرن السادس للميلاد بدأ تاريخ العرب يتحوّل من نجد الى الحجاز ، وأخذ الحجاز يكتسب مكانةً في التاريخ العالمي حتّى أصبح معَ ظهور الاسلام مركزَ التاريخ في العالم المعروف في العصور الوسطى . ولما عاد الحجاز فخَسرَ مكانته السياسية ظلت له مكانتُه الدينية الى اليوم تَرْبِطُ أقطارَ العالم الاسلامي ثم تثير ، من أجل ذلك ، اهتمام الدول الكبرى في العالم كلّه .

فمن العوامل التي أدّت الى تحويل مجرى التاريخ في جزيرة العرب من نجد الى الحجاز :

١ ـ تحوّل طرق التجارة من البر الى البحر الاحمر : منذ أنِ استولى الرومان على مصر ، في عام ٣٠ ق . م . بدأتِ المحطّاتُ التجارية في البر تفقد قيمتها ، إذ أصبحت الطريقُ الاساسية للتجارة بين الهند وأوروبة تمرّ عَبْرَ البحر الاحمر . ان هذا قد أكسب الحجازَ أهمّيّةً جديدة . ثم ان التجارات الصغيرة التي ظلّت تنقل برّاً بين اليمن وبين مصر والشام والعراق ، ظلّت تمر بالحجاز كثيراً أو قليلاً . ومعنى هذا أن الحجاز قد اكتسب قيمة تجارية جديدة من غير أن يخسر شيئاً كثيراً من قيمته التجارية الاولى .

ولا ريب في أن هذه التجارة الدولية التي كانت تمرّ بالحجاز برّاً وبحراً شجعت

التجارةَ الداخليةَ فيه : ان الحجاز لم يَبْقَ طريقاً للتجارة فقط ، بل أصبح أهلُه تجاراً يَنْقلون تجاراتهم نقلاً منظّماً بين اليمن والشام . ثم أصبحت مدن الحجاز مراكز للمعاملات المالية وأصبح الرِبا مورداً أعظمَ من مورد التجارة نفسها .

٢ ــ النزاع القَبَلي الذي أضعف نجداً : لمّا اضطربت الباديةُ بالحروب والمنازعات القبلية مال الذين يَحْرُصون على مصالحهم الشخصية ، أو يحبّون الاطمئنان ، الى هَجرِ البادية . وبما أن الشام والعراق كانا مُشْتَغِلَيْنِ بالنزاع بين الفرس والروم وبين المناذرة والغساسنة ، ثم بالنزاع الديني في الشام الخاضعة للروم خاصة ، فان الحجاز كان الملجأ الأمينَ الوحيدَ لمثل أولئك الجماعات .

٣ ــ الدين : لا ريب في أن مكّة في الحجاز كانت مركزاً دينياً قديماً ، والكعبة في مكّة كانت بناء قديماً حتى سُمّيَتْ منذ ذلك الحين البيتَ العَتيقَ . وقد كان العرب يحجون الى البيت العتيق من كلّ مكان ويعظّمونه ويقسمون به الايمان : أقسم به النابغةُ والاعشى وزُهيرٌ وغيرهم ، قال زهير :

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بَنَوْهُ من قُريشٍ وجُرهُمِ .

واقتضى الحجُ الى مكّةَ أن يكون فيها أسواقٌ في فتَرَاتٍ مختلفةٍ وأماكنَ مختلفةٍ يجتمع فيها الناس من كلّ مكان لأعمال مختلفة كالبيع والشّراء وإلقاء الشعر والُخطَب وللبحث عن الغُرماء وللمُفاخرة وسوى ذلك .

٤ ــ وفي القرن السادس للميلاد كَثُرَتِ الجَوالي في الحجاز فكنّا نرى في مُدُنِه الفرسَ والروم والحبشة والزُنوج ، وكنّا نرى فيها النصارى واليهود. ان هذه الجَواليَ أمّتِ الحجازَ بعواملَ مختلفةٍ : جاءت جماعاتٌ الى الحجاز للتجارة أو للعمل اليَدَويِّ في البناء والزراعة والصّناعة ، وجاءت اليه جماعات هرباً من الاضطهاد الديني في بلادها . ثم ان الهجرة من اليمن الى الشمال لم تنقطع ، فيما يبدو . وأشهرُ هذه الهِجْرات وأهمّها ، فيما يتعلّق بالحجاز خاصّة ، هجرة الأوْس والخَزْرج . على أن بعض هذه الجاليات قد ظلّت تعيش مُنْحازةً مستقلّة كاليهود ، بينما اختلط بعضها الآخر بأهل الحجاز وتعرّبوا وقالوا الشعر

بلسان قريش .

٥ ـ خيبة الحَمَلات الأجنبية على الحجاز جعلت لأهله وجاهةً وحوّلت الانظار اليه وخلقت له أهميّةً صحيحة ، مهما كانت الأسباب الّتي جعلته ينجو من الاحتلال الاجنبي . ان الفرس والحبشة تداولوا الحكم على اليمن في فترة طويلة ، كما كان شرقيّ جزيرة العرب خاضعاً في كثير من وجوه حياته للفرس .

٦ ـ صداقات قريش معَ جميع جيرانهم : ان الارستقراطية التي كانت حاكمة في الحجاز عدّتِ الحجازَ ، بالاضافة الى مصالحها ، بلداً تجارياً لا يعادي أحداً . وسنرى مثلاً (ص ١١٣ ـ ١١٤) أن أولاد عبد مَناف سيعقدون صِلاتٍ وديّةً مع الدول : عاهد بعضهم الفرس ، وعاهد بعضهم الروم ، وعاهد بعضهم الحبشة .

وهكذا أخذ تاريخ العرب يجري ، منذ أواسط القرن السادس الميلادي ، وفي أكثر مجاريه ، في الحجاز .

البلاد وأهلها

حينما نقول إنّ مجرى التاريخ قد تحوّل في شبه جزيرة العرب الى الغرب ، فإننا نَقْصدُ أنه قد تحوّل الى ما نَعْرِفَهُ اليوم باسم الحجاز « السياسي » ، إلى القسم الأوسط من غربيّ شبه الجزيرة على البحر الاحمر : من خَيْبَرَ ووادي القُرى شَمالَ يثرب الى مكّة وما حولها جنوباً .

في شَماليّ هذا القسم ، بين العُلى ويثرب ، يقع وادي القرى ؛ وهو بُقعة خِصْبة كانت كثيرة القرى (المدن) . وكان وادي القرى مأهولاً منذ الأزمنة القديمة ، منذ أيام المَعينيين ، ومزدهراً بالزراعة والتجارة ، تدلّ على ذلك النقوشُ الكثيرة الّتي وجدت في أماكن كثيرة منه .

ونَزَلَ في وادي القرى جماعات من شعوب مختلفة من الساميين وغير الساميين : كان فيه العرب من الشَمال والجنوب ، وكان فيه الأنباط والآراميون أقاربُ العرب من الساميين ، وكان فيه الفرس والروم الآريّون ، وكان فيه

الحَبَش والزنوج . ثم نزلت فيه جماعات من اليهود جاءوا اليه اختياراً لمّا جذبهم اليه ازدهارُه الزراعي والتجاري أو جاءوا اليه لاجئين من الاضطهاد الذي أنزله بهم الرومان . وكَثُرَ اليهود في وادي القرى جدّاً .

وكان وادي القرى طريق التجارة بين اليمن وبين الشام ومصر ، كما كانت سواحله طريقاً للتجارة الى الشاطيء الشرقي من افريقية على البحر الاحمر .

مكة

مكّة مدينة قديمة ولكنّ تاريخها الأول غامض جداً ، حتى أنّ اسْمها قد فقَدَ دَلالتَه اللغوية .

اذا نحن نظرنا في اسم مكّة رأيناه يدلّ على « الوادي » ، ففي سورة الفتح : « وَهُوَ الذي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عنكم وأيْدِيَكُمْ عنهم بِبِطْنِ مكّةَ ، بعد أن أظْفَرَكم عليهم ؛ وكان الله بما تعملون بصيرا » (٤٨ : ٢٤) . وكذلكَ وردت الاشارة اليها في سورة آل عمران بلفظ بَكّة : « إنّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنّاس لَلّذي بِبَكّةَ مُباركاً وهُدىً للعالمين » (٣ : ٩٥) . وفي القاموس (٣ : ٢٩٥) : بكّةُ (تقال) : لمكّةَ أو لِما بين جَبَلَيْها . ومثل ذلك مكّة تقال للبلد الحرام كلّه أو للحَرَم فقط (قا٣ : ٣١٩) . وكلمة « بكّ » للوادي يبدو أنها سامية قديمة ، فإن مدينة بَعْلَبَكّ مشهورة ، وهي من الكلمات المركبة تركيباً مَزْجِياً من « بعل » (إله قديم) و « بكّ » (الوادي) . ومعنى بعلبك إله الوادي . وبعلبك موجودة في سهل البقاع ، وكلمة « البقاع » نفسها تحريف في أثناء التعريب لكلمة « بكّ » أو بكّا السامية [1] .

قيل ان أقدَم سكان مكّةَ العماليقُ ، وهم قوم جاءوا من ما بين النهرين

---

(١) ان الكلمة العبرية « بقعاه » تعني الوادي ، وتعني السهل المنخفض والسهل الواسع . وهي تطلق على وجه التخصيص على السهل الواقع بين لبنان (الساحلي) ولبنان الشرقي ، ذلك السهل الذي سماه الرومان سورية المجوفة (المنخفضة) وعرف عند العرب باسم البقاع – راجع
Gesenius, Heb. — Eng. Dict., Boston 1844, p. 156.

(العراق) ثم غلبهم عليها بنو جُرْهُم . وفي جرهم قولان : قول ، إنهم من عرب الجنوب وقول إنّهم من عرب الشمال . ويبدو أن « جرهماً » كانت قبيلة قديمة في الذاكرة العربية حتّى قال زُهير بن أبي سُلمى يُقسم بالبيت (العتيق) في مكّة او يَنسُب بناءه لجرهم ، أو ينسب تجديد بنائه على الأقل لقريش ثم لجرهم من قبلهم .

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حولَه رجالٌ بَنَوْهُ من قريشٍ وجُرهُمِ .

ثم جاء بنو خُزاعة من اليمن أيضاً ، فيما يقول الرواة ، ونزلوا في تِهامة ؛ بعدئذ قاتلوا جُرهماً وتغلبوا عليهم وأجلَوْهم عن مكّة وتَوَلّوْا على الكعبة . وكان من روؤساء خُزاعة عمرو بن لُحَيّ ، فيقال إنه رَجَع من احدى رِحْلاته بصنمٍ اسمه هُبَلُ جاء به من البلقاء (في الشام) أو من هِيت (العراق ، على الفرات الاعلى) .

ويستعرض الدكتور جواد علي الروايات العربيةَ المتعلّقة بالصنم هبل (٥ : ١٠٣ – ١٠٤) ثم يرفض القولَ بأن عمرو بن لحيّ قد استورده، لأن اسم «هبل» وارد في نقوش الحُجْر ومعروف في الاسماء بين أفراد قبيلة كلب ، مما يدلّ على أن هذا الصنم كان معروفاً عند عرب الشمال قبل عمرو بن لحيّ . ان تخريج الدكتور جواد علي صحيح ، ولكن الروايات العربية لا تذكر أكثرَ من أن عمرو ابن لحيّ قد أدخل « هبل » الى مكةَ وأن مكّة لم تعرِفِ الاصنام قبل ذلك.

أما نحن فسواءٌ علينا أكان هبل قديماً في حياة عرب الشمال أو حديثاً – وبقطع النظر عن دور عمرو بن لحيّ في وصول هبل الى مكّة – فإن اسمَه يمكن أن يدلّ على أنه صنم غريب عن شَماليّ بلاد العرب وأنه عراقيّ أشوري . لعلّه ها–بال : الهاء للتعريف و « بال » هي بعل (لأن العين ضاعت من الأشورية) ؛ فمعنى اسم هذا الصنم اذن البعل. وهذا معنىً يبرّره قولهم عن هبل إنه كان أعظم الأصنام عند قريش [1] .

---

(١) كتاب الاصنام لابن الكلبي ٢٧ .

ومن خُزاعة وَرِثتْ قريشٌ الحكم في مكة والولاية على الكعبة .

قريش

يَرْجِعُ نسب قُريشٍ الى النَضْر بن كِنانة، فقد كان اسم النضر قريشاً . غير ان تاريخ قريش المعروف لا يبدأ قبل فِهْر بن مالك بن النضر . كان فهر جُمّاع (الذي تجتمع به القبائل) قريش ورئيس الناس في مكة . قيل لما جاء حسان بن تُبّع الى نجد غازياً ، نحو ٤٨٠ م ، عطف الى مكة يريد ان ينقل حجارة الكعبة الى اليمن . فاجتمعت قريشُ وكِنانةُ وخُزيمةُ وأسدٌ وجُذامٌ وغيرهم بقيادة فِهر بن مالك وقاتلته في نَخْلة قتالاً شديداً ثم أسرته . فبقي في مكة اسيراً ثلاثَ سنوات حتى افتدى نفسه .

ومن الذين اشتهروا من قريش كعْب بن لُؤيّ بن غالب بن فهر ، وكان عظيم القدر عند العرب ، ولذلك أرّخوا لموته (جعلوا موته بدءاً لتأريخ الحوادث) الى عام الفيل ، ثم أرّخوا بعام الفيل . وكان كعب يخطب في الناس في أيام الحج . ويبدو ان خطبه كانت ذات نفحة دينية .

غير ان شأن قريش لم يبرز في التاريخ الا في أيام قُصيّ بن كلاب بن مُرّة ابن كعب .

كان ربيعة بن حَرام بن ضَبَة من بني عُذْرة الشامي قد تزوّج فاطمة بنت سعد فولدت له غلامين : زُهْرَةَ وزيداً . ثم بدا لربيعة ان ينتقل بزوجته الى قومه. فأخذت فاطمة ابنها زيداً معها لانه كان صغيراً فتربى قَصِيّاً (بعيداً) عن قومه فسمي قُصَيّاً .

ثم ان قصياً عاد الى مكة وتزوج حُبّى بنت حُليل بن حُبشية الخُزاعية فولدت له عبد الدار وعبد مَنافٍ وعبد العُزّى . وقد كثر مال قصيّ وعظم شرفه .

وكان حُليل يلي الكعبة ، فلما توفيَ أوصى بولاية الكعبة لقُصيّ . غير ان

خزاعة قومَ حُليل جعلوا ينازعون قصياً الولاية على الكعبة ، فاجتمع قصيّ واخوته ، ومعهم قُضاعة والنضر وقاتلوا خزاعة فكثر القتل بين الفريقين . عندئذ حكّم الفريقان بينهما عمروَ بن عوْف بن كعبٍ الكناني فحكم لقصيّ .

وكذلك كان بنو صوفةُ يجيزون الحجيج في الجاهلية ، اي يُفيضون (يأذنون للحجاج بالنزول من عرَفة قبيلةً قبيلةً على حسب مراتب القبائل) . فقاتل قصيّ بني صوفة على الإفاضة وانتزعها منهم . ثم قاتل بعد ذلك خزاعة وبكراً وأجلاهم عن البيت .

وفي أيام قصيّ انقسمت قريشٌ قسمين : نزل قسم من قريش بظواهر (ضواحي) مكة فسموا قريش الظواهر وكانوا بدْوا ، ونزل سائرهم في بَطحاءِ مكة بين الأخشبين (جبَلَيْ مكة) فسموا قريش البِطاح ، واصبحوا حَضراً .

وبايعت قريش قصياً بالملك فكانت له الحِجابة (الإشراف على الكعبة) والسِقاية والرِفادة (إسقاء الناس وإطعامهم في المواسم) واللواء (القيادة في الحرب) والنَدوة (دار الحكم) . لقد أصبحت دار قصيّ مركزاً لإدارة شؤون قريشٍ كلها : يجتمع سادة قريش وكبراؤها في دار الندوة فيتشاورون لإعلان الحربَ وللفصل في الأمور الطارئة ولعقد الزواج ولتدريع الفتيات إذا بلغن (إلباسهن لباس البالغات) .

كانت طريقة الحكم في دار الندوة بدائية ، على مثال الحُكم الذي كان في المدن الفينيقية واليونانية : نَفَرٌ من الاغنياء وذوي السُلطان والجاه يُسيّرون الامورَ ويقضون بين الناس على غير نظام اوقانون مُتّبع ، بل يفصلون في كل أمر على ما كان يتراءى لهم في حينه . على ان هؤلاء كانوا بلا ريب يتمتعون بكثير من الجاه والاحترام عند الناس حتى أمكن ان تَنفُذَ احكامُهُم الشخصية في الناس . وكان كل واحد من أهل الندوة يسعى جُهدَه لخدمة الذين يلجأون اليه إبقاء على وجاهته . ولم يكن في مكة حاكم واحد متفرّد او مستبدّ .

كان عبد الدار أكبر ولد قصيّ ، إلا انه كان ضعيفاً ، فأعطاه ابوه دارَ الندوة والسِقاية والرفادة واللواء . وكان عبد مَناف قد عَظُم شأنه وساد قومه في أيام أبيه ، كما عظم شأن عبد العزّى وشأن عبد بن قصيّ .

وعقد عبد مناف بن قصيّ حِلفاً بين قريش وبين الاحابيش . والاحابيش هؤلاء جماعة منهم بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المُصْطَلَق من خزاعة وبنو الهُون من خُزيمة . والذي يبدو انهم كانوا مزيجاً من العرب والحبش والزنج ، وكانوا ذوي بأسٍ في القتال .

وكان لعبد مَنافٍ اربعةُ اولادٍ : عمروُ وعبدُ شمسٍ ونَوفلٌ والمُطَّلِبُ. وكان عمرو أكبرهم فتولى السقايةَ والرفادة بعد موت أبيه . واشتهر عمرو بالرفادة خاصة ، بإطعام الطعام للحجاج ، واكثر طعام العرب الثريد (خليطٌ من اللحم المقطع والخبز) فعرف عمرو بلقب « هاشم » لأنه كان فيما يبدو يكثر من الخبز المهشوم في ثريده .

وادرك اولاد عبد مناف ، منذ شبابهم الاول ، ان مكة محطة على طريق القوافل ، وان نقل التجارة بين البلدان المختلفة هو سبيلهم الوحيد الى تحصيل الرزق الكريم ، وان ازدهار التجارة يحتاج الى أمْنٍ داخلي والى صِلاتٍ حسنة بالبلدان المجاورة . من أجل ذلك اخذوا لقومهم العِصَم (جمع عِصمَة) ، أي المنع (قا ٤ : ١٥١) ، ومعنى ذلك أنهم أخذواً وعداً وميثاقاً من الدول القوية حولهم بأن يكون لهم حق السير بقوافلهم والاتجار . وهذا هو الايلاف - العهد وشبه الاجازة بالخفارة (قا ٣ : ١١٨) - الذي ورد ذكره في سورة قريش (رقم ١٠٦ في المصحف) : « لإِيلاف قريش * إيلافهم رِحلةَ الشتاء والصيف * فليعبدوا ربّ هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف * .

وهكذا عقد أبناء عبد مناف اتفاقات أمن وحسن جوار مع البلدان المحيطة :

- أخذ هاشم حبلا (عهداً) من الروم والغساسنة في الشام ،

- وأخذ عبد شمس حبلاً من النجاشيّ في الحبشة ،

ـ وأخذ نوفل حبلاً من الفرس والمناذرة في العراق ،

ـ وأخذ المطلب حبلاً من حِمْيَرَ في اليمن .

ثم ان جميع تجار قريش كانوا يستفيدون من هذه الحبال (العهود) ويتنقلون بقوافلهم بين الحجاز وبين الشام والعراق واليمن والحبشة لا يعترضهم أحد ولا تعوقهم الحروب الناشبة ولا العداوات بين تلك البلاد ، فازدهرت تجارة المكيين واغتنى المكيون اغتناء عظيماً .

ولكن يحسن ان نعلم ان تجارة قريش لم تكن تجارةَ انتاج بل تجارة نقل في الاكثر ، اذ كانوا ينقلون البضائع المختلفة بين البلدان المختلفة . ثم انهم كانوا يوظفون اموالهم الفائضة في مشاريع صناعية في خارج الحجاز . ان آل ابي ربيعة (جَدِ عُمَرَ بن ابي ربيعة الشاعر) كانوا يملكون معاملَ لنسجِ الحرير في اليمن) . وكذلك كان المكيون يُقرضون اموالاً بالربا .

الطائف وبنو ثقيف

الطائف واحة مرتفعة تقع على نحو خمسة وسبعين ميلاً (١١٥ كيلومتراً) الى الجنوب الشرقيّ من مكة ، وهي مَصيفٌ لأهل مكة .

كانت هذه الواحة لبني عامر بن صَعْصَعَة من قيس عَيْلان يَصيفون فيها ثم يَشْتون في أرضهم من نجد . ولم يكن بنو عامر يستفيدون من خِصْب هذه الواحة لأنهم كانوا بَدْواً .

وكان حول تلك الواحة أيضاً جماعات من عرب الشمال هم بنو ثَقيف . وتَنَبَّهَ بنو ثقيف ، بحكم نزولهم الدائم حول تلك الواحة ، الى الاستفادة من خِصب الارض فيها فاتفقوا مع أصحابها بني عامر بن صعصعة على ما يلي :

أ ـ يقوم بنو ثقيف بزرع الارض زروعاً وتمراً وينهضون بجميع النفقات ثم يدفعون الى بني عامر نصف الغلال .

ب ـ يقوم بنو عامر بحماية الواحة وحماية بني ثقيف من الغارات .

وبما أن تلك الواحة كانت كثيرة الخصب فانها كانت تُغري الاعراب الذين حولها بغزوها . من أجل ذلك بنى بنو ثقيف لتلك الواحة سوراً طائفاً حولها (محيطاً بجميع جهاتها) فسُميت « الطائفَ » .

فلما قَوِيَ بنو ثقيف في الطائف وفي ما حولها ، بعد بناء السور ، نكثوا بَعْهدهم لبني عامر واستبدوا دونهم بجميع الطائف . وأراد بنو عامر أن يستردوا حقهم بالحرب فلم يستطيعوا .

ثم ان الطمع الاقتصادي الذي جعل بني ثَقيف ينكثون بعهدهم لبني عامر جعلهم يختلفون فيما بينهم أيضاً . كان بنو ثقيف بطنين : الاحلافَ وبني مالك . وكان الاحلافُ أكثرَ عدداً ، فيما يبدو (ومن هذا جاء اسْمُهُم : الاحلافُ) وأشدّ قوة فقاتلوا بني مالك وأخرجوهم من الطائف .

ومع الايام أصبحت الطائف قرية (بلدة ، مدينة) مهمة في الحجاز ، ولكن لم تبلغ في المكانة السياسية الى ما بلغت اليه مكة ، معَ أن أهلها كانوا يطمعون في ذلك . لمّا بُعث محمدٌ رسولُ الله أراد المشركون أن يقيسوا العظمة بالجاه الدنيوي والغِنى فاستكبروا أن يُبْعَثَ محمدٌ رسولاً بينما في مكة وفي الطائف من هم في زعمهم أكبرُ حظاً، فقال الله تعالى على لسانهم في سورة الزّخرُف : « وقالوا: لو لا نُزّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم (٤٣ : ٣١) »يَقْصِدون الوليد بن المُغيرة من مكة وعُروة بن مسعود الثقفي من الطائف .

يثرب والأوس والخزرج

كانت يثرب موضعاً معروفاً منذ زمن بعيد ، منذ أيام المعينيين . ومع أن تاريخها الاول غامض أيضاً ، فان الاخبار التي وصلت الينا من تاريخها أقدم من تلك التي وصلت الينا من تاريخ مكة .

وأسماء المواضع المشتقة من الجِذر « ثرب » وقريبه « ترب » ليست قليلة ؛ ولعلّ الموضع الذي يأخذ اسمه من ثرب بالثاء المنقوطة بثلاث نقط

أقدم عهداً من الموضع الذي يأخذ اسمه من « ترب » . في القاموس (١ : ٣٩) : تَرِبَ : كَثُرَ تُرابُه ، مما يدل على أن الموضع المسمى بصيغة من هـذا الجذر كثير التربة خصب . وتُربة واد ، وتُربية وتُرابة موضعان في اليمن ، وتُربان واد بين الحَفير والمدينة ؛ وثَرَبان بالثاء حصن في اليمن. وأثارب ، بالثاء أيضاً ، قرية بحلب . ويَثْرِب وأثْرِب بالثاء : مدينة النبي موضوع بحثنا هنا ؛ أما يَتْرَب ، بنقطتين من فوقها فقط ، فموضع قرب اليمامة (قا١ : ٣٩ ، ٤٠) .

ويبدو أن اسم « المدينة » عَلَماً على يثرب كان قديماً ، ولكن الاسم « يثرب أقدم ؛ ولعل الاسم « أثرب » أكثرُ قِدَماً .

وكانت يثرب من أول عهودها بلداً زراعياً راسخاً في الحضارة ، بخلاف مكة التي كانت البداوة تغلب عليها ، في حياتها السياسية وحياتها الاجتماعية على الاقل (لا في حياتها الاقتصادية) .

ولما لجأتِ الجالياتُ اليهوديةُ الى الحجاز أختارت يثرب وجِوارَها ثم كثُرَ اليهود في تلك المنطقة حتى كادوا يَغْلِبون عليها جنسياً وسياسياً . وكذلك اختار اليهود ، منذ نزَلوا في يثرب ، أن يكون لهم أحياءٌ يسكنونها خاصة بهم ، جَرْياً على عادتهم في كل مكان وزمان . ولقد كَثُروا في يثرب في غربيها وجنوبيها ، كما سيطروا فيها على المرافق الزراعية والصناعية والتجارية . وفي الرواية أنه غَبَرَ زمن كان الحكم في يثرب لليهود . في ذلك الحين كان حول يثرب قُرى كثيرةٌ كما كان فيها أسواق رائجة كثيرة . فمن القبائل اليهودية التي كانت في ذلك الحين فيها بنو قُريظة والنضير وبنو قَيْنُقاع وبنو ماسلة وزعورا وغيرهم ، وكانوا قد ابْتَنوْا حصوناً يجتمعون فيها اذا خافوا (ابن الاثير ١ : ٢٧٥) .

وكذلك كان في يثربَ في ذلك الحين جالياتٌ مختلفة الى جانب أهلها من عرب الشمال . على هذا المزيج المتنافر من السكان نزل الأوْسُ والخزْرَجُ .

قيل في الاوس والخزرج ما قيل في المناذرة والغساسنة : كان هؤلاء مثل أولئك من اليمن ؛ وكان طُرُوُءُ الجميع على الشمال في وقت واحد . وفرعا الاوس والخزرج هما ابْنا حارثةَ بنِ ثعلبةَ العَنقاء بن عمرو بن مُزَيْقياء بن عامر بن ماء السماء من الأزد من كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُبَ بن يَعْرُبَ بن قَحطان . وأم الاوس والخزرج معاً قَيْلة بنت كاهل بن عُذرة بن سعد ، ولذلك يقال للأوس والخزرج . ابناء قيلة وأولاد قيلة . ولما تفرق العرب الطارئون من الجنوب في المناطق الشمالية سكن كل بطن في ناحية اختارها (او اتفقت له سُكناها) : سكنت خُزاعة الحجازَ ، ثم سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن كان معه ، فلما وصل الى يثرب تخلف بها الاوس والخزرج ابنا ثعلبة في من كان معهما . بعدئذ تابع الباقون طريقهم حتّى نزل بنو لخم في العراق وبنو غسان في الشام .

ولما استقرّ الاوس والخزرج في يثرب استطاعوا أن ينتزعوا من يهودها عدداً من الحصون ، ثم ابْتَنَوْا حصوناً أخرى . وغَبَرَ زمن ٌكَثُرَ الاوس والخزرج في أثنائه فجعلوا يقاومون النفوذ اليهودي ، وقد جمعتِ العصبيةُ بينهم وبين أهل يثرب من عرب الشمال . عندئذ أخذ النفوذ اليهودي يتقلص عن الحياة السياسية والحياة الاجتماعية في يثرب ، وأخذ نفوذ الاوس والخزرج يَقْوي ، حتّى أصبحت يثرب وكأنهما بلد الاوس والخزرج لا يُذْكَرُ سائرُ سكانها معهم إلاّ مجازاً . ولكنْ في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد بدأ النزاع بين الاوس والخزرج أنفسهم في سبيل التفرّد بالنفوذ السياسي في يثرب ، وبدأت بين القومين أيام كأيام العرب كانت تعرف بأيام الاوس والخزرج .

خيبر

خَيْبَرُ واحة خصْبة جداً وكثيرة النخيل تقع على نحو مائة ميل (١٦٠ كيلومتراً) شمال يثرب . ولا يزال اسمها يحمل الدّلالة على خِصبها ، فإنّ الخبر والمُخابرة أن تُزْرَعَ الارضُ (على أن تُقْسم غِلالها بين صاحبها وبين

زارعها) على النِصْف (على أن يأخذ كل واحد منهما النصف) أو نحو ذلك (قا ٢ : ١٧) .

وكانت خيبر معمورة قبل التاريخ ؛ ثم كَثُرَ اليهود فيها كَثْرَةً جعلتِ اسمها مقروناً باسمهم حتى لَيُظَنّ أنه لم يسكُنْها أحدٌ غيرُهم .

وكذلك كان في خيبرَ عدد من الحصون أكثرها أو كلها لليهود . ولم يعتمد اليهود على حصونهم فقط ، فاتفقوا معَ عدد من القبائل العربية للدفاع عنهم وعن أراضيهم لقاء أتاوة بطبيعة الحال .

تيمــاء

تقع تيْماء على نحو مائتي ميل (٣٢٠ كيلومتراً) شمالَ يثرب ، على مَقْرُبَةٍ من الطرَف الشمالي الغربي من بادية نجد . وقد كانت تيماء محطة تجارية قديمة قبل الميلاد ، نزلها اليمنيون وحكمها الفرس ، وازدهرت فيها الحضارة . واذا نحن قرأنا بيتَ امرىء القيس في معلقته يصف السيل بعد مَطْرة شديدة :

وتيماءَ[1] لم يَتْرُكْ بهــا جِذعَ نخْلةٍ ولا أُطُماً إلاّ مَشيداً بجندلِ ،

أدركنا أنهــا كانت مدينة حصينة ذات آطام (حصون) مبنيةٍ بالجندل (بالحجارة الكبيرة الضخمة) .

وسكن اليهود في تيماء ثم كثروا فيها يعملون في الزراعة والتجارة وفي إقراض المال ، الى الذين يُحيطون بهم ، بالربا . وبلغت شهرة تيماء في اقراض المال الى الآفاق حتى جاء امروء القيس الى السموأل (صموئيل) يرهن عنده دروعَه وسلاحه لقاء مال ٍ يستعين به على رِحلته الى القسطنطينية .

---

(١) تيماء مجرورة لعطفها على « القنان » في البيت السابق : ومر على القنان ...

الأحداث في الجاهلية القريبة

اذا نحن وصلنا الى منتصف القرن السادس للميلاد فإننا نكون قد وصلنا الى الأحداث الجاهلية التي تدخل في نطاق التاريخ المألوف ، ذلك لأن الذاكرة العربية كانت قادرة على أن تَعِيَ حوادثَ لم يكن عُمرُ أقدمها قد زاد ، يوم ظهور الاسلام ، على ستين عاماً . ولا شك في أن كثيرين ممن دخلوا في الاسلام قد شَهِدوا أقدمَ أحداثِ هذه الحقبة عِياناً أو كالعِيان .

في هذه الحقبة وَضَح تاريخ المناذرة والغساسنة واشتد عِداء الفرس والروم مباشرة ومن وراء المناذرة والغساسنة أيضاً . وكذلك استمر تاريخ العرب على سَمْتِه القديم : أياماً تتنازع فيها القبائل والعشائر على مِثال أيام العرب السابقة ، ولكن معَ شيء من الوَعي الاجتماعي نحو توحيد القوى وشيءٍ من الوعي الروحي للتغلب على الجهل الذي هو ضُدّ الحلم ، ذلك الجهلِ الذي كان قد استولى على العرب زماناً طويلاً .

في هذه الحقبة برز النزاع بين بني أمية وبني هاشم وأصبح في قريش عَصَبِيّتانِ . غير أن القُرَشيين ظلوا متماسكين بثلاثة عوامل : بالخوف على تجارتهم أن تَبور وبالخوف على سيطرتهم على الكعبة أن تزول الى غيرهم وبالخوف من الاوس والخزرج في المدينة أن يتفقا عليهم .

وكان بَطْنَا الأوسِ والخزرج في يثربَ يتنازعان ، ولكنهما كانا أيضاً يحاولان الرجوع الى المودة والوفاق ، إلا أن اليهود كانوا يُغذّون النزاع بينهما .

أما البادية فظلت غارقة في المنازعات العصبية ، ولكن الوعي وجد سبيلا الى نفوس البدو أيضاً . وما الصلحُ بعد حرب داحسٍ والغبراء إلا أمارةٌ من تلك الأمارات .

على أن شيئاً جديداً قد حدث في البادية والحضَر هو حروب الفِجار ، تلك الحروب التي كانت نتيجةً للغدر بعد التعاقد أو للحرب في الأشهر الحرم .

حلف المُطَيَّبين

ان أقدم الأحداث في هذا الدور الذي نؤرخه « حِلْفُ المُطَيَّبينَ » الذي عُقِدَ ، كما يقول ابن الاثير (١ : ١٨٤) قبل عام الفيل .

كان عام الفيل عام ٥٧٠ م ، فمتى عقــد العرب حلف المُطيبين قبل ذلك . لا بدّ هنا من شيء من النقد الداخلي للأحوال الملابسة لعقد هذا الحلفِ : لقد رَوَوْا لنا أن هذا الحلف قد عُقد لتسوية النزاع بين عبد شمس وأخيه هاشم ابنيْ عبدِ مَناف :

لنبدأ بهذا النقد رجوعاً في التاريخ : •

— وُلِدَ مُحمّدٌ رسول الله في عام الفيل (٥٧٠ م) .
— وقبل أن يُولد محمّد رسول الله بنحو ثلاثة أشهر تُوفيَ والدُه عبد الله بن عبد المطلب .

— وتوفيّ عبد المطلب في عام ٥٧٨ م .

هذه تواريخُ أجمع عليها أهل الاخبار .

ولكنّ حلفَ المطيبين كان في أيام هاشم والد عبد المطلب ، وهاشم توفي في غزّة باكراً قبل أن يُجاوز عبد المطلب بضع سنين . ثم كان عام الفيل (٥٧٠م) فاذا عبد المطلب كبيرُ قريش وسيدها وشريفها (الطبري ٢ : ١٣٣) . فلو فرضنا أنّ عُمرَ عبد المطلب كان في ذلك الحين خمسين سنة فقط ، لَوَجَبَ أن يكون حلف المطيبين قد عقد قبل موت هاشم ، بين عام ٥٠٣ وعام ٥٠٥ م .

ثم لو تساهلنا وجعلنا عُمُرَ عبد المطلب في عام الفيل أربعين سنة لما تأخر حلف المطيبين عن عام ٥١٥ للميلاد .

غير أن الملموح من قول ابن الاثير أن ذلك الحلف أحدث عهداً .

* * *

كان قُصيٌ قد خص ابنه عبدَ الدار بمُعْظم المنافع الاقتصادية في مكة : أعطاه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، ذلك لأنه كان ضعيفاً لا يقدر على الكفاح كسائر اخوته . وأقرّ اخوة عبد الدار ذلك زمناً كما أقرّه ابناؤهم من بعدهم زمناً آخر .

ثم ان الخلاف دبّ في قريش طمعاً باعادة تنظيم تلك المنافع بتوزيعها بين انفسهم ، وتقسمت قريش ثلاثَ فرق :

١ – اجتمع بنو أسد بن عبد العزّى وبنو زُهرة بن كِلاب وبنو تيم بن مرّة وبنو الحارث بن فِهر مع بني عبد مناف يطالبون بأن يُعاد توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع قبائل قريش . ثم ان بني عبد مناف أتَوْا بجَفنة (قصعة ، وعاء) فيها طِيبٌ ووضعوها في المسجد عند الكعبة وتحالفوا وتعاقدوا على ان يكونوا صفاً واحداً في طلبهم ، وعلى ان يقاتلوا في سبيل نيل ما يطلبون . بعدئذ غمسوا ايديهم في جفنة الطيب ثم مسحوها بجدران الكعبة توكيداً على انفسهم بذلك ، فسُمّوا المطيبين (الذين طيبوا الكعبة ، أي مسحوا جدرانها بالطيب) . ودُعي حلفهم هذا باسم حِلف المطيّبين .

٢ – واجتمع بنو مخزوم وبنو سَهم وبنو جُمَحٍ وبنو عَديّ بن كعب مع بني عبد الدار واتفقوا على ألاّ يغيروا شيئاً مما كان قد فعله قُصيّ وان يبقى القديم على قِدَمه (فتبقى جميع تلك المنافع الاقتصادية مع بني عبد الدار) . بعدئذ تحالفوا وتعاقدوا ، عند الكعبة ايضاً ، على ألاّ يتخاذلوا ولا يُسْلِمَ بعضهم بعضاً فسموا الأحلاف .

٣ – اما بنو عامر بن لُؤيّ وبنو مُحارب بن فِهر فاعتزلوا الفريقين وآثروا ألاّ يدخلوا في النزاع البتّةَ .

ثم ان الفريقين المتخاصمين استعدّوا للحرب . ولكن نفراً من عقلاء الفريقين دَعَوْا الى الصلح بالمفاوضة . وقد رَضِيَ بنو عبد الدار في النهاية أنْ يتنازلوا عن السِقاية والرِفادة (وهما اقل تلك المنافع الاقتصادية شأناً) لبني عبد مَناف . وظلت الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار .

على ان ذلك الصلح لم يحسم الخلاف الاصلي ، فإن أمية بن عبد شمس حسد عمه هاشماً على رئاسته وإطعامه الطعام ثم نافرَه (فاخره ودعا الى التحكيم بينهما) وأهانه . غير أن قريشاً حكموا لهاشم على عبد شمس : حكموا بأن يدفع عبد شمس الى هاشم خمسين جملاً وأن يتَغَرّبَ عبد شمس عشْرَ سنينَ عن مكة .

ولما توفي هاشم في غزّة (فلسطين) انتقلت الرِفادة والسقاية الى أخيه المطلب لأن الحارث بن هاشم كان طفلاً .

أيام عبدالمطلب بن هاشم

لما تُوفيَ هاشم بن عبد مَناف في غزة كان ابنه الحارثُ مع أمه سلمى بنتَ عمرو بن زيد الخزْرجي من بني عَدِيّ بن النجار في يثْرب ، ولم يكن عُمُرُ الحارث يومذاك فوق أربع سنوات . وعرَف المطلب بن عبد مناف (عم الحارث) بذلك فجاء من مكة الى يثْرب وأخذه ليربيَهُ عنده. فمن ذلك الحين أصبح اسم الحارث عبد المطلب[١] .

(١) كان اسم عبد المطلب بن هاشم في الاصل الحارث (الطبري ٢ : ٢٥١) ، قيل كان اسمه شيبة (الطبري ٢ : ٢٤٦) أو أن ذلك كان لقباً له لأنه ولد وله شعرات بيض . فلما رجع المطلب بالحارث ابن أخيه من يثرب كان يقول للناس : هذا عبدي ، فاصبح اسم الحارث مع الأيام عبد المطلب (الطبري ٢ : ٢٤٨) . والعبد : الانسان حراً كان أو رقيقاً (مملوكاً)، والعبد نبات طيب الرائحة (قا ١ : ٣١١) .

كثُر النزاع بين عبد المطلب وبين أهله فقد انتزع منه عمه نوفل أركاحاً[1] ، فاستنصر عبد المطلب أخواله بني النجار اليثربيين فنصروه فاضطرّ عمه الى أن يردّ عليه الاركاح .

ولمّا توفي المطلب انتقلت الرفادة والسقاية الى ابن أخيه عبد المطلب[2] فزاد ذلك في وجاهته وفي نفوذه . ثم ان عبد المطلب كرى بئر زمزم (أعاد حفرها ونظفها) فكثُرَ ماؤها وفاض . فنازعه فيها عند ذلك جماعة من قريش وقالوا : انها بئر أبينا ابراهيم ، وان لنا فيها حقاً فأشركنا معك . فلم يقبل عبد المطلب بذلك ، بل استعان على الذين خاصموه بإخوته وبجماعة من خُزاعة كان قد عقد معهم حِلْفاً . ومع أن خصوم عبد المطلب عادوا فأقروا بأن تكون بئر زمزم له دونَهم ، فإن الخصومات بين عبد المطلب وبين بني أمية بن عبد شمس خاصة ظلت مستمرة .

يوم سُمير

كان يوم سُمير اول أيام الأوس والخزرج ، في مطلع النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ؛ وكان سببه تافهاً : جاء رجل من بني ذُبيان اسمه كعبٌ الثَعلبي الى يثربَ ونزل ضيفاً على مالك بن العَجلان الخزرجي . فقال كعب الثعلبي مرة في سوق يثرب : مالك بن العجلان افضل اهل يثرب . فسمعه سُمير ابن يزيد الأوسي فشتمه ثم قتله بعد مدة في حديث طويل . وخاف الحيّان ان تنْشَبَ الحرب ، وقبل الأوس ان يأخذوا دِيَةَ كعب . ثم قال الخزرج : كعب حليفٌ لكم وليس منكم ، فنحن ندفع لكم دية الحليف (نصف دية الصريح) . فأبى الأوس إلاّ دية الصريح كاملة فنشِبتِ الحرب .

كان الأوس محالفين لبني قُريظة وبني النضير اليهود ، وكان للخزرج حلفاءُ قليلون (من بني غسان ومن بني ذُبيان) . والتقى الأوس والخزرج قربَ

---

(١) الاركاح جمع ركح (بالضم) : قطعة أرض ، دار .

(٢) لأنهما كانا حقاً له من أبيه ولأن عمه المطلب تولاها عند لصغر سنه .

قُباءَ (ضاحية جنوبية ليثرب) واقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا منتصفين (اي سقط من كل فريق قتلى مساوون لقتلى الفريق الآخر) . ثم انهمُ التَقوْا مرة ثانية عند أُطُم لبني قَيْنُقاع فانتصر الاوس .

ولما طالت الحرب طلب الاوس ان يحكموا بينهم رجلاً ، وقبلوا بأن يكون الحَكَمَ ثابتُ بن المنذر بن حرام (والد حسان بن ثابت الشاعر) وهو من الخزرج . فحكم ثابت بان يدفع الخزرج الى الاوس دية كعب الثعلبي كاملة كدية الصريح .

أبو طالب (٥٣٥ – ٦١٣ م)

كان لعبد المطلب بن هاشم عَشْرَةُ أبناءٍ منهم عبد مَناف (وكنيته أبو طالب) وحمزةُ والعباس والزبير والحارث وأبو لهب (واسمه عبد العُزّى) وعبد الله (والد محمد رسول الله) وهو أصغر أولاده . أما بناته فكنّ : عاتكة والبيضاء (وهي أم حكيم) وبَرّة وأُمَيْمة وأرْوى وصفية .

كان أبو طالب سيد بني هاشم واليه انتهت الرفادة والسقاية من أبيه ؛ وكان يعمل أيضاً في التجارة ولكن على نطاق ضيق جداً . واحتاج أبو طالب يوماً الى شيء من المال فاستدانه من أخيه العباس (وكان العباس مرابياً كجميع أغنياء مكة) ثم عجزَ عن وفائه فتنازل للعباس عن الرفادة والسقاية .

يوم رَحْرَحان [١]

استطاع الحارث بن ظالمٍ المري أن يقتل خالد بن جعفر بن كلاب ثم قتل ابناً للاسود بن المنذر . فجعل الاسود بن المنذر يطلب الحارث ليقتله ثأراً لابنه ولجاره خالد بن جعفر ؛ وجعل بنو هَوازن يطلبونه أيضاً ليقتلوه ثأراً لسيدهم خالد .

وخاف بنو هوازن من الاسود بن المنذر فلم يؤووا الحارث ، فتركهم الحارث

(١) نهاية الارب ١٥ : ٣٤٩ – ٣٥٠ ؛ العقد ٦ : ٦–٨ ؛ ابن الاثير ١ : ٢٣٢ وما بعدها .

ولَحِقَ ببني تميم فأجاره أبو القعقاع مَعْبَدُ بن زُرارة .

علم بنو عامر بن صعصعة بذلك فساروا بقيادة الأحوص بن جعفر (أخي خالد بن جعفر) ، ومعهم جيش للأسود بن المنذر ، نحو بلاد تميم . أدرك معبد عند ذلك أن الحرب ستنْشَبُ بين بني عامر بن صعصعة وبين بني تميم من أجل رجلٍ واحد فقال للحارث أن يرحل عن جوار بني تميم حَقْناً للدماء . فغضب الحارث من معبد ولكنه ارتحل نحو اليمامة .

غير أن ارتحال الحارث عن جوار بني تميم لم يُجْدِ بني تميم نفعاً ، فان بني عامر لَقُوا بني تميم في رَحْرَحانَ ، وهو جبل قريب من عُكاظٍ خلفَ عرفاتٍ (في مكة) . في ذلك اليوم انهزمت تميم ووقع معبدُ بن زرارة في الأسر ، أسره عامرٌ والطفيلُ ابنا مالك بن جعفر (وابنا أخي خالد) .

وجاء أبو نَهْشل لَقيط بن زرارة الى بني عامر يَعْرِضُ عليهم في فِداء أخيه معبدٍ مائتي جمل . فأبى بنو عامر في معبد الا فِداءَ مَلِكٍ (ألفَ جمل) وقالوا له : « يا أبا نهشل ، أنت سيد الناس ، وأخوك معبدٌ سيد مُضرَ فلا نقبلُ فيه الا دِيَةَ ملك ! »

لم يشأ لقيط أن يخالفْ سُنّةَ بني تميم في فداء ساداتهم (بأداء ديةٍ هي ضِعفُ ديةِ السادات من غيرهم) فنصح لأخيه معبدٍ أن يصبر على الأسر قليلاً . ولكن ذلك غم معبداً ، وكان مُقيداً بالاغلال في أسره ، فأبى أن يَطْعَمَ شيئاً أو أن يشربَ حتى مات في الأسر هُزالا .

يوم شِعب جَبَلة[1]

أراد لقيط بن زرارة أن ينتقم لمقتل أخيه مَعبد يوم الرَحْرَحان فجعل يؤلبَ القبائل على بني عامر : استجابت للقيط بن زرارة تميم كلها الا بني سعد ؛ وحالفه بنو ذُبيانٍ لعداوتهم القديمة المشهورة لبني عبس ؛ وانضمت اليه غَطَفان

(١) العقد ٦ : ٨ – ١١ ؛ ابن الاثير ١ : ٢٤٣ – ٢٤٥ ؛ نهاية الارب ١٥ : ٣٥٠ – ٣٥٣ .

كلها إلاّ بني بدر ؛ وانضافت اليه بنو أسد لأنهم كانوا حلفاءَ لغطفان . وكان لقيط بن زرارة وجيهاً عند الملوك فأمده الجَوْن الكلبي ملك هَجَر (البحرين) بجيش يقوده ابناه عمرو ومعاوية ابنا الجون ، كما أمده النعمان بن المنذر بجيش يقوده حسانُ بن وَبْرة الكلبي أخو النعمان لأمه . ويذكر الرواة أن ذلك كان أكبر جمع في الجاهلية .

أما بنو عامر فكان معهم أحلافهم بنو عبس ثم كان معهم بنو بجيلة الا بني قَسْر ، كما كان معهم بنو غنيّ في بني كِلاب ، وباهلة في بني صَعب ، والابناء أبناء صعصعة ، ورهط المُعَقّر البارقي في بني نمير بن عامر .

وأدرك الاحوص بن جعفر العامري وقيس بن زهير العبسي وعمرو بن عبدالله ابن جَعْدة أنْ لاطاقةَ لهم بحرب الجموع التي جاء بها لقيط بن زرارة في زحف يلتقي فيه الفريقان فاختاروا أن يعتصموا في شِعْب جَبَلَة[1] : جعلوا النساء والاولاد والأموال في رأس الجبل وقسموا مواقع الشِعب بين القبائل بالقرعة ، وكانوا قد عطشوا الابل اثني عشر يوماً . ثم انهم أعلموا القبائل بأن عليهم اذا سمعوا نداء الحرب ، أن يُطلقوا الإبلَ ؛ وكتموا عنهم الخطة المبيَّتة .

وصل لقيط بن زرارة بجموعه ثم اقتحم الشِعْبَ . كما قدّر الاحوص وقيس وعبد الله . فلما وصلت جموع لقيط الى منتصف الشعب صدر نداء الحرب ، فأُطْلِقَتِ الابل . كرت الابل مسرعةً الى الماء في أسفل الشعب فكانت تحطم كل شيء في طريقها .

انهزم بنو تميم وأحلافهم وقتل منهم عدد عظيم في اثناء انهزامهم في الشعب، ثم أدركهم بنو عامر وبنو عبس في السهل وأثخنوا فيهم القتل أيضاً . وكان ممن قتل في ذلك اليوم لقيط بن زرارة ومعاوية بن الجَوْن الكلبي ؛ ووقع في الاسر حاجب بن زرارة وسِنان بن أبي حارثة (والد هَرِم بن سنان) أسره عُروة الرُحّال .

---

(١) الشعب : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .

نشوب حرب داحس والغبراء

ثارتْ حربُ داحسٍ والغبراء بين بني عبس وبين بني ذبيان ابنيْ غَطَفان ، وكانت مناوشات ملأت أربعين عاماً . من ٥٤ الى ١٤ ق. هـ. (٥٦٨ — ٦٠٨ م وبالغ صاحب نهاية الارب فقال (١٥ : ٣٥٦—٣٥٧) : إن هذه الحربَ دامت اربعين سنة لم تلد في اثنائها ناقة ولا فرس لاشتغال بني عبس وبني ذبيان بالقتال .

كان لحُذَيْفَةَ بن بدرٍ الفزاري (من بني غطفان) خيل كثيرة جيدة ، فزاره يوماً وَرْد بن مالك العبسي . وبينما كان حذيفة وورد يستعرضان الخيل ، قال وردٌ لحذيفة : لو اتخذتَ لخيلك فحلاً من خيل قيس بن زهير بن قيس (العبسي) . فقال : حذيفة : خيلي خير من خيل قيس بن زهير . ثم لجّ بينهما الخلاف حتى تراهنا على ان يَجريَ سباقٌ بين خيل حُذيفة وخيل قيس .

ونقل ورد بن مالك الخبرَ الى قيس بن زهير فقَبِلَ قيس . ثم اجتمع قيسٌ وحُذيفةُ واتفقا على ما يلي :

يُنْزِلُ قيس بن زهير العبسي داحساً والغبراء (وهما فرسان له مُذَكّر ومؤنثة) ، وينزل حذيفة بن بدر الفَزاريّ الغطفاني الخَطّارَ والحنفاء (وهما فرسان له مذكر ومؤنثة) . ويكون الشوطُ نحو مائةٍ وعشرين غَلْوة (والغلوة المدى الذي يصل اليه السهم) اي نحو ١٥ — ٢٠ كيلومتراً) ؛ والهدفُ ذاتَ الإصاد، وتكون علامة السَبْق ان يصل الفرس السابق الى بِرْكة في ذات الإصاد فيكرع (يشرب) منها قبل غيره . اما مقدار الرهان فكان عشرين جملاً . وكان الحكَمُ رجلاً من بني ثعلبة .

خاف حُذيفة بن بدر أن يخسر الرِهانَ فأقام عند ثنيّةٍ (ممر في جبل) رجلاً من بني أسد (وكان بنو أسد حلفاءَ لبني ذُبيان) وجماعة من قومه بني فزارة ، ثم قال لهم : اذا مرّ بكم داحس والغبراء فأمسكوهما . فلما وصل داحس الى الثنية ، وكان سابقاً ، أمسكوه . ثم وصلت الغبراء بعده مُصليةً (ثانية) فلم يعرِفوها فيُمْسكوها . وظلّ الفزاريون ممسكين داحساً حتى مضت الخيل

كلها من الثنية فأطلقوه فراح يتخطى الخيل واحداً واحداً الا الغبراء ، ولو طال المدى لسبقها أيضاً . ثم عاد الفزاريون فأمسكوا داحساً والغبراء مرة ثانية ، ومع ذلك فقد جاءت الغبراء سابقةً وداحسٌ مُصلياً .

وطلب العَبْسيون (حزبُ داحس والغبراء) مقدار الرهان فلم يقبل الفزاريون ان يعطوهم شيئاً . ثم ان قيس بن زهير العبسي أرسل ابنه مالكاً يطلب من حُذيفة بن بدر الرهان ، فرفض حذيفة ان يدفع الرهان وقتل مالكاً . ثارث الحرب بين بني عبس وأحلافهم وبين بني ذبيان واحلافهم .

عام الفيل

في عام ٥٧٠ م سار أبرهة بجيش كثيف من اليمن يريد الاستيلاء على مكة وهدْم الكعبة لتكون طريق التجارة من اليمن الى الشام ومصر كلها تحت سيطرته ، كما كانت حملته تلك تنطوي على معنى ديني تتحوّل به القيمة الدينية في غربي شبه جزيرة العرب الى اليمن (راجع كتاب الأصنام ٤٦ ـ ٤٧) ثم تكون مكة مركزاً مهماً لنشر النصرانية . وكان في الجيش فيَلَةٌ ـ ولم يكن العرب قد رأوا من قبل فيلة في الجيوش ـ فسمَّوْا ذلك العام عام الفيل .

ويبدو ان أهل مكة أرادوا في أول الامر ان يدافعوا عن مكة ، ولكنْ تبين لهم ان الجيش الحبشي كان اكثر عدداً وعُدَداً من ان يستطيعوا ذلك فآثر جماعاتٌ منهم ان يغادروا البلدة الى الجبال المحيطة بها . وكذلك رأى أبرهة ان يفتح مكة بأيسر سبيل فأستأجر رجلاً من ثقيف ، فيما يقال ، اسمه ابو رِغالٌ حتى يدلّه على عَوْرة يستطيع ان يفاجىء منها المكيين .

ومن الاحداث المروية عن حملة أبرهة على الكعبة :

١ ـ لما اقترب الجيش الحبشي من مكة نهب نفر من الجنود إبلاً لأهل مكة كان فيها مائتا جمل لعبد المطلب بن هاشم . ورَغِبَ أبرهة في أن يجتمع بعبد المطلب سيد مكة . فلما دخل عبد المطلب على أبرهةَ أكرمه أبرهة ثم سأله حاجةً له يقضيها . فقال له عبد المطلب : رُدَّ عليّ الإبل التي نهبها جندك .

استغرب أبرهة ذلك وقال لعبد المطلب : آتي أنا لأهدمَ الكعبة التي هي بيت دينك ودين آبائك ثم لا تزيد أنت على أن تسألني أن أرد عليك مائتين من الابل نهبها جنودي . فقال له عبد المطلب : « أنا ربّ (صاحب) هذه الابل ، فأنا أطالب بها . أما البيت فان له ربّاً سيحميه » .

٢ ـ لما أمر أبرهة بمهاجمة مكة أصيب جنده بمرض قضى على الكثرة منهم وخابت الحملة الحبشية على مكة . تلك الحادثة يشار اليها في سورة الفيل (رقم ١٠٥) : « ألم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل * ألمْ يجعلْ كيدَهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل (أسرابا) * ترميهم بحِجارة من سِجّيل ، (طين مطبوخ اومتحجّر)؟* فجعلهم كعَصْفٍ (الغلاف الذي يحيط بحبةً القمح وما يشبهها) مأكول . (متساقط من افواه الدوابّ ، كنايةً عن انه مبتلٌ ومقطّع حتى خسر شكله الأول ») ! *

ويذكر الطبري (٢ : ١٣٩) أن أول ما رُؤيَتِ الحَصْبةُ والجُدَريّ بأرض العرب ذلك العام .

٣ ـ مات أبو رِغالٍ في أثناء الطريق فجعلت العرب ترْجُم قبرَه (ترميه بالحجارة) .

مولد محمّد بن عبدالله

في هذا العام ، عام الفيل (٥٣ ق . هـ . = ٥٧٠ م) وُلد محمّد بن عبدالله رسولُ الله . وفي ذلك العام نفسه عاد النزاع بين الفرس والروم : يتدخّل يوستينوس الثاني في أرمينية الفارسية فيرد عليه كِسرى أنوشروان في العام التالي بالتدخّل في اليمن [١] . وفي العام الذي يلي (٥٧٢ م) تَنْشَبُ الحرب بين الفرس والروم ثم لا تَقِفُ حتى يُقضى على الامبرطورية الفارسية وفارس وعلى الامبرطورية الرومية بالفتح الاسلامي .

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ١٩٥ وما بعدها .

ويبدو أن بلاد فارس أُصيبت في عام ٥٧٠ م بزلزال فانشقّ الإيوان وسقط عدد من شُرُفاته كما انشقّت أرض ساوة وغاض (غار) الماء في بحيرتها [١] .

الفجار بين قريش وهوازن [٢]

كان العرب لا يتقاتلون في الاشهر الحرم، ولكنّ عدداً من أيام العرب قد وقع فعلاً في الاشهر الحرم فسمّيَ « أيام الفِجار » . وأيام الفِجار عديدة ؛ ويوم الفجار هذا هو الذي وقع بين قريش كلّها وبين هَوازِن عام ٥٨٥ م .

كان البرّاض بن قيسٍ الكِناني رجلاً فاتكاً (كثير الاعتداء على الناس قتّالا) وكان سِكّيراً فاسقاً فخلعه قومه فدخل في جِوار حرب بن أميّة (والد أبي سفيان) في مكّة .

وكان البرّاض وعروة الرحّال يوماً عند النعمان بن المنذر . وكان عند النعمان يومذاك لَطيمة (قافلة فيها طِيب وحرير) يريد من يُجيزها له على بني كِنانة (يقودها في بلاد بني كنانة من غير أن يتعرّض لها بنو كنانة) . قال البرّاض : أنا أجيزها على بني كنانة . فقال عروة : أنا أجيزها على جميع القبائل . فدفعها النعمان الى عروة . غضب البرّاض وتتبّع عروة حتى أدركه في أوارة من أرض بني تميم فقتله ثم جاء باللطيمة الى خيبر فباعها .

كان شهر ذي الحجّة قد دخل وقامت سوق عُكاظ . وكانت العرب اذا قدمت إلى سوق عكاظ دفعت أسلحتها الى عبدالله بن جُدْعانٍ حتى يَفْرُغوا من حجّهم وسُوقهم .

ووصل خبر البرّاض الى حرب بن أمية فجاء حرب الى ابن جُدعان ورغب اليه في أن يحبس عنده سلاح بني هَوازن (خوفاً على البرّاض أن يقتله بـــنو

---

(١) راجع الطبري ٢ : ١٦٦ ؛ بيامبر ، از تصنيف زين‌العابدين راهنما ، دمشق ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م جلد أول ، صفحة ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢) العقد ٦ : ٨٩ - ٩١ ؛ مروج الذهب ٢ : ٢٧٨ ؛ ابن الاثير ١ : ٢٤٦ - ٢٤٨ ؛ نهاية الارب ١٥ : ٤٢٥ - ٤٣٧ . الاشهر الحرم أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم (الأشهر الحادي عشر والثاني عشر والاول من السنة القمرية) ثم رجب (الشهر السابع) .

هوازن) . ولكن ابن جدعان عدّ فعل البرّاض غدراً فنادى في الناس : من كان له عندي سلاح فَلْيَأتِ ولْيَأخُذْهُ !

تفاقم الأمر بين قريش وهوازن ، وخافت قريش العاقبة فعادت الى مكّة . ولكن بني هوازن ساروا بقيادة عامر بن مُلاعب الأسِنّة حتى أدركوا قريشاً عند نَخْلة (على مسير ليلة من مكّة) فاقتتلوا . غير أن قريشاً استطاعوا أن يصلوا الى الأرض الحرام من مكّة فتهادن الفريقان من غير أن يصطلحا .

في هذا اليوم كان محمد بن عبدالله رسول الله مع قريش ، وكان في الرابعةَ عَشْرَةَ من عمره فكان يناول أعمامه النِبال .

يوم شَمْظة وما بعده [1]

وبعد عامٍ واحد ، وفي موسم عُكاظ أيضاً من شهر ذي الحِجّة ، عــاد الفريقان الى القتال :

اجتمعت كِنانة بأسرها (قريش وعبد مَناة) ومعهم الاحابيش[2] وجماعات من بني أسد بن خُزيمة . وكان يقودهم كلّهم حرب بن أميّة ، وكان على الميمنة عبدالله بن جُدعان وعلى الميسرة هِشام بن المُغيرة . وكذلك تجمّعت قبائل هَوازن وسُليم وأحلافهما بقيادة مسعود بن مُعَتّب الثَقفي . وقد انتصرت هوازن على كنانة (٥٨٦ م) .

ثم التقى الفريقان في العبلاء قرب عكاظ (٥٨٧ م) ثم في يوم عكاظ ٥٨٨ م) ثم في الحريرة قرب نخلة (٥٨٩ م) . وجميع هذه الأيام كانت في شهر ذي الحِجّة ولذلك سُمّيت أيام الفجار ، وفي جميع هذه الايام انتصرت هَوازن على كِنانة الا في يوم عُكاظ فقد انتصرت هوازن ثم صبر بنو كِنانة فانتصروا وقتلوا من هوازن مقتلة عظيمة .

---

(١) العقد ٦ : ٩٢ — ٩٤ ؛ ابن الاثير ١ : ٢٤٧ — ٢٤٨ ؛ نهاية الارب ١٥ : ٤٢٧ — ٤٣٠ .
(٢) راجع فوق ، ص ١١٣ .

بعد هذه الأيام الخمسة التي كان فيها معاركُ وزُحوفٌ طال القتال ، ولكن كان الرجل من هؤلاء يَلْقى الرجل من أولئك فيقتتلان ؛ وقد يلتقي النفرُ بالنفر فيقتتلون . ولما تطاول ذلك على الفريقين تداعيا الى الصلح واصطلحا . وانتهت قصّة البرّاض .

في حرب داحس والغبراء

كره بنو عبس الحرب فاجتمعوا وجمعوا مائة عَشْراءَ (ناقةً في بطنها ولد وأرسلوها الى حذيفة دِيَةَ ابنهِ ؛ وقيل ان الربيع بن زياد العبسي احتمل الدِيَةَ وحدَه .

ثم ان مالك بن قيس بن زهير العبسي نزل باللُقاطة من أرض الشَرَبَّة فعلم حُذيفة بن بدر بمكانه فعدا عليه فقتله . فأرسل بنو عبس الى حذيفة يقولون: قتلنا ابنك مالكاً وقتلت ابننا مالكاً، فردّ علينا الدية التي كنا قد دفعناها. فلم يردّ عليهم حذيفة شيئاً .

عندئذ اجتمع بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبدالله بن غَطَفان بقيادة الربيع بن زياد العبسي وساروا الى أرض الشّرَبّة فلَقُوا بني فَزارة وحلفاءهم بني ذبيان بقيادة حذيفة بن بدر فاقتتلوا بذي المُرَيْقبِ من أرض الشّرَبّة فانتصر بنو عبس. وفي هذه المعركة قتل ضَمْضَمٌ المُريّ ، قتله عنترة .

ثم ان بني فَزارة وبني مرّة بن عَوف بن سعد ابني ذبيان ساروا مع أحلافهم الى ذي حُسىً (وهو وادي الصفا) من أرض الشربّة فأدركوا بني عبس . وكره بنو عبس القتال فقبلوا بأن يُعطوا بني ذبيان عدداً من شبانهم ليكونوا رهائن في أيدي بني ذبيان . غير أن حذيفة بن بدر غدر بالعهد وقتل الرهائن في اليَعْمُرية (وهي وادٍ من بطن نَخْلة في أرض الشربّة) ، في حديث طويل . عندئذ أغار بنو عبس على بني ذبيان في حَرّة اليعمرية وقتلوا منهم اثني عشر شخصاً فيهم هَرِمُ بن ضَمْضم . وبعد فترة وجيزة أغار بنو عبس على بلاد غطفان وقتلوا نفراً منهم في جَفر الهَباءة . وكان في القتلى حذيفة بن بدر نفسه .

ويبدو لنا أن هذه المعاركَ لم تكن بعيدة من زمن ظهور الاسلام . ان عنترة قد اشترك في معركة ذي قار (٦١٠ م) ثم توفي سنة ٨ قبل الهجرة (٦١٤م) . وكان عنترة قد نظم معلقته بعد أن قتل ضَمْضماً المرّيّ يوم المُرَيْقب ، وقبل أن يُقْتَلَ هَرِمُ بن ضمضم في حرّة اليعمرية . وشاهد ذلك أننا نجد عنترة يقول في معلّقته :

ولقد خَشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ للحرب دائرةُ على ابْنَيْ ضمضمِ :
الشاتِميْ عِرْضي ولم أشْتُمْهُما والناذرَيْنِ اذا لَقِيتُهما دمي .
ان يفعلا فلقد تركتُ أباهما جَزَرَ السباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم !

غير أن زهير بن أبي سُلمى الذي توفي سنة ١٤ ق . هـ . (٦٠٩ م) قبل عنترةَ بنحو ستّ سنوات نظم معلّقته بعد أن نظم عنترة معلّقته ، لأن زهيراً يذكر مقتل هَرِمِ بن ضمضم في الابيات التي أولها :

لَعَمْري لَنِعْمَ الحيّ جرّ عليهمُ بما لا يؤاتيهم حُصينُ بن ضمضم .

من ذلك يبدو أن الأيام الأساسية في حرب داحس والغبراء يجب أن تكون بين عام ٥٨٠ وعام ٥٩٠ للميلاد .

حِلف الفُضول [١]

كان نفر من بني جُرهم قد اجتمعوا في الجاهلية القديمة وتحالفوا على ألاّ يُقِرّوا ببطن مكة ظالماً (ألا يسكتوا عنه) لأن الله عظّم مكة فلا يجوز أن يَظْلِمُ الاقوياءُ فيها الضعفاء . ثم تُنُوسيَ ذلك .

وفي أيام أبي طالب جاء الى مكة رجل من زَبيد (اليمن) ومعه سِلْعة فاشتراها منه العاص بن وائلٍ السَهْمي ثم مطله الثمن . فرفع الرجل صوته بالاحتجاج فقام الزُبير بن عبد المطلب يدعو الى إحياء الحلف القديم . اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العُزّى وبنو زُهرة بن كِلاب

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٦–٢٧٧ ؛ ابن الاثير ٢ : ١٥ – ١٦ .

وبنو تَيْم بن مُرّة في دار عبد الله بن جُدعان لتقدمه في السن والشرف والجاه ثم تعاقدوا على ألا يجدوا في مكّة مظلوماً من أهلها أو من غير أهلها الا نصروه وأعانوه على الذي ظلمه الى أن تردّ عليه حقوقه .

وقد سَمّتْ قريشٌ هذا الحلف حلفَ الفُضول لأنهم تحالفوا على ألا يتركوا عند أحد فضلاً يَظْلِمه أحداً (ألاّ يتركون بقيّة حق لمظلوم عند ظالمه) ألا أخذوه له منه (قا ٤ : ٣١) .

وعُقِد حلف الفضول بعد حروب الفجار بين كنانة وقريش ، وشهد محمّد رسول الله (قبل أن يُبْعَثَ) عقدَ هذا الحلف ، في عام ٥٩٠ م في الاغلب .

أيام الفجار بين الأوس والخزرج [١]

كان بين الاوس والخزرج بعد يوم سُمير (ص١٢٣) أيام كثيرة ، غير أنها كانت تافهةَ الأسباب قليلة القتلى ضئيلة الأثر . من تلك الأيام يوم بَقيع الغَرْقَد ظَفِرَ فيه الاوس ، ولكن سقط منهم ثلاثة قتلى أكثر مما سقط من الخزرج . ولم يكن لدى الخزرج مال حاضر ليدفعوا منه الديَات فدفعوا الى الاوس ثلاثة من غِلمانهم يكونون رهينةً في يد الأوس حتى تُدفع الديَاتُ . فقتل الاوس الغلمان الثلاثة غدراً فَنَشِبَتْ بين الفريقين حرب يقال لها الفِجار لأن الأوس غدروا وقتلوا الغلمان . وليس لحرب الفِجار هذه صلةٌ بأيام الفِجار التي كانت بين كِنانة وهوازن .

سار الخزرج بقيادة عبدالله بن أبي سَلول فالْتَقَوْا بالأوس ، وكان الأوس بقيادة أبي قيس بن الأسلت ، في حدائقِ يثرب ثم اشتدّ القتال بين الفريقين حتى كاد أن يُفْنِيَ بعضُهم بعضاً ، ولكنّ الظفر كان للخزرج (نحو ٥٩٠ م) .

ثم وقعت بين الاوس والخزرج أيام اشتدّ فيها القتـال احتمى الخزرج في أثنائها وراء جِدار لهم [٢] يدعى مضرّس ، واحتمى الاوس وراء جدار لهم يقال

(١) ابن الاثير ١ : ٢٨٣ ، ٢٨٤ – ٣٨٦ .

(٢) الجدار (جمعه جدر بضم فضم) : باحة يبنى حولها حائط ، سور .

له معبّس . ثم انهزمت الاوس حتى دخلت البيوت والآطام[1] . وكانت هزيمتهم هذه قبيحة لم ينهزموا مثلها قط حتى فكّروا في الجلاء عن يثرب .

وحاول الاوس أن يحالفوا أهل مكّة على الخزرج فلم يتِم لهم ذلك ، لأن أبا جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي خاف منافسة الأوس وتغلّبهم .

الفجار الثاني بين الأوس والخزرج [2]

طلب الأوس من بني قُريظة وبني النَضير (من اليهود) ان يُحالفوهم على الخزرج . وسأل الخزرجُ اليهودَ عن ذلك فأنكره اليهود . فقال الخزرج : أعطونا رهناً على انكم لا تحالفون الاوس . فدفع اليهود اربعين غلاماً الى الخزرج رهناً . ثم ان اليهود حالفوا الاوس على الخزرج ، فقتل الخزرج الغلمان اليهود . فجرى بين الخزرج وبين الاوس واليهود قتال .

يوم بعاث [3]

كان يوم بُعاثٍ آخرَ أيامِ الاوس والخزرج قبل الاسلام .

جدّد بنو قُريظة وبنو النضير تحالفهم مع الاوس ثم ضمّوا اليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدّوا للحرب . وخَشِيَ الخزرج أن تنزل بهم هزيمة فراسلوا حلفاءَهم من بني أشجعَ وبني جُهينة ، فراسل الاوس حلفاءهم من بني مزينة .

ونَشِبَتِ الحرب بين الفريقين عند حصن لبني قريظة — وكان قائد الاوس حُضير الكتائب بن سمّاك ، وقائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضيّ — فانهزم الأوس في أول اليوم. ولمّا قُتل عمرو بن النعمان قائد الخزرج انهزم الخزرج فمال عليهم الأوس يقتلونهم. ثم أحرق الأوس منازل الخزرج ونخيلهم بعد أن كان اليهود قد نهبوا أموالهم . وكذلك قُتل حُضير الكتائب في يوم بعاث .

* * *

---

(١) الآطام جمع أطم (بالضم) : قصر ، حصن مبني بحجارة ، بيت مربع مسطح .

(٢) ابن الاثير ١ : ٢٨٦ .

(٣) ابن الاثير ١ : ٢٨٦–٢٨٨ .

إنّ أيام الاوس والخزرج تُعلّلُ لنا اتّجاهاتٍ مهمّةً في تاريخ العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام .

ـ كان الاوس أقوى من الخزرج اقتصادياً وسياسياً ، وكانوا في سبيل الاحتفاظ بهذه القوّة يحالفون اليهود على قومهم العرب من الخزرج .

ـ كان موقف الاوسِ هذا من الاسباب التي جعلت الخزرجُ يُسرعون في الدخول في الاسلام ثم يَدْعون الرسولَ الى الهجرة الى يثرب انتصاراً على الأوس ، أو رَغبةً في أن يَحِلّ السلام بين الأوس والخزرج ، وانتقاماً من اليهود .

ـ ان موقف الرسول من اليهود كان جزاءً وِفاقاً لموقف اليهود من العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام : كان اليهود يحالفون العرب ثم يَغدُرون بهم ، كما كانوا يُثيرون النزاع بين الاوس والخزرج . ان تنازع القبائل العربية القوية هو الذي كان يتيح للأقلّية اليهودية أن تجنيَ المغانمَ الاقتصادية والقوة السياسية من الأكثرية القوية المتنازعة .

ـ ان محالفة اليهود للأوس كانت مساعدات اقتصاديةً ظاهرةَ (تُحصّل فيما بعد أضعافاً مضاعفة) أكثرَ منها مناصرةً في ميادين القتال .

صلح داحس والغبراء

كثرت الايام بين الفريقين وبدأ العقلاء منهما جميعاً يسأمون هذه الحرب . فأخذ حرْملة بن الاشعر بن صِرمة يسعى في الصلح . ثم مات فقام بالسعي بعده ابنه هاشم ؛ واجتمع بنو عبس وبنو ذبيان للمفاوضة عند جبل قَطَن في ديار بني أسد .

في أثناء ذلك لَقِيَ الحُصين بن ضمضم رجلاً من بني مخزوم بن مالك اسمه تيحان أو تيّحان (؟) فقتله ثأراً لأبيه ضمضم . فأبى بنو عبس وأحلافهم بنو عبدالله بن غطفان أن يعقدوا الصلح وقالوا لخصومهم : غدرتم بنا غير مرّة ! ثم

تصافّوا للقتال عند قطن . فجاء خارجة بن سِنان بمائة بعير ودفعها الى أبي تيحان فاصطلح القوم غيرَ بني ثَعلبةَ بن سعد بن ذبيان فإنهم أصرّوا على أن يأخذوا دِيَاتِ قَتْلاهم أو تُهْدَرَ دماءٌ من خصومهم . ثم خرجوا من قَطن الى غدير قَلَهى [1] فسبقهم اليه بنو عبس وتصافّ الفريقان للقتال ولكن أصلح بينهما عَوفٌ ومَعْقِلٌ ابنا سُبيع بن ثعلبة .

ولعلّ ذلك كلّه كان في السنوات الأولى من القرن السابع للميلاد (قبل ظهور الاسلام ببضع سنوات) .

وفي انتهاء حرب داحس والغبراء رواية ثانية :

قيل انالحارث بن عَوْف المُرّيّ خطب بَيْهسة بنت أوس بن الحارث العبسي ، وكان الحارث سيداً في قومه ؛ وكان أوس معروفاً بالعزة . ولقد كان من امر بَيْهسة انها أبت ان يَبْنِيَ بها الحارث قبل ان يَمْشِيَ بالصلح بين القوم . فمشى الحارث بالصلح وساعده في ذلك رجل آخر هو هَرِمُ بن سِنان المرّي .

واحتسب الفريقان قَتْلاهما (أخرجوا قَتْلى بعضِهم من قتلى بعض) فكان الفرق نحو عشرين رجلاً دِيَاتُهم ألفا جمل . فاحتمل الحارث بن عَوْف وهَرِم ابن سِنانٍ تلك الديات من مالهما ثم وَفَّوْها في ثلاث سنوات .

ولقد خلّد زهير بن أبي سُلمى في معلّقته فعل الحارثِ وهَرِمٍ . فكانت معلّقة زهير ، من أجل ذلك ، أولَ دعوة في التاريخ الى حلّ المشاكل بغير الحرب ، إذ عَدّ زهيرٌ كلَّ خسارة ماديّة أهونَ خطراً من النزاع بين قبيلتين من عشيرة واحدة وأخفّ رُزءاً من سقوط قتلى من الناس .

(١) قلهى (بالفتح أو بفتح ففتح) : موضع قرب المدينة (؟) - (قا ٤ : ٢٩٠) .

يَوم ذِي قار

يومُ ذي قار [1] وقعةٌ جرت بين العرب والفرس في بَطحاء ذي قار ، على مَقْرُبَةٍ من البصرة ، في العام الذي بُعِثَ فيه رسولُ الله . سَنَةً ١٣ ق . هـ . (عام ٦١٠ م) .

١ – أسبابه البعيدة الحقيقية :

كان الفرسُ قد وَلَّوُا المناذرة على الحيرة ليكونوا لهم أعواناً على القبائل العربية وعيوناً على رؤساء العرب وعلى الروم والغساسنة ايضاً . ولم يكن الفرس يثقون بالمناذرة فجعلوا عليهم رقيباً من أُسرة آرامية ربّاها الفرس في بلاطهم . هـذه الاسرة هي أُسرة زيد بن حمّار [2] وقد كان زيد في بلاط كسرى ، وفي بلاط كسرى ايضاً نشأ ابنه عَديّ وابنه أُبَيّ .

كان زيد بن حَمّار يلي لكسرى أنو شروانَ بعضَ اقسام البريد (نقل الأخبار) وكان ابنُه (عَديّ بن زيدٍ الشاعرُ الجاهلي) كاتباً في ديوان كسرى . عَرَفَ عديّ اللغةَ الفارسية واللغة العربية (وربما الرومية أيضاً) فكان كسرى يأتمنه على أشياءَ كثيرةٍ ويستخدمه في بعض أغراضه ، فقد بعثه رسولاً الى طيباريوس الثاني ملك الروم (٥٧٨ – ٥٨٢ م) . ثم جُعِـلَ عديّ كاتباً في بلاط الحيرة

---

(١) الطبري ٢:١٩٣–٢١٢ ؛ نهاية الارب ١٥:٤٣١–٤٣٤ ؛ العقد ٦:٩٦–١٠٢ ؛ ابن الاثير ١:١٩٦ – ٢٠٠ ؛ الاغاني ٢٠ : ١٣٢وما بعدها .

(٢) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٣٤٩ .

(الاّ انهجُعِلَ في الحقيقة عيناً لكسرى على المناذرة أنفسهم)، وقد كان الحُكم الفعلي في الحيرة لعديّ بن زيد لا للمناذرة . ادرك النعمان (الثالث) بن المنذر ابو قابوس ان أعمال عدي بن زيد هي في مصلحة الفرس اكثر مما هي في مصلحة العرب ، بل اكثر مما هي في مصلحة المناذرة انفسهم ، فاضْطَغَنَ عليه ذلك وحبسه .

وكتب عديّ بن زيد الى أخيه أُبيّ بما جرى له ، فكلّم أُبيٌّ كسرى بن ابرويز الثاني بن هرمز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) في ذلك ، فأرسل كسرى الى النعمان يَطلب اليه ان يطْلق سراح عديّ . وعَرف النعمان بذلك كله قبل ان يصل رسول كسرى فأمر بخنق عديّ في سجنه نحو سنة ١٩ ق . ه . (٦٠٤ م) .

غضب كسرى لمقتل عديّ ، ثم عين زيد بن عدي (ابن المقتول) كاتباً مكان أبيه في بلاط الحيرة ، قيل باقتراح من النعمان . ثم إن كسرى كتب الى النعمان يدعوه الى زيارة فارس .

فالسبب الحقيقي اذن ليوم ذي قار أن الفرس بدأوا يشكّون بولاء النعمان لهم ، وبذلك يمكن ان يخرج قسم من العرب من قبضتهم فيتقلّص نفوذهم عن جانب من بلاد العرب ، فأراد الفرس ان يعملوا عملاً يحولون به دون تقلّص نفوذهم عن العرب .

٢ — السبب الظاهر المفْتَعل :

لم يكن زيد بن عديّ محبّاً للنعمان ، ثم انه كان يَعُدّ نفسَه تابعاً لكسرى ينفّذ سياسة الفرس في بَلاط الحيرة وفي بلاد العرب . ويبدو أن زيداً اقترح على كسرى ، في إحدى رَوْحاته الى فارس ، أن يختبر ولاء النعمان بأن يطلب منه نساء من بني المنذر ليتزوّج بهن رجالٌ من أهل بيته . وكان كسرى يعلم أن العرب يكرهون أن يُصْهِروا الى غير العرب .

اعتذر النعمان بأنْ لا نساء في آل المنذر يُشْبِهْن اللواتي رغب فيهن كسرى

ثم قال لزيد وللرسول الفارسي الذي جاء معه : أما في عِين السّواد وفارس [1] ما تَبْلغون به حاجتكم ؟ وتقول الرِواية ُ إن الرسول الفارسي سأل زيداً عن معنى « عِين » فقال له زيد (بالفارسية طبعاً) إن معناها « البقر » . ثم ان زيداً والرسول نقلا الحديث الى كسرى على هذه الصورة فغضب كسرى . وبعد بضعة أشهر كتب كسرى الى النعمان يدعوه الى زيارة فارس .

٣ – هرب النعمان الى البادية :

أدرك النعمان أن كسرى يريد به شرّاً فترَدّد في القِيام بهذه الزيارة . ثم خطر له أن يترك الحيرة ويلجأ ال جَبَلَيْ طَيِّء (أجأ وسَلمى) لأنّ ذلك المكان منيع ولأنه هو كان متزّوجاً في بني طيء . ولكنّ أصْهاره من بني طيّء لم يقبلوا بلجوئه الى بلادهم خوفاً من كسرى ، ولا قَبِلَهُ أحد من العرب في تلك المِنْطقة.

وبلغ المَطاف بالنعمان الى هانىء بن مسعود بن عمرو الشَيْباني ، وكان سيداً [2] شريفاً منيعاً ، وكان كسرى قد أطْعَمَهُ الأُبُلَّة [3] . ومع أنّ هانئ بن مسعود قد عزم على أن يَحْمِيَ النعمان ، فان النعمان أدرك أن كسرى قادر على أن يَطاله في كلّ مكان ، فقرّر أن يذهب الى كسرى راضياً لعلّه يَمْحو بذلك شيئاً مما كان قد علِق بنفس كسرى منه .

٤ – زيارة النعمان لفارس ومقتله :

وضع النعمان أمواله ودروعه عند هانىء بن مسعود ثم سار الى فارس . وتقول الرواية إن زيد بن عديّ لَقِي النعمان في الطريق وكشف له عن المكيدة التي دبرها

---

(١) السواد : الاراضي المزدرعة في العراق ، وهي مساكن الآراميين ، في مقابل البادية التي هي منازل العرب . والعين جمع عيناء : بقر الوحش ، وهي نوع من الظباء . والعيناء ايضاً المرأة اذا كانت سوداء العينين واسعتهما .

(٢) في الطبري (٢ : ٢٠٦) : قال بعضهم : « لم يدرك هانىء بن مسعود هذا الأمر ، انما هو هانىء بن قبيصة (بضم القاف) بن هانىء بن مسعود . وهو الثبت عندي » .

(٣) الابلة : منطقة البصرة ، وهي منطقة خصبة غنية بالحاصلات وبالتجارة . أطعمه الأبلة : جعلها طعمة له (بضم الطاء : يأخذ نتاجها من غير أن يدفع شيئاً إلى كسرى) .

له عند كسرى انتقاماً منه ؛ كما تقول الرواية أيضاً إن النعمان هدّد زيداً بالقتل ان هو سَلِم من زيارته لفارس .

ولمّا وصل النعمان الى فارس طرحه كسرى بين أرْجُلِ الفيَلَةِ فمات ؛ وقيل بل حبسه فمات في الحبس .

٥ ــ طلائع المعركة :

لما مات النعمان أبو قابوسَ استعمل كسرى على الحيرة إياسَ بن قَبِيْصَةَ الطائي (لأن طيئاً كانت قد أبَتْ أن تُجيرَ النعمان من كسرى) ، ثم أمرَهُ أن يطلبَ أموال النعمان وسلاحه من هانىء بن مسعود . ورفض هانىء أن يُسَلّمَ أموال النعمان وسلاحه فغضب كسرى وعزم على مهاجمة العرب .

في ذلك الحين كان النعمان بن زُرْعة التَغْلَبيّ عند كسرى ، وكان النعمان بن زرعة ، كقومه بني تَغْلِبَ ، يكره بني بكرٍ خصومَ تَغْلِبَ منذ أيام البَسوس ، كما كان من الذين كان كسرى قد استأجرهم للاستعانة بهم على قومهِمُ العربِ . قال النعمان بن زْرعة التغلبي لكسرى : ان بني شيبان وجيرانهم مُوغلون الآن في البادية ، لأن الزمن زمنُ الربيع . فاترُكْهم حتى يَقيظوا (حتى يأتيَ عليهمُ الحرّ الشديد) فيجيئوا الى ذي قار فيكونوا قريبين منك ويَسْهُلَ عليك قتالهم .

٦ ــ المفاوضة بين الفرس والعرب :

لمّا اشتدّ الصيف وجاءت القبائل الى حِنْو ذي قار (على مسيرة ليلة من ماء ذي قار) بعث كسرى بالنعمان بن زرعة الى هانىء بن مسعود يَعْرِضُ عليه أن يختار واحدةً من ثلاث : إمّا أن يُسَلّمَ الأموال والاسلحة التي كانت للنعمان أبي قابوسَ ، وإمّا أن يرتّحل بقومه عن ذي قار ، وإمّا أن يستعدّ للحرب .

٧ ــ في ذلك الحين كان أمر الفرس قد رقّ وضَعُفَ ، وكانت الحرب قد نَشِبَتْ بين الفرس والروم في ذلك الحين نفسهِ عام (٦١٠ م) ، بمجيء هِرَقْل الى عرش القسطنطينية .

وعلى الرُغْم من ذلك فإنّ رأي العرب كان منقسماً في أمر الحرب : رأى هانىء بن مسعود أن يسلّم الأموال والسلاح الى كسرى لأن قبيلته لا قُدْرَةَ لها على قتال الفرس .

قال الطبري (٢ : ٢٠٧) عن العرب :

فتَوَامَروا (تشاوروا) فوَلَّوْا أمرَهم حَنْظَلَةَ بْنَ ثَعْلَبَةَ بن سَيّارٍ العِجْلِيّ – وكانوا يَتَيَمَّنُونَ به (يتفاءلون برأيه وبغزواته) ، فقال لهم : لا أرى إلاّ القتالَ ؛ لأنكم إن أعطيتم بأيديكم (استسلمتم) قُتِلتُم وسُبِيَت ذَراريكم ، وان هربتم قَتَلَكُمُ العطشُ وتَلَقّاكم تميمٌ فتُهلِكُكُمْ . فآذِنوا الملكَ بحربٍ .

ولمّا نزل الليلُ انسلّ قيس بن مسعود من صفوف الفرس وجاء الى هانىء وقال له : « أعْطِ قومَك سلاحَ النعمان فيَقْوُوا ؛ فان هَلَكوا كان تبَعاً لأنفسِهم (هلك السلاح بهلاكهم وضاع) ، وان ظَفِروا ردّوه عليك » . فقسم هانىء الدروع والسلاح في ذوي القُوة والجَلَد من قومه .

ثم عاد هانىء الى التردّد ، وكان كثيرون من الناس يتَهَيّبون هذه الحربَ . فلمّا قال هانىء : « يا معشرَ بَكْرٍ ، إنه لا طاقةَ لكم بجنود كسرى ومَنْ معَهم من العرب ، فارْكبوا الفَلاةَ » ، تسارع الناس الى الهرب . فوثب حنظلة فقال لهانىء : إنما أردت نجاتَنا فلم تَزِدْ على أن ألْقَيْتنا في الهَلَكة ؛ ثم ردّ الناس وقطع وُضُنَ الهوادج (أحزِمة الابل) لئلاّ يستطيعَ بنو بكر أن يسوقوا نساءهم اذا هربوا ، فسُمّيَ « مُقَطِّعَ الوضن » . بعدئذٍ نصب خيمةً في بطحاءِ ذي قار وجلس عندها وقال : « أما أنا فلن أفِرَّ حتى تَفِرَّ هذه الخيمة ؟ »

كانت جماعات من العرب قد مَضَوا ، ولكنّ أكثر الناس عادوا فاستقَوْا ماء لنصف شهر واستعدّوا للحرب .

كان أميرَ الحرب على العرب في ذلك اليوم حنظلةُ بنُ ثعلبةَ العِجليّ . وكان في الجانب العربي بنو شَيبان وقسم من بني بكر بن وائل فيهم بنو يَشْكُرَ ثم السَكون حلفاء بني شيبان . وقد كان في أيدي بني بكر نحو مائتَي أسير من بني تميم ، أكثرُهم من بني رِياح بن يَربوعٍ ، فقالوا لبني بكر : خلّوا عنا (أطلقوا سَراحنا) نقاتلْ معكم ، فانما نذبّ (ندفع) عن أنفسِنا ! فقال بنو بكر : انّا نخاف ألاّ تناصحونا . فقال الاسرى دعونا نعلم [1] حتّى ترَوْا مكانَنا وغَناءنا (حسن قتالنا وعَوْنَنَا لكم) .

وأما الجيش الفارسي فكان خمسة آلاف رجل ، العرب منهم ثلاثة آلاف يقودهم جميعاً إياس بن قَبيصة الطائي : كان مع الفرس من العرب بنو تَغْلِبَ وبنو النَمِر بن قاسط بقيادة النعمان بن زُرعة التغلبي ، وكان بنو إياد وبنو قُضاعة بقيادة خالد بن يزيد البَهْراني . وكان في الجيش الفارسي أيضاً الكتيبتان المعروفتان باسم الشهباء وباسم دَوْسر [2] .

٨ — الحرب :

ان العرب الذين اشتركوا في يوم ذي قار لم يكونوا كثيرين ، فكان الرأي — من أجل ذلك — ألاّ يُصافّوا الفرسَ فإن الفرس كانوا يرمون بالسِهامِ ، والسهامُ شديدة على العرب لكَثْرة الفرس ولكَثْرة ما يكون مَعهم عادةً من السلاح . لذلك مال العرب الى تعجيل اللقاء (البدء بالهجوم) .

كان بنو إياد مع الفرس فراسلوا بني بكر وقالوا لهم : سنَخْذُلُ الفرسَ في أثناء المعركة . فرتّب حنظلةُ المعركة بأن يكون رجال كل قبيلة من العرب قُبالةَ قسم من الجيش الفارسي ، وبأن يكون هناك كمين يدخل المعركة اذا تعب الفريقان. ويكون دخول الكمين في المعركة علامة لانهزام بني إياد .

---

(١) كذا في الروايات .

(٢) راجع فوق ، ص ٦٩ .

وقطع سبعمائة من بني شيبان أيديَ أقْبيتهم[١] من قرب المناكب كيلا تَثْقُلَ عليهم وهم يَضربون بالسيوف . وبدأتِ الحرب بمبارزات فردية ثم حدث اللقاء في حِنو ذي قار :

– حملت مَيْسَرَة بكر ، وعليها حنظلة ، على ميمنة الجيش الفارسي . وقد قُتِلَ الهامرز قائد ميمنة الفرس في أول اللقاء .

– حملت ميمنة بكر ، وعليها يزيد بن مُسْهِر ، على ميسرة الجيش الفارسي .

– ويذكر الطبري (٢ : ٢١٠) أن فريقاً من بني بكر (بن وائل) انهزموا لمّا بدأ اللقاء وخذلوا اخوانَهم العربَ .

– رأى بنو عِجْل هزيمة بني بكر فأقبلوا كأنهم طُنّ (حِزمة) قَصَبٍ : صفاً واحداً مرصوصاً فتضعضع الفرس .

– بدأت الهزيمة في الجيش الفارسي :

ثم خاف الفرس العطش فتراجعوا الى الجبايات فتبعهم بنو بكر وبنو عجل . وأبلى بنو عجل في ذلك اليوم بلاء حسناً وصبروا في القتال صبراً عجيباً . ودام القتال في الجبايات يوماً .

– وزاد العطش على الفرس فمالوا متّراجعين نحو بطحاء ذي قار .

– عندئذ خرج الكمين من جبّ ذي قار يقوده يزيد بن حمار وهاجم قلب الجيش الفارسي من الخلف (وكان على قلب الجيش الفارسي اياس بن قبيصة) .

– بنو إياد يخذلون الفرس وينهزمون ، كما كانوا قد وعدوا .

ثم وقعت الهزيمة العامة في الفرس فتعقّبهم العرب من بطحاء ذي قار حتى بلغوا الراحضة ، الى أدم (موضع قريب من ماء ذي قار) . وهنالك قتل جلابزين قائد الميسرة في الجيش الفارسي ، قتله حنظلة بن ثعلبة أيضاً .

---

(١) القباء : ثوب واسع يلبس فوق الثياب .

٩ – قيمة يوم ذي قار في تاريخ العرب :

لما بلغ رسولَ الله انتصارُ العرب على الفرس في يوم ذي قار (وذلك في أول عام من البعثة ، في الغالب) قال : « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبي نصروا » (الطبري ٢ : ١٩٣ ، ٢٠٧ . العقد ٦ : ٩٦) .

لا ريب في أن العرب اضطرّوا الى مقاتلة الفرس (ولم يختاروا هم ذلك) ؛ ولا ريب أيضاً في أن عدداً من العوامل قد ساعد على انتصار العرب (ولم يكن للعرب في ذلك يد) . ولكن لا بد من الملاحظة التالية :

– ان العرب قد جَرُؤوا لأول مرّة في تاريخهم على لقاء الفرس في معركة مفتوحة (لا في غارة) .

– ان العرب قد « حاربوا » لأول مرّة أمة غير أمتهم .

– كان في عدد من قبائل العرب شيء من الوعي جمعهم على هدف واحد . ومع أن عدداً من قبائل العرب أصرّ على الوقوف الى جانب الفرس (كتغلب مثلا) ، فان الاتّجاه العام كان نحو توحيد الجهود . وسنرى هذا التوحيد للجهود تاماً حينما يبدأ الاسلام بالانتشار بين القبائل .

– دلّت هذه المعركة على صحّة القيمة العصبية :

ان الامّة الفتية (التي لم تهرم بالترف) تستطيع (ولو كانت قليلة العدد والعُدّة) أن تتغلّب على أمّة كبيرة (كثيرة العدد والعدّة) اذا كانت تلك الأمّة قد ضعفت عصبيتها بالمنافسة وبالترف .

آخر أيام الجاهلية

بعد ظهور الاسلام

صدع رسولُ الله محمّدُ بن عبدالله في مكّة بالدعوة في عام ٦١٠ للميلاد . وبما أن الاسلام لم يكن له عصبيةٌ قوية في أول الأمر ، فقد ظل تاريخ الدعوة الاسلامية قاصراً على مكّة ولم يؤثّر في مجرى التاريخ خارجَ مكةَ الا بعد أن هاجر الرسول والمسلمون الى يثْرب . بعد ثلاثة عشر عاماً .

وفي ذلك العام نفسه ، ٦١٠ ، عادت الحرب بين الفرس والروم من جديد . ولكن الامبرطورية الفارسية والامبراطورية الرومية كانتا قد تمزّقتا بالمنازعات الداخلية والحرب المستمرة بينهما منذ زمن بعيد .

وكذلك كان العربُ ماضين في منازعاتهم القبلية .

يوم الصفقة [1]

في نحو عام ٦١٣ م [2] أرسل باذان نائب كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) على اليمن قافلة الى كسرى . فلمّا وصلت القافلة إلى نِطاع أغار عليها بنو تميم فغنموها .

---

(١) يكرر ابن الاثير ذكر هذا اليوم بعنوان « قتل تميم بالمشقر » (١ : ١٩٠) وبعنوان يوم الصفقة (١ : ٢٦٠) . على أنه ينسب الرواتين الى زمنين مختلفين ولكن متقاربين .

(٢) وكان يوم الصفقة وقد بعث النبي عليه السلام ، وهو بعد بمكة لم يهاجر (ابن الاثير ١ : ٢٦٠).

ثم ان كسرى دعا هَوْذة بن عليّ الحَنَفي الى فارس وأكرمه ثم سأله عن أنجع الطرق التي يستطيع أن يتغلّب بها على بني تميم . فقال له هوذة : « ان أساوِرَتَك (فُرسانَك) لا يُطيقون باديةَ بني تميم . فاحْبِس المِيرةَ عنهم عاماً ثم ادْعُهم الى سوقٍ تُباع فيها الميرة ، فاذا جاءوا فَلْيُهاجِمْهُمُ الجيشُ الفارسي ».

أرسل كسرى مع هوذة جيشاً بقيادة المكعبر [1] فنزل المكعبر بمن معه حصن المُشَقَّر في هَجَر (البحرين) ثم بعث من نادى في القبائل: إن كسرى قد أرسل ميرة كثيرة ، فمن أراد أن يَمتارَ فَلْيَأتِ الى حصن المشقر . فجاءت جموع كثيرة من العرب ، ومن بني سعد بن تميم خاصّة . فلمّا اجتمع الناس جعل أعوان المكعبر وأعوان هوذة يُدخلونهم واحداً واحداً ، أو خمسةً خمسة ، أو عشرة عشرة ؛ فاذا وصلوا الى المكعبر وهوذة ضُربت أعناقُهم . وكان هوذة يشير الى الرجل بعد الرجل فيقول : « هذا من أصحابي » ؛ فيعفو المكعبر عنه .

ثم فَطِنَ العرب لما يجري في داخل الحصن فثاروا واقتحموا الحصن .

يوم الكُلاب الثاني[2]

خاف بنو تميم ، بعدَ يوم الصَفقة . أن تَطْمَعَ بِهِمُ القبائلُ في منازلهم فارتحلوا حتى نزلوا بالكُلاب : نزل بنو الرِباب وبنو سعد بأعلى الوادي ، ونزل بنو حَنْظَلة بأسفله ، وذلك في أول القيظ (اشتداد الحر) . وقد أمِنوا أن يَغزُوَهم أحدٌ في ذلك المكان في ذلك الفصل ودونَهم باديةٌ واسعة .

فلما انكسر الحرّ سارت اليهم قبائلُ من مَذْحِج ومن أحلافهم بني قُضاعة وفيهم اربعة رؤساء : يزيد بن عبد المَدان ، ويزيد بن المخرّم ويزيد بن اليَكْسُم ويزيد بن هَوبر ، ومعهم عبد يَغوثَ بن صلاءة الحارثي الشاعر . وكان عددُهم

(١) قال ابن الاثير (١ : ٢٦٠) : « فأمر (كسرى لهوذة) بمال كثير وتوجه بتاج من تيجانه وأقطعه أموالا بهجر ، وكان هوذة نصرانياً ، وأمره كسرى أن يغزو هو والمكعبر مع عساكر كسرى بني تميم » .

(٢) العقد ٦ : ٨٦ – ٧٥ ؛ ابن الأثير ١ : ٢٦٠–٢٦٢ ؛ نهاية الارب ١٥ : ٤٠٧ – ٤١٢ .

كلهم ثمانيةَ آلاف .

بدأت الحرب بين الفريقين وكان قائد بني تميم النعمان بن مالك بن جسّاس ، فقتل في اليوم الأول فتولى القيادة مكانه قيس بن عاصم المِنْقري فانهزم بنو مذحِج بعد ان قتل منهم عدد كبير وأُسِرَ جماعة كبيرة فيهم عبد يغوث بن صَلاءة ، أسره فتى من بني عمير بن عبد شمس . وجعلت أم الفتى تضحك من عبد يغوث لأن ابنها كان أهوج ، وكان عبد يغوث سيداً في قومه شاعراً كما كان جميلاً ، فقال عبد يغوث في ذلك قصيدة [1] :

ألا لا تلوماني ، كفَى اللَّوْمَ ما بيا ؛ فما لكما في اللَّـــوم خيرٌ ولا ليا !

(١) في المفضليات ، رقم ٣٠ (ص ١٥٥ - ١٥٨) .

حضارة الجاهليين

الحضارة بمعناها العامّ الواسع هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة والخاصّة في قطر من الاقطار في زمن من الازمان . وتكون الحضارة أنواعا وطبقات : هنالك حضارة بَدْوية وحضارة مَدَنية (كما أن هنالك حضارةً زراعيةً وحضارة صناعية وحضارة بحرية ساحلية وحضارة سهلية داخلية أو جبلية) . ثم ان كلّ نوع من هذه الحضارات يمكن أن يكون طبقات بحسْب ما يكون عليه الناس من الرقي الحقيقي بالعلم والعُمران ومن الرقي الظاهر بتقليد الآخرين في وجوه الترف وفي العادات السهلة. ولقد كان لعرب الجاهليةحضارتُهم ، أو أنواع حضاراتهم وطبقاتها بحسب مساكنهم من شبه الجزيرة وبحسب صِلاتهم بالعالم الذي كان يحيط بهم .

وأساس المجتمع الجاهلي في البوادي والقُرى **القبيلةُ** . والقبلية جماعة من الناس يُقال فيهم إنهم ينتمون الى أصل واحد وينحدرون من أبٍ واحد . والواقع أن الذي يجمع أفراد تلك الجماعة في ما يسمى القبيلة إنما هو **الشعورُ بذلك** . ومع الإيقان بأن الشعوب القديمة قد عاشت في وَحَدات جنسية يجمع بين أفرادها النسبُ الواحد ، فان تلك الوَحَدَاتِ قد تخلخلت بعواملَ مختلفة :

أ ــ بالزواج : فقد يتزوّج رجلٌ من قبيلة أمرأةً من قبيلة أخرى . وقد يتزوج الرجل امرأة من شعب غير عربي ، فإن عمرَو بن شدادٍ اتخذ جارية حبشية أو زَنجية فولَدَتْ له عنترةَ . ومع أن عمراً لم يعترف بعنترةً من الناحية

الحقوقية (الحق بالزواج من عربية والحق بنصيب من الغنائم ، الخ) ، فإن عنترة كان عَبْسياً في النسب ، ذلك لأن المدرك الجاهلي للنسب إنما هو الأبُ وحدَه ؛ أما الأمّ فكانت عند الجاهليين وِعاءً للولد ولا أثرَ لها في جنسه . وعبدالله بن عبدالمطلب كانت أمّه خزْرجية يمنية ، وظلّ هو قُرَشيّاً في كلّ شيء . وفي « الاخبار الطوال » (ص ١٢٩) : « وأصاب المسلمون يومَ جَلولاءَ غنيمة لم يغنموا مثلَها قطّ ، وسَبَوْا سَبْياً كثيراً من بنات أحرار فارس ؛ فذكروا أن عمرَ بنَ الخطّاب رَضِيَ الله عنه كان يقول : اللّهم ، إنّي أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات . فأدرك أبناؤهن قِتالَ صفّين » . ومع ذلك فان أبناء الأمّهات الفارسيات من الآباء العرب عربٌ .

ب — بالنُقْلة : قد ينقل رجلٌ نسَبه من قبيلة الى قبيلة ، فقد كان ذلك جائزاً ولم يكن نادراً .

ج — بالاسْتلحاق : قد يكون لقبيلة عبدٌ من العرب أو من غير العرب فيزوّجوه امرأة من نسائهم فيصبح بعد مدّة معروف النسب فيهم . وقد يكون لرجل عربي جَوارٍ غيرُ عربيات فيَلِدْنَ له ؛ فربما ألحق أولاد تلك الجواري بنسبه وربما لم يُلْحِقْهم . وقد يُلْحق أحدُهم بنسبه ولداً له من غير زواج شرعي .

د — بالوَلاء : قد يحتاج رجل الى حِمايةٍ فيلجأ الى قبيلة قوية فتحميه فيصبح مولىً لها . ثم يدخل نسبُه مع الايام في نسبها .

هـ — بالحِلْف : قد يتحالف فريقان من قبيلتين مختلفتين ويتعايشان ثم يصبحا مع الأيّام كأنهم من قبيلة واحدة ، ويدخل نسب الفريق الأضعف في نسب الفريق الأقوى .

في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي (٨ : ١٩٦) :

« وقد أشارت كتب اللغة الى جماعة من الموالي والعبيد تعرّبت واستقرّت فصارت من العرب ، وكانت من الرقيق المشترى من الخارج . وقد ذكروا في

جملة هؤلاء الصعافقة ، وقال علماء اللغة انّ آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو أنهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلّت أنسابُهم . وقد ذكروا أن مساكنهم في اليمامة في موضع يقال له صعفوق أو بالحجاز (تاج ٦ : ٤٠٧) . وقد ضاعت أنساب جماعات كثيرة غيرهم بامتزاجها بالعرب ودخولها **فيهم فصاروا في عِداد العرب الصُرَحاء** ، وأوجدوا [1] لهم نسباً هو نسب مَن اختلطوا بهم وانتسبوا اليهم بالولاء . وقد نُسِيَ ذلك الولاء بمرور الزمان وتقادم العهد فأصبح نسباً وأصلاً » .

من أجل ذلك كلّه يَحْسُنُ أن نعلم أن النسب في حقيقته أمر عُرفيّ أكثرَ منه أمراً طبيعياً ، وأن الذي يجمع بعض أفراد القبيلة الى بعض إنما هو الشعور بالصِلة وفائدةُ التعاون على تحصيل الرزق وردّ العدوّ ونيل الحُكم حينما يكثر عدد القبيلة وتزداد قوتها . هذا الشعور في سبيل هذه الاهداف يسمّى العصبية [2] .

ويأتي على رأس القبيلة شيخُها. وشيخ القبيلة رئيس بالعصبية ، اي ان القبيلة هي التي تختار من افرادها رجلاً تقدّمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوّعاً منها . والمفروض ان يكون شيخ القبيلة ، كما تدل كلمة « شيخ » ، كبيراً في السن. فاذا كان صغير السن ثم اتفق انْ كانت له حكمةٌ وشجاعة وثروة مضافةٌ إلى شرف أصلٍ قدمته قبيلته للرئاسة . ومصداق ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

طويلُ النِجاد رفيع العِماد ساد عشيرتَه أمردا ؛ —
يُحمِّله القومُ ما عالَهم ، وان كان أصغرهم مولدا !

والواقع ، كما يبدو من أبيات الخنساء ايضاً ، ان الرئيس بالعصبية (شيخ القبيلة) لم يكن يتناول من قبيلته مالاً ، بل كان هو يقوم عن المحتاجين بما كان المحتاجون يَعجِزون عن القيام به، يُطْعم الفقراء منهم ويدفع الدِيَاتِ عن

---

(١) في الاصل « وجدوا » .

(٢) راجع فوق ، ص ١٤٥ ، ١٤٩ : الشعور بالصلة بين افراد الجماعة الواحدة؛ ثم مقدمة ابن خلدون ٢٢٥ وما بعدها .

الذين لا يَمْلِكون ما يدفعونه دِيَةً ، اذا وجبت عليهم دية .

أما الامْتياز الذي كان شيخ القبيلة يتمتع به فهو انه كان حَكَماً في المنازعات ، وكان حكمه نافذاً على الجميع .

والمفروض ايضاً ان يكون شيخ القبيلة قائد القبيلة في الحرب ولسانها في السلم وشاعرها ، كعمرو بن كلثوم. ولكن قد يتفق أن يكون في القبيلة أبطال يأخذون في الحرب مكان شيخ القبيلة : ان عنترة لم يكن سيّد بني عبس ، ولكنه كان شاعرهم وفارسهم وبطلهم وقائدهم في الغزوات والمعارك . وكذلك يتفق ان يكون في القبيلة شعراءُ وخطباءُ يَحْملون عن شيخ القبيلة أعباء التغنّي بمحامدها والدفاع عنها والنطق بلسانها ، كالحارث بن حِلِّزة .

والرجال القادرون في القبيلة على الحرب هم عِماد القبيلة واليهم يَرْجِع الفضلُ في بقائها واحترام الآخرين لها وخوف اعدائها منها . من أجل ذلك كان الإرث في الجاهلية يُقْسم بين الرجال القادرين على حمل السلاح والذهاب الى الحرب . والغنائم كانت تقسم بين الذين يذهبون الى القتال ثم يبقَون أحياءً بعد المعركة . وكان للفارس سهمان (نصيبان) من الغنائم : سهمٌ له وسهم لحصانه .

الملأ والنادي

نقسم المجتمع في البادية وفي القرى (المدن) قسمين :

أ ـ القبيلَ أو القوم أو الجماعة : الكَثْرة من أهل المجتمع .

ب ـ المَلأ : العِلْيَة من القوم والأشراف وذوو الشأن (قا ١ : ٢٨) وأصحاب الحلّ والربط والاغنياء ، وهم السادة والكُبَراء . وهؤلاء الملأ هم الطبقة التي تكون حول الملك يأخذ الملك برأيهم ويقتدي القوم بهم أو يخضعون لنفوذهم .

والنادي والنَدْوة والمُنْتدى والنَدِيّ مَجْلِس القوم (قا ٤ : ٣٩٤) الذي يجتمع فيه الملأ لتصريف شؤون البلاد أو شؤون القوم (القبيل) .

وكان نادي أهل مكّة يُدعى دارَ الندوة ، فيما جاء في الاخبار ؛ أما في القرآن الكريم فان اسمَه « النادي » . في سورة العَلَق ، السورة الاولى التي نَزَلت على رسول الله (وترتيبُها السادسة والتسعون في المُصْحَف) إشارةٌ الى أبي جَهْل عمرو بن هِشام بن المُغيرة . كان رسول الله يصلّي عند الكعبة فنهاه أبو جهل عن الصلاة هنالك ، فانتهره الرسول . فقال أبو جهل عندئذ لرسول الله : « لقد علمتَ ما بها (في مكّة ، في الأرض) رجلٌ أكثرَ نادِياً . لأمْلأنّ عليك هذا الواديَ إن شئتُ خيلاً جُرْداً ورجالاً مُرداً » . ولقد نزل في تقريع أبي جهل ووعيده آياتُ منها (٩٦:١٧) : فَلْيَدْعُ نادِيَه » !

وطَرَفه بن العبد يسمّي الناديَ « حَلْقَةَ القوم » ، قال في معلّقته :

فإن تَبْغِني في حَلْقةِ القوم تَلْقَني ؛ وان تَقْتَنِصْني في الحوانيت تَصْطَدِ [١] .

ولا غرابة فان الحِلَق خاتم الملك (قا ٣ : ٢٢٣) .

ويبدو أنه كان لكلّ مدينة وكلّ قبيلة نادٍ على مثال نادي قريش في مكّة . ووصول الملأ الى النادي وتصريفهم للأمور فيه لا يَجْريان على نَهْج مرسوم ولا على قانون موضوع .

ان دخول النادي أمر عشائري : كلّما عظم شأن رجل بالجاه أو الغنى أو بالبطش دخل الى النادي وأصبح من الملأ الذين يحكمون قومهم .

وطريقة الحكم في النادي عشائرية : يحكم الملأ كما يتفق لهم أن يشاءوا ، يحكمون على حسْب مايرون من المصلحة أو على هواهم . وليس من الضروري أن يجتمع الملأ في النادي ليتّفقوا على ما يجب فعله ، بل قد يفصل أحدهم في أمر ما ، في النادي أو في السوق أو في بيته ، ثم لا يجد من يخالفه من رفاقه لأنهم كلّهم يسلكون هذه السبيل . والنادي ليس داراً للحكم فقط ، بل لجميع الشؤون [٢] .

---

(١) حلقة القوم : مجلس القوم (الا نباري ١٨٦) . الحانوت : دكان الخمر .

(٢) راجع فوق ، ص ١١٢ .

وكان في المجتمع الجاهلي ، في البادية والحَضَر ، سادةٌ وكبراء ممن لم يُتَحْ لهم أن يدخلوا النادي . هؤلاء هم أصحاب النفوذ المادي والمعنوي والذين كان الناس عادة يطيعونهم ويعملون برأيهم احتراماً لهم او خوفاً منهم او انسياقاً مَع منفعة عاجلة عارضة . وفي القرآن الكريم اشارة الى السادة والكُبراء الذين يحملون الناس في بعض الاحيان على غير الحق وعلى غير المصلحة . في سورة الاحزاب (٣٣ : ٦٧–٦٨) قولُه تعالى على لسانِ الناس المخدوعين : « وقالوا : ربَّنا ، إننا أطعْنا سادتَنا وكُبَراءنا فأضلّونا السبيلَ ؛ ربّنا ، آتِهم ضِعْفين من العذابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كبيرا .

وكان في المجتمع الجاهلي خُلَعاءُ او مخلوعون : قد يُسيء فرد الى القبيلة بسلوكه العامّ او بسلوكه الشخصي (كأن يقتل شخصاً من قوم بينهم وبين قوم القاتل حِلْف او صُلح ، او يخرج على إجماع القبيلة ، او يصبحَ سفيهاً مُبذّراً لا أملَ إصلاحه ، فتخلعه القبيلة وتَتَبَرّأ منه ثم لا تقبله القبائل الأخرى فيها فيعيشَ عيشة ضَنْكاً ، وخصوصاً اذا كان مُعَيَّلاً (كثيرَ العيال) . قال امرؤ القيس :

وواد كجَوْف العَيْر قَفْرٍ قطعته   به الذئبُ يَعوي كالخَليع المُعَيَّلِ .

ومثلُ ذلك قولُ طرفة في معلّقته وفيه سبب خَلْعه :

وما زال تَشرابي الخمورَ ولــذتي   وبيعي وإنفاقي طَــريفي ومُتْلَدي
إلى أن تحــامتني العشيرةُ كلّها   وأُفْرِدتَ إفــراد البعير المُعَبَّدِ .

وكان الرقّ منتشراً انتشاراً واسعاً في الجاهلية العربية انتشارَه بين الأمم القديمة كلّها . كان الارقّاء عِمَادَ الحياة الاقتصادية في الأعصر القديمة ، وكانت مصادرُهُ الحربَ والشراء والسبي .

الحرب

كانت الحرب عند الجاهليين شِرْعَةً في الحياة ومورداً من موارد الرزق . وكان الحق عندهم للقوّة ، كما كان الشأن عند جميع الامم في جميع العصور الى

اليوم . ان القويَّ في الجاهلية كان يغزو مَنْ شاء متى شاء ، وكان يحمي الماءَ والعشب اذا شاء [1] . وكذلك كانت القبائل القوية — اذا وَرَدَتِ الماءَ في الأيّام العادية — تشرب وتسقي أنعامها قبل القبائل الضعيفة . ففي معلّقة عمرو بن كلثوم :

ونَشربُ ، إن وَرَدْنا الماءَ ، صَفْوا ؛ ويشرب غيرُنا كَدَراً وطينا !

وبما أن السلاح كان أنواعاً معروفة في الجاهلية شائعة الاستعمال في جميع القبائل ، فقد كانت قوّة القبيلة قائمةً على عدد أفرادها . وذلك قول عمرو بن كلثوم أيضاً :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا ، وظهرُ البحر نَملأه سفينا .

وتقوم القوة نفسُها على مَدْرك الظُلْم في الجاهلية : الظلم أن تبدأ الآخرين بالحرب (أي بالاعتداء ، أو المُبادرة بالحرب) . وذلك قول زهير في معلّقته :

ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ، **ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظلمِ**

الاسرة

وفي القبيلة أقسام منها العشيرة — وقيل العشيرة من القبيلة [2] — والبطن والفخذ وأقسام أخرى لا ضابطَ لترتيبها .

ونَعْني بالاسرة الوَحْدةَ الاجتماعية القائمة على الزواج :

كان الرجل في الجاهلية عِمادَ الاسرة وربّها وصاحب نسبها . ان أولاد الرجل كانوا يَلْحقون بنسبه هو [3] . كذلك كان للرجل على امرأته وأولاده حقّ الحياة والموت وحق الرهن والبيع . في أثناء حرب البسوس وأيام حرب داحس والغبراء وأيام الفجار بين الاوس والخزرج [4] كان الآباء يجعلون أولادهم رهائن

---

(١) راجع فوق ، ص ٩٩ .

(٢) راجع القاموس ٢ : ٩٠، ٤ : ٣٥ .

(٣) راجع فوق ، ص ١٤٩—١٥١ .

(٤) راجع فوق ، ص ١٠١—١٠٢، ١٣٤، ١٣٥ الاثير ١ : ٢١٨ « فهؤلاء أبنائي الباقون ...»

في أيدي خصومهم ، وكثيراً ما كان ذلك يؤدّي الى قتلهم .

وكان في الجاهلية أنواعٌ من الزواج :

أ ـ زواجُ المَهْر أو زواج البُعُولة : وهو الزواج الذي كان الرجل يتّفق عليه مع أهل الفتاة على مَهْر معيّن يأخذه وليّ الفتاة ولا تأخذ الفتاة منه شيئاً . وربّما أكْرَهَ آلُ الفتاة فتاتَهم على الزواج بمن تكره ، اذا هم أرادوه ؛ وربما عَضَلوها (منعوها أن تتزوّج) .

ب ـ زواج المتْعة : هو عقد شخصيّ بين رجل وامرأة غيرِ بِكْرٍ لمدّة معيّنة على مبلغ معيّن . وينتهي هذا الزواج بانتهاء المدّة المشروطة . هذا الزواج يشبه زواج المَهْر من كل وجه إلاّ اشتراط المدّة . وفي هذا الزواج مهر مقدّم وحقوق للأولاد على أبيهم في الانتساب اليه والإرث منه .

ج ـ زواج السبي : وهو حق المحاربين المنتصرين في نساء المحاربين المغلوبين. ولا يُشترط في هذا الزواج رِضا الفتاة ولا رضا أهلها ، وليس فيه مهر .

د ـ زواج الإماء : وذلك أن يشتريَ الرجلُ أمَةً فيكونَ له منها أولادٌ ان شاء أعتقها وأعتقهم وان شاء لم يفعل فتظلّ هي عنده أمَةً ويظلّ أولادها منه عبيداً له وإماءً .

هـ ـ زواج المَقْت : كان الجاهليون يَرِثون زَوْجاتِ آبائهم (وزوجات غير آبائهم ممن يرثونهم) كما يرثون أموالهم وأنعامهم ، على ألاّ يرث الابْنُ أمّهُ التي وَلَدَتْهُ .

هذه أنواع الزواج التي كانت في الجاهلية؛ وهي « زواج » لأنها تقوم على « الإحْصان » ، أي على أن يَكْتَفِيَ الزوج بزوجته وتكتفيَ هي به . أما ما سمّاه بعضهم زواجاً كالمخادنة والمسافحة والاسْتبضاع فمساوىءُ اجتماعيةٌ وليست نظاماً اجتماعياً أقرّه المجتمع . وهذه المساوىء موجودة في كلّ زمان ومكان ، ثم إنها عند العرب كانت شاذّة ولم يكن العُرْفُ الجاهليّ يقرّها .

على أنه كان هنالك « أحوالٌ » ترافق الزواج بعيدةٌ عن احترام حرّية المرأة . من هذه الاحوال الشغار (وذلك أن يرغب رجلان في الزواج فيتزوّج كلّ واحد منهما قريبة للآخر : أخته أو بنته أو قريبة أخرى له عليها حقّ الولاية ، من غير مهر) . ومنها الجمع بين الاختين (وهو أمر مكروه حرّمه الاسلام للعامل النفساني . أما اذا طلّق رجل زوجته أو اذا تُوُفيَتْ زوجتُه فانه يتزوج اختها اذا شاء وشاءت) .

ولم يقيّد الجاهليّ نفسَه بعدد النسوة اللواتي كان يتزوّجهن في كلّ نوع من أنواع الزواج المذكورة آنفاً ، ذلك لأن السيّد الجاهليّ كان يعدّد الزوجات لأسباب انسانية (كأن يُدْخل في عصمته عدداً من النساء لا مُعيلَ لهن)، أو لأغراض سياسية (بأن يُصْهِر الى عدد كبير من القبائل فتكونَ تلك القبائل مؤيّدة له في رئاسته أو ناصرةً له في حروبه) .

وكان الجاهليون يفضّلون البنينَ على البنات لأن البنين يُصْبحون محاربين ومدافعين عن القبيلة . بينما البنات كنّ يَحْتَجْنَ الى إخوة يدافعون عنهن ؛ فالبنت كانت في الجاهلية ، من الناحية الحربية ، عِبئاً ثقيلاً على الرجل .

ووَأدَ [١] الجاهليون أولادَهم بناتٍ وصبياناً في أحوال نادرة ، اذا وُلدَ أولئك الاولاد مُشوّهين ، أو اذا كان الوالد فقيراً كثير العيال ، أو اذا كان معَ فقره وضَعفه مِئناثاً ، وكان يخشى ألاّ يستطيعَ الدفاع عن بناته في الحرب . يفتخر الفرزدقَ بأن جدّه صعصعةَ كان يُعْرَفُ في الجاهلية بأنه مُحْيِي المَوْءودات، ثم يذكر أن جدّه قد أحيا عشرين مَوْءودة. فاذا نحن أجَزْنا قول الفرزدق ولم نعدّه مُبالغاً في الرقم « عشرين » ، فإن هذا العدد يظلّ أيضاً قليلا.

وكان الجاهلي اذا شاء تَبَنّى أولاداً ليسوا من صُلبه فأصبحوا مثل أولاده في الحقوق عليه وله .

والطلاق في الجاهلية كان سهلاً كعَقْدِ الزواج أو أكثرَ سهولة. وكلمة الطلاق

---

(١) الوأد : دفن الاولاد عقب الولادة وهم احياء .

كانت بيد الرجل يُوقِــعُ بها الطلاقَ متى شاء، من غير سبب موجب لذلك ضرورةً. وكانتِ المرأة، اذا كانت ذاتَ مال كثير أو جمال رائع أو شرف أثيل، تشترط أحياناً أنَ يكون لها حقٌ طلب الطلاق متى شاءت هي ؛ على أن ذلك لم يكن يَحْميها من تطليق زوجها إياها متى شاء هو .

واذا طُلّقت المرأة أو إذا مات عنها زوجها فعليها أن تَعْتَدَّ (أن تَقْضِيَ عِدّةً : تتربّص بعدَ زوجها مدّة لا تتزوّج في أثنائها حتى تتبيّن أنها حاملٌ أو غير حامل من زوجها الذي طلّقها أو مات عنها) . ولقد حرَص الجاهليون على « وفاء العِدّة » محافظة على أنسابهم حتّى لا يختلط نسل رجل بنسل رجل آخر منهم .

والإرثُ في الجاهلية كان حقّ الرجال الذين يركبون الخيلَ ويحملون السلاح، فالطاعنون في السن والصِبيان لم يكن لهم حق في الارث . أما النساء فكان الرجال يرثون منهن ويرثونهن كما يرثون المتاع والاموال . ولذلك كانت القاعدة العامّة في الجاهلية أن المرأة لا حقّ لها في إرثِ قريبها المُتَوَفَّى . على أن الاخبار وردت في أن المرأة في بعض القبائل كانت ترث أحياناً .

الدين

الدين في القاموس هو العادة التي استحكمت في الفرد أو في الجماعة حتى أصبح لها قوّة الوازع أو القاهر في الحياة الاجتماعية . « وفي الحديث : كان النبي على دين قومه ، أي على ما بَقِيَ فيهم من إرث ابراهيمَ واسمعيل في حجهم ومناكحتهم وبيوعهم وأساليبهم . وأما التوحيد فانهم كانوا قد بدّلوه ؛ والنبي صلّى الله عليه وسلّم لم يكن إلا عليه » (قا ٤ : ٢٢٥) .

واذا نحن نظرنا إلى الدين إلى الجاهلية ، بهذا التعريف ، وجدنا أن أكثر الجاهليين كانوا على الفِطرة : كانوا يَسْلُكون في الحياة مسلكاً مؤمناً بالله وبقيمة العمل الصالح من غير أن يكون لهم نظامٌ مخصوص في العبادة ، إلا فيما يتعلّق بالحج .

هذا المدرك من الفطرة كان عليه جمهور أهل الجاهلية : يسلكون هذا المسلك لأنهم وجدوا الذين كانوا قبلهم يسلكون مثله . وهذا هو الذي نجده ملموحاً في الشعر الجاهليّ. وكان الجاهليون يعتقدون بأن الله قادر على كلّ شيء وأنه هو خالق هذا العالم وأنه مسيطر على كلّ شيء .

الأوثان والأصنام

الوثن حجر على غير هيئة معينة ، والصنم حجر منحوت أو معدن مصنوع على هيئة معيّنة .

يبدو أن عبادة الاصنام والاوثان طرأت على الجاهليين من جيرانهم وأنها طرأت في زمن متأخّر ، يدلّنا على ذلك قلة احتفال الجاهليين بتلك الأوثان والاصنام التي لا نجد لها ذكراً إلا في مناسبات معينة . ثم ان هذه الاوثان والاصنام لم تَحِلّ عند الجاهليين مَحِلّ « الله » ، كما اتّفق عند غير العرب وعند غير الساميين على الأخص . لقد اتّخذ عدد من القبائل آلهةً قَبَلِيّةً كاللات ومَناة والعزّى والشمس والقمر والشِعرى والنجم (الثريّا) ووُدّ وسُواعٍ ونَسْرٍ ، ولكنّ حُجّتهم في عبادتّها قد وردت على لسانهم في القرآن الكريم في سورة الزُمَر (٣٩ : ٣) : « ألا لله الدينُ الخالص . والذين اتّخذوا من دونه أولياءَ ما نعبُدهم الا ليُقرّبونا الى الله زُلفى . ان الله يَحكُمُ بينهم في ما هم فيه مختلفون . إنّ الله لا يَهْدي من هو كاذب كفّار » . ونحن لا نقبل هذه الحجة لأن معظم الوثنيين في العالم يحتجّون بها ؛ إلاّ أنها عندنا ذات قيمة لأننا لا نجد أثر الوثنية راسخاً في نفوس الجاهليين : ان الذي يقرأ الشعر الجاهلي ويتتبّع حياة العرب في جميع الروايات لا يستطيع أن يرى هذه الاوثان إلا في المرّة بعد المرة ، في قسم كانوا يقسمونه والا في بيت شعر أو بيتين في أثناء حرب ، وإلاّ في عدد من الاسماء . ثم ان هذه الاسماءَ المُعَبَّدَةَ للاصنام نحو عبدِ شمسٍ ، عبد يَغوثَ ، امرىء القيس ، عبد مَناةَ ، عبد اللاّت ، تَيْم اللات الخ ، قد تكون دالّة على احترام للصنم المُتَعَبَّدِ له أو على تبرّك به ، وقد تكون إعجاباً بشخص

حمل ذلك الاسمَ من غير أن يكون ثمّت صِلَةٌ بين ذلك الصنم وبين صاحب الاسم الراهن . وأيّاً كان سببُ الاسم المعبّد للأصنام ، فان الجاهليين لم يُولُوا الاصنامَ والاوثان الاهتمامَ الذي كان لها عند الاقدمين .

الخرافات

وكان للجاهليين ، كما كان لجميع الشعوب الفِطرية وغير الفطرية أيضاً ، خُرافاتٌ يعتقدونها دِيناً وتَقليدا .

الخُرافة حقيقةٌ تاريخية عُلِّلَتْ تعليلاً خاطئا .

لمّا انساح البدو الى أطراف البادية يحملون خيامَهم على ظهور أنعامهم ثم رَأوْا مدينةً كتَدْمُرَ فيها القصورُ ذات الأعمدة والجنادل الكِبارِ الضِخامِ لم يستطيعوا أن يصدّقوا أن بشراً يستطيع أن يَبْنِيَ مثلَها ، فهَيّأ لهم ضَعفهم وعَجزهم أن كائناتٍ من غير عالَمنا أشدَّ منا قوّة وأكثر علماً قد بَنَتْها ، فقالوا بناها الجن ؛ وجاء النابغة يمدح النعمان في معلّقته ثم لا يَرْضى أن يُشَبِّه به أحداً بأحَدٍ :

إلاّ سليمانَ ، إذ قال الإلهُ له : قُمْ في البَرِيّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ ،
وخَيِّسِ الجِنَّ إنّي قد أذِنْتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفّاحِ والعَمَدِ .

والكلام على الجن حتى في الشعر الجاهلي قليل جداً . ثم أصبح ذلك وجهاً من أوجه البلاغة ، فلمّا أراد البُحتريّ أن يصف البِرْكَةَ التي بناها الخليفة المتوكّل على الله في سامُرّا ويبالغَ في ذكر سَعَتها وحُسنها قال :

كأنّ جنّ سُليمانَ الذين وَلُوا إبداعَها فأدقّوا في معانيها !

أما محادثة الجن للناس ومقاتلتهم أحياناً والزواجُ بهم أحياناً أخرى فمما يدخل في باب الخرافات على الحصر . وكذلك الغول والسِعلاة (انثى الغول) والعَنقاء (طائر عظيم الحجم) وسواها أمور من هذا الباب .

ولاريب في أن خرافاتٍ كثيرةً انتشرت بين عرب الجاهلية من جيرانهم ومن

اليهود الذين نزلوا بينهم ومن الجهل الذي كان يسود في أرجاء كثيرة من شبه جزيرتهم .

الكعبة

لاريب في أن الكَعْبَةَ بُنيت لعبادة الله وحدَه ثم لم تُنْسَبْ الى غيره . يقول زهير في معلّقته : « فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجال ... » ؛ وقال النابغة : « فلا ، لَعَمْرُ الذي مسّحت كعبته ... [1] » . على الرّغم من أن نفراً من المرتزقين بالدين كانوا قد نَصَبوا على الكعبة وحولَها أصناماً وأوثاناً . وبظهور الاسلام عادت الكعبة بيتاً لله للواحد .

ومناسك الحج في الجاهلية كانت قريبة من مناسك الحج في الاسلام : الطواف واستلام الحَجَر والصعود الى عرَفة والإفاضة من عرفة والتَضْحية والرجم مع فارقٍ أساسي مهمّ جداً هو أن جميع هذه المناسك في الاسلام طاعةٌ لله وحدَه حقيقة ومجازاً .

وكانت أشهُرُ الحج في الجاهلية ، لطبيعة الحج في ذلك الحين ، سوقاً تجارية رائجة ، وكانت تَدُرّ على رؤساء المكّيين وعلى عامّتهم خيراً كثيراً .

أسواق الجاهلية

ولم يكن بالامكان أن تروج أسواق الجاهلية ، في موسم الحج خاصة ، اذا كانت الحروب مشتعلة بين القبائل ، فنشأتِ الاشهر الحُرُم [2] ، فَسادَ شبهَ الجزيرة في أثنائها — وهي أربعة أشهر تؤلّف ثُلُثَ السَنة — سِلْمٌ حقيقي إلا في أحوال نادرة جداً . ولم تكن تلك الاشهر متواليةً كلّها ، بل كان منها ثلاثةٌ متوالياتٌ هي ذو القَعدة وذو الحِجّة والمُحَرَّم ثم شهر مُفْرَدٌ يأتي بعد المحرّم بستّة أشهر ، فكان ذلك مما يساعد على وقْفِ الحرب وكسر حِدّة العداوة بين

(١) العمر : صيغة من صيغ القسم . مسح الكعبة : ذبح ذبيحة ثم لطخ بدمها جدران الكعبة .
(٢) راجع فوق ، ص ١٣١ .

الجاهليّين مرّتين في كلّ عام . وأسواق العرب كثيرة مفرّقة في الحجاز ونجد وموزّعة في السنة كلّها ، ولكنّ السوقَ المذكورةَ المشهورة هي سوق عُكاظٍ في نَخْلة على مَقْرُبَةٍ من مكّة .

الكِهانة

وكان في الجاهلية كُهّان على نَمَط الكهّان الذين عرَفَهمُ الساميون (العبرانيون مثلاً) والآريون (اليونان مثلاً) . والكهانة كانت في الواقع مَنْصِباً دينياً ذا جانب سياسيّ وجانب تجاري . فالكاهن كان يدّعي أنه رجل قريب من الله يَعْرِف الغيب ويترجم عن الاصنام وينظر في النجوم ويعرف ما يكتمه الناس . وكان مُقامه عادة في بيت الصنم أو في بيته هو . وكان الكاهن فوق ذلك طبيباً كما كان يتقبّل النذور باسم الاصنام ويقدّم القرابين عن الراغبين ، وكلّ ذلك منافعُ اقتصادية له . وكان من النساء كَواهنُ أيضاً .

العِرافة والقِيافة والفِراسة

والعرّاف يشبه الكاهن في بعض شأنه : كان العرّاف يكشف المُخبّأ في الماضي . وكان أيضاً طبيباً ، بل هو أشْهَرُ في الطبّ من الكاهن ، ولكنّه أدنى منه منزلة فان العِرافة ليست منصباً دينياً كالكهانة . ومن مشاهير العرّافين الأبلق الاسدي عرّافُ نجد ورَباح بن عجلة عرّاف اليمامة ، وقد قال عُروة بن حِزام في مَعْرِض حبّه لعفراء :

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمَه ... وعرّاف نجد إن هما شَفَيَاني .
فما تركا من حيلة يعلمانِها ... ولا رُقْيَة إلا وقد رَقَيَاني .
فقالا : شفاكَ اللهُ ؛ واللهِ ، ما لَنا ... بما حُمِّلْتَ منك الضلوع يدان !

والذي يجب أن نلاحظه هنا أن طِبّ العرّافين هو الطب البَدْوي القائم على الذكاء والتّجربة والاختبار ، وليس من الطب المِزاجي المبنيّ على علم ودراسة ، فهو يُخطِيء ويُصيب وفيه عُنصرٌ روحيّ نفساني ، ولذلك لا تبرأ به في الغالب إلا الأمراض النفسية والادواء اليسيرة .

والقيافة تتعلق بمعرفة اتّجاه السائرين والهاربين من تَتَبّع آثارهم ، والقافَةُ (جمع قائف) يميّزون بعض آثار الاقدام من بعض ولو تزاحمت وتراكبت ويَعْرِفون الأشخاص بآثار أقدامهم . ومنهم من يعرف آثار الحيوان أيضاً ، فقد عرف قيس بن بدر (في حرب داحس والغبراء) أثر صارف (فرس حُذيفة ابن بدر) والحَنْفاء (فرس حَمَل بن بدر) ثم قفا أثريهما حتى أدركهما على جفر الهباءة (العقد ٦ : ١٨) .

ويَلْحق بذلك الزجرُ ، أي العيافة (قا ٢ : ٣٨) وهو التنبّؤ بالمستقبل من ملاحظة حركات الحيوان والطيور خاصة أو بذبح الحيوانات ودراسة العلامات التي تُلْفى في أكبادها ورئاتها وأمعائها وسوى ذلك .

أما الفِراسة فدراسة ملامحِ الانسان للاستدلال بها على أخلاقه أو على نسبه اذا شَكَّ شاكٌ في قرابته الى أسرته أو قبيلته .

الدهر

كان الجاهلي جَبْرِيّاً في سلوكه : لقد كان يعتقد أن الحياة فرصة عابرة وأن الموت آتٍ على الأحياء لا قِبَلَ لأحد بأن يدفعَه عن غيره ولا عن نفسه . وهذا ما كان يُعَبَّرُ عنه بلفظ الدهر أو تَطاوُلِ المدّة . جاء في سورة الجاثية على لسان الجاهليين مع التقريع لهم على ما قالوا (٤٥ : ٢٣) : «وقالوا : ما هِيَ إلاّ حياتُنا الدُنيا ؛ نموت ونحيا وما يُهْلِكُنا الا الدهرُ . ما لهم بذلك من علم ، إنْ هم الا يظنّون» . والغالبُ على الجاهليين أنهم كانوا لا يؤمنون بالنُشور (بالقيامة) ولا بجنّة أو نار ، وان كنّا نرى شيئاً من الايمان بالآخرة عند نفرٍ من الشعراء كزُهيرٍ ولَبيدٍ . فمن الشواهد على هذا كلّه من الشعر الجاهلي :

– إن يَنْقُصِ الدهر منّي مِرّة لِبِلىً فالدهر أرودُ بالاقوام ذو غِيَرِ [١] .

– وإنّا سوف تُدْرِكنا المنايا مُقَدّرةً لنا ومُقَدّرينا .

(١) المرة : القوة . البلى : الضعف ، الفناء . أرود : طواف يطلب الناس . غير : مصائب .

ـ ومن هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ   وان يَرْقَ أسبابَ السماء بِسُلَّمِ .

اللغة والأدب

اذا لم تكن اللغة العربية أقدم اللغات الساميّة [1] ، فيجب أن تكون من أقدمها ، فليس في الامكان أن تكون قد بلغت في سَعة قاموسها وتَمام تركيبها ودِقّة تعبيرها وبَراعة نثرها وشعرها وإحكام بلاغتها الى الدرجة التي نجدُها في الشعر الجاهلي لو لم يكن قد مضى على تطوّرها يومذاك قرونٌ كثيرة . ولم يكن في اللغات السامية ولا في اللغات غير السامية لغةٌ فيها من طاقة الحياة ومن المُطاوعة للتطوّر مثلُ اللغة العربية ، ثم هي بلا ريب أطول اللغات الحيّة عُمُراً .

والنثر الجاهلي أمثال وخطب وسَرْدٌ يشبه الامثالَ والخطب ، وهو يمتاز بالايجاز وبالمُوازنة (يجعل الجمل متساوية الفِقَرات في عدد الكلمات وصيغ تلك الكلمات : كلامُ الملوكِ ملوكُ الكلامِ ـ ما استحسنت لغيرك فاعملَ به ، وما استقبحت من غيرك فاجتَنِبْهُ) . وقد يكون فيه سَجْعٌ قليل أو كثير .

وكان الشعر نوعين : مألوفاً ومخلوفاً . أما الشعر المألوف فهو الذي في المعلقات : قصائدُ طوالٌ ذاتُ أغراض متعددة ومبادىءُ معروفةٌ (كالوقوف على الاطلال وذكر الأحبّة) وإشادة بالقبيل وحفاظ على المُثُلِ العُليا . والمخلوف ما خالف ذلك فكانت القصائد فيه طِوالاً أو قِصاراً وقلما جاوز الشاعر فيها الغرضَ المقصود من قولها . وهذا النوع يُعبِّرُ عن رأي الشاعر أكثرَ مما يعبر عن رأي المجموع . وجميع الشعر الذي من هذا النوعُ وجداني خالص .

والجاهليون كانوا أميين لا يخُطّون ولا يقرأون الخط ، وخصوصاً في البادية . على أن هذا لا يَعْني أن القراءة والكتابة كانتا مجهولتين : لقد كانتا معروفتين في القرى وفي البادية ولكن لم تكونا شائعتين .

---

(١) راجع فوق ، ص ١٩ ، ٣٨-٣٨ .

الثقافة في العصر الجاهلي [1]

أولُ ما لَفَتَ نظرَ الجاهليين من مظاهر الطبيعة النجومُ ، ثم عُنُوا بها لحاجتهم اليها في أسفارهم . فقد كانت بلادهم في أكثرها باديةً قليلةَ المعالمِ للاسْتدلال على المواضع والطرق فاستدلّوا عليها بالنجوم . وقد كان عليهم من أجل ذلك أن يَعْرِفوا مواقعَ الكواكب والنجوم وتنقّلَ الكواكب في بروجها بين فصل وفصل من فصول السنة .

واستفاد العرب من علمهم بالنجوم في التوقيت : لقد وقّت امرؤ القيس زيارته لحبيبته في معلّقته بقوله :

تجاوزتُ أحراساً اليها ومَعْشراً ... عليّ حِراصاً لو يُسِرّون مقتلي ،
إذا ما الثُرَيّا في السماء تعرّضتْ ... تَعَرّض أثناءِ الوِشاح المُفَصّل .

يخبرنا امرؤالقيس أن عنقود الثريا كان يومذاك يبدو في السماء بأعرض جوانبه، وهذا يكون في الشتاء في أول الليل حينما تتكبّد الثريّا السماءَ (تصبح في كَبِد السماء) .

وقال الحارث بن ظالم الذُبياني لتبيع (خادم) له اسمه خُراشٌ (وقد أراد أن يَنْجُوَ من خطرٍ مِحْدِقٍ به) كُنْ لي (انتظرني) بمكان كذا ؛ فإن طلع كوكب الصبح (يقصد الزُهَرَة) ولم آتِكَ ، فانظر أي البلاد أحبّ اليك فاعْمُد (اهرُبْ) اليها .

وكثر اهتمام الجاهليين بالقمر لعظم نوره وللاهْتداء به في الليالي ثم لوضوح دلالته على الايام والسنين .

ولم يَعْرِفِ العرب النجومَ الظاهرة الواضحة فقط ، بل عرَفوا كثيراً من النجوم الخفية حتى جاء في أمثالهم : أُريها السُها فتريني القمر ! ان السها نجم خفيّ جداً يمتحِنُ الناسُ به أبصارَهمْ ولا يراه الا ذَوُو البصر الصحيح ومن

---

(١) المقاطع التالية مأخوذة من فصل كبير أعده المؤلف لكتاب مقبل .

الاماكن التي لا تكثُر فيها رطوبة الجو . والمثل يضرب لمن تحاولُ أنتَ أن تدُلَّه على دقائق الأمور فلا يستطيع هو أن يُدْرِك إلا الاشياء العامة الواضحة (كالقمر) لكل انسان . أما مكان السها فهو في الشمال الغربي من العِناق ، وهي الابن الاوسط من بنات نعشٍ (الدبّ الاكبر) .

ومعظم المدارك الفلكية وأسماء الكواكب والنجوم عرفها الجاهليون وسَمَّوْا بها أولادهم ، سمّوْا : بدراً وقمراً وقُميراً وهِلالاً والزِبرقان ، وسمّوا عُطارِدَ وزُهَرةَ وسُهيلاً والثريا وسِماكا وغيرها .

وأدرك الجاهليون أن السنة القمرية أقصر من السنة الشمسية وأنها لا توافق اختلاف الفصول الاربعة فأوجدوا النسيءَ (الكَبْس) بأن يزيدوا على كلّ ثلاث سنوات شهراً قمرياً . وكان في الجاهليين نَسَأةٌ عملهم تقدير الأوقات التي يجب أن يكون فيها النّسْءُ ؛ الا أنهم لم يحافظوا على النسء في أوقاته الصحيحة فاضطرب التقويم الجاهلي من أجل ذلك .

علم الطب

عرف عرب الجاهلية الطب معرفة جيدة فقد كان فيهم أطباء درسوا في فارسَ او في بلاد الروم واستفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم ، فإن « الحارث ابن كَلَدة الثقفي سافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرّن هناك وعرف الداء والدواء » . وكذلك النَضر بن الحارث بن كَلَدة نشأ طبيباً كأبيه فقد سافر في البلاد واجتمع مع الافاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الاحبار والكهنة واشتغل وحصّل من العلوم القديمة أشياءَ جليلة القدر واطّلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلم من ابيه ايضاً ما كان يَعْلَمه ابوه من الطبّ . وكان للجاهليين براعة في الجراحة وامراض العين .

ولما وصف طرَفة بن العبد الناقة في معلقته بستة وثلاثين بيتاً فيها كثير من الدقّة والتفصيل ، كان بلا ريب قد لاحظ أموراً كثيرة من تشريح الحيوان : لقد أصاب وصف جمجمة الجمل (بالعَلاة : السَّندان) وادرك أن الجمجمة

مؤلفة من أقسام من العظام يمسك بعضها ببعض لأن أطرافها مسنّنة متداخلة. وكذلك وصف طرفة القلب بأنه أحذّ (ضامر) مُلَمْلَم (مجتمع ومدور ومضموم) كمِرادة صخر (قاس كالحجر الذي تكسّر به سائر الحجارة، وهو الفِهر الذي تدق به الاشياء فتكسر، ويكون ملء اليد) مصمّد (ملفوف في مثل الخرقة او المنديل) في صفيح (في سماء، أي معلّق)؛ وذلك قوله في المعلقة :

وجُمجمة مثل العَلاة كأنما ... وعى الملتقى منها الى حرف مِبْرَدِ،
وأروعَ نبّاضٍ أحذّ ململمٍ ... كمِرداةِ صخر في صَفيح مُصَمّد!

إن هذه الاوصاف لا تدل على ملاحظة عارضة عابرة، بل على مشاهدة عاقلة ودرس دقيق ليس من نطاق الشعر، بل هو بعلم الطب ألصق.

الفلسفة الخالصة

في الشعر الجاهلي آراءٌ تتّصل بالفلسفة الخالصة كقول الحارث بن حِلِّزَةَ في الحَدْسِ من نظرية المعرفة :

فحبستُ فيها الرَّكْبَ أحْدُسُ في ... كلّ الأمور، **وكنت ذا حَدْسِ!**

ولطرفة بن العبد آراء تقرب من آراء ارسطبّوس اليوناني تلميذ سقراط : كان يرى أن الغايةَ من الحياة هي اللذةُ المادية العاجلة، ثم هو لا يُلقي بالاً الى موقف الناس منه في ذلك، ما دام هو وحدَه سيتحمّل نتائج سلوكه. قال طرفة في معلّقته :

فلولا ثلاثٌ هنّ من لَذّة الفتى، ... وجدِك، لم أحفِلْ متى قام عُوّدي.
فمنهن سبقي العاذلاتِ بشَربة ... كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماء تُزْبِدِ؛
وكَرّي اذا نادى المُضافُ مُحَنّباً ... كسِيد الغَضا، نبهتَه، المُتورّد؛
وتقصيرُ يومِ الدّجْن، والدجن مُعْجِبٌ، ... ببَهْكَنَةٍ تحت الخباء المُعَمّد.
فذرني أروّي هامتي في حياتها ... مخافةَ شِربٍ في المماتُ مُصرّد.

وذرني وخُلقي، انني لك شاكـــر ولو حل بيتي نائياً عند ضَرْغَد .
وقالوا : ألا ماذا تَرَوْنَ بشارب شديد علينا بغيُه مُتعمّـــد ؟
فقالوا : ذروه ، انما نفعُها لـــه ؛ وإلاّ تردّوا قاصيَ البَرْك يـــزدد !

فطرفة يرى لذة الانسان في الخمر واكرام الضيف واللهو مع النساء ، يريد أن يتمتع بهذه في الحياة لأنه لن يكون بعد الموت شيء من ذلك :

كريمٌ يُروّي نفسَه في حياته ستعلم ان متنا غدا أيّنـــا الصدي !

ويحب طرفة أن يسلُك هذا السبيل ولو اضطرّ الى أن يعيش بعيداً عن جميع الناس . ثم هو يرى أن اللوم لا يزيد المندفع في أمر من الامور إلا إصرارا .

كثيرة في الف ليلة وليلة حول جن سليمان وخاتمه وعفاريته والجن السحر وال[illegible] نوع ومنهم الشرير ومنهم صانع الخير .

في الكاهن كان الساحر والخطيب والمستشار والطبيب والحكم وكان الكاهن شخصيته المرموقة .

ه‍ بدائي ـ الناس فيه منذ نشأته ـ يؤمنون بالخرافات والاساطير فألهوا قوى الطبيعة .

مصادر ومراجع لتاريخ الجاهلية [1]

(راجع ما نشر في فصل « المصادر والمراجع »)

تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، القاهرة (دار المعارف) ١٩٦٠ وما بعدها .

سيرة ابن هشام لأبي محمد عبدالملك بن هشام ، بولاق ١٢٩٥ هـ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي عليّ الحسن بن الحسين المسعودي ، أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٨ .

أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ... للمسعودي ، القاهرة ١٩٣٨ .

التنبيه والاشراف للمسعودي ، ليدن ١٨٩٢ .

كتاب التيجان لملوك حمير من رواية وهب بن منبّه ، حيدر اباد ١٣٤٧ هـ .

الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني ، الجزء الاول ، أبسالا ١٩٥٤ م ؛ الجزء الثامن . بغداد ١٩٣١م ؛ الجزء الثامن ، برنستن ١٩٤٠ م ؛ الجزء العاشر ، القاهرة ١٣٦٨ هـ .

الاخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داوود الدينوري ، القاهرة ١٩٦٠ .

كتاب المعارف لأبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، غوتنجن ١٨٥٠ .

العقد الفريد لأبي عمر أحمد بن محمّد عبد ربّه ، القاهرة (طبعة الاستاذ محمد

(١) إن معظم هذه المصادر قد طبع منها طبعتان فأكثر .

سعيد العريان) ١٩٥٣ .
تاريخ الكامل لأبي الحسن علي بن محمد بن الاثير ، القاهرة المطبعة الكبرى العامرية ١٢٩٢ هـ .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ..... لعبدالرحمن بن خلدون ، بولاق ١٢٨٤ ، بيروت (دار الكتاب اللبناني) ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .
جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي ، القاهرة ١٩٦١ .

* * *

الأزمنة والأمكنة لأبي عليّ أحمد بن محمّد المرزوقي ، حيدراباد الدكن ١٣٣٢ هـ.
معجم ما استعجم لأبي عبيدالله عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٥١ .
صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني ، القاهرة ١٩٥٣ .
المسالك والممالك لأبي القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه ، ليدن ١٨٨٩ .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبدالله محمد بن أحمد المقدسي ، ليدن ١٨٧٧ .
مسالك الابصار في ممالك الامصار لأبي العبّاس أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري ، القاهرة ١٩٢٤ م .
معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبدالله بن عبدالله ياقوت الرومي (الحموي) ، القاهرة هـ - ١٩٠٦ م .

* * *

القاموس المحيط لمجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ، المطبعة الحسينية المصرية ، مصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٣ م .
لسان العرب لأبي الفضل محمّد بن مكرّم بن منظور ، بولاق ١٣٠٠-١٣٠٧ هـ.

تاج العروس لأبي الفيض مرتضى بن محمد الزبيدي ، مصر ١٣٠٦ هـ .
ديوان المفضّليات لأبي العبّاس المفضّل بن محمّد الضبّيّ ، أوكسفورد ١٩١٨ – ١٩٢٤ ؛ القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٢ .
شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الانباري ، القاهرة ١٩٦٣ .
شرح القصائد العشر لأبي زكريا يحيي بن عليّ التبريزي ، مصر ١٣٤٣ هـ .
شرح ديوان أشعار الحماسة التي اختارها أبو تمّام ..... للتبريزي ، بولاق ١٢٩٦ هـ .
شرح ديوان الحماسة (لأبي تمّام ، والشرح) لأبي عليّ أحمدبنمحمّدالمرزوقي (نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون) ، القاهرة ١٩٥١ – ١٩٥٣ .
نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، ليدن ١٩٠٧–١٩١٢م.
نقائض جرير والاخطل لمحمد بن حبيب[1] ، حرّرها الأب أنطون صالحاني، بيروت ١٩٢٢ م .
جمهرة اشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطّاب ، بولاق ١٣٠٨ هـ ؛ بيروت ١٩٦٣ م .
مجمع الامثال لأبي الفضل محمد بن أحمد الميداني . القاهرة ١٩٥٥ م .
كتاب الكامل لأبي العبّاس محمد بن يزيد المبرّد ، ليبزغ ١٨٧٤ – ١٨٩٣ م ؛ القاهرة ١٩٥٦ م .
كتاب الامالي لأبي عليّ اسماعيل بن القاسم القالي ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٢٦ م .
البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (طبعة عبدالسلام محمد هارون)

---

(١) نسب الأب صالحاني هذه النقائض الى حبيب بن أوس الطائي أبي تمام .

القاهرة ١٩٤٨ ـــ ١٩٥٠ .

كتاب الحيوان للجاحظ (طبعة عبدالسلام محمد هارون) ، القاهرة ، ١٣٥٦ ـــ ١٣٦٦ هـ ـــ ١٩٤٨ ـــ ١٩٥٧ م .

طبقات الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي ، (حرّره يوسف هلّ)، ليدن ١٩١٣ ؛ ـــ طبقات فحول الشعراء (حرّره محمود محمد شاكر) ، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٢ م .

الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ليدن ١٩٠٢ ؛ القاهرة ١٣٦٤ ـــ ١٣٦٦ هـ .

كتاب الاغاني لأبي الفرج عليّ بن عيسى الاصفهاني ، بولاق ١٢٨٥ هـ ؛ الجزء الحادي والعشرون ، ليدن ١٩٠٥ م ؛ الاجزاء ١ ـــ ١٦ ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٢٧ ـــ ١٩٦١ م .

كتاب العمدة لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، القاهرة ١٣٥٣ هـ = مصر ١٩٣٤ م .

خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ..... لعبدالقادر بن عمر البغدادي ، مصر ١٢٩٩ هـ .

* * *

كتاب الاصنام لأبي المنذر محمد بن السائب الكلبي ، ليبزغ ١٩٤١ .

كتاب المعمّرين لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ، ليدن ١٨٩٩ .

عيون الاخبار لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، القاهرة (دار الكتب) ١٣٤٣ ـــ ١٣٤٩ هـ ـــ ١٩٢٥ ـــ ١٩٣٠ م .

نهاية الارب في فنون الأدب لأبي العبّاس أحمد بن عبدالوهّاب النويري ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٢٣ وما بعدها .

مقدمة ابن خلدون ، بيروت (المطبعة الادبية) ١٩٠٠ م ؛ بيروت (دار الكتاب اللبناني) ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م .

المزهر في علوم اللغة لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ، شرحه وضبطه ... محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، جزءان ، الطبعة الاولى (مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر) .

ومن المراجع (الكتب الحديثة) المتعلقة بتاريخ الجاهلية ·

تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي (راجع ص ٢٢) .

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، تأليف عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٤٩ .

العرب قبل الاسلام . تأليف جرجي زيدان . القاهرة ١٩٥٧ .

العرب من معين الى الامويين . تأليف ضرار صالح ضرار . بيروت ١٩٦٣ .

عصر ما قبل الاسلام ، تأليف محمد مبروك نافع . القاهرة ١٩٥٢ .

العرب في سورية قبل الاسلام ، تأليف رينه ديسّو (ترجمة عبدالحميد الدواخلي) ، القاهرة ١٩٥٩ .

خلاصة تاريخ العرب . تأليف لويس أميل سيديو (معربة عن الفرنسية) مصر ١٣٠٩ هـ .

تاريخ العرب (مطوّل) ، تأليف الدكتور فيليب حتّي (نقله الى العربية أدورد جرجي وجبرائيل جبور) ، بيروت ١٩٤٩ — ١٩٥١ .

الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، تأليف الدكتور أسد رستم ، بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ .

محاضرات في تاريخ العرب : الدول العربية قبل الاسلام ، تأليف صالح أحمد العليّ ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٥٩ .

العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، بيروت ١٩٥٨ .

اليمن : ماضيها وحاضرها ، تأليف الدكتور احمد فخري ، القاهرة (معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة) القاهرة ١٩٥٧ .

أمراء غسان ، تأليف تيودور نولدكه (نقله الى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق) ، بيروت ١٩٣٣ .

تاريخ ملوك الحيرة ، تأليف علي الاعظمي ، القاهرة ١٩٢٠ .

بين الحبشة والعرب ، تأليف عبدالمجيد عابدين ، مصر .

أيام العرب في الجاهلية ، تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٤٢ .

أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، تأليف سعيد الافغاني ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٦٠ .

جغرافية شبه جزيرة العرب ، تأليف عمر رضا كحّالة ، دمشق ١٩٤٥ .

تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها مع خلاصة تاريخ مصروالشام والعراق وجزيرة العرب ، تأليف نعوم شقير ، القاهرة ١٩١٦ .

جزيرة العرب في القرن العشرين ، تأليف حافظ وهبة القاهرة ١٩٤٦ .

قلب جزيرة العرب ، تأليف فؤاد حمزة ، القاهرة ١٩٣٣ .

الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الساميّين ، تأليف مصطفى مراد الدبّاغ ، بيروت ١٩٦٣ .

بلوغ الارب في محاولة معرفة أحوال العرب ، تأليف محمود شكري الألوسيّ بيروت ١٩٢٤ — ١٩٢٥ .

عادات العرب في جاهليتهم ، تأليف محمد شكري الألوسي ، بيروت ١٩٢٤ .

العرب وأطوارهم : طور العرب والعربية في أطوار الجاهلية ، تأليف محمد عبدالجواد الاصمعي ، القاهرة .

بلوغ الارب في مآثر العرب ، تأليف محيي الدين بن ابراهيم العطّار ، عبيه ١٣١٩ هـ .

مدنية العرب في الجاهلية والاسلام ، تأليف محمد رشدي ، مصر ١٩١١ .

محاضرات أدبيات الجغرافية والتاريخ واللغة عند العرب ، تأليف أغناطيوس غويدي ، مصر .

العصبية عند العرب في الجاهلية والاسلام ، تأليف علي مظهر ، القاهرة ١٩٢٣

القيان والغناء في العصر الجاهلي ، تأليف ناصرالدين الاسد ، ١٩٦٠ .

مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، تأليف ناصرالدين الاسد ، القاهرة ١٩٥٦ .

ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة لهيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، بيروت ١٩٥٩ .

علم الفلك : تاريخه عند العروب في القرون الوسطى تأليف كرلو نلّينو (روما ١٩١١) .

محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق :

— الجزء الثاني (دمشق ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

— عرب الجاهلية في مباذلهم للاستاذ عبدالقادر المغربي ، ص ١ — ٢٥ .

— الزبّاء أو زنوبيا ملكة تدمر للامير جعفر الحسني ص ٣٩٣ — ٤١١ .

— صلة الجاهلية بالعالم القديم للشيخ فؤاد الخطيب ، ص ٤٣٤ — ٤٦٣ .

مراجع أجنبية

المراجع الاجنبية المنقولة الى اللغة العربية والمذكورة مع المراجع العربية لا تذكر هنا :

Encyclopaedia of Islam (2ed. ed.), vol. I.

Encyclopaedia Britannica (11th. ed.), London 1911.

Lihyan und Lihyanisch, von Werner Caskel, Koeln 1953.

Die Dynastie der Lahmiden in al-Hîra, von Gustav Rothstein, Berlin 1899.

The Kings of Kindah or the Family of Akil al-Mirâr, by Gunner Olinder, Lund 1927.

Essai sur L'histoire des arabes avant l'islamisme, par Caussin de Perceval, 3 vols., Paris 1847-8.

فهرس أبجدي

لأعلام الاشخاص وللمدارك الفكرية

أما العلَم فيُشار الى كل صفحة ورد فيها ، وأما المدرك الفكري فيشار فقط الى الصفحة التي عُرّف فيها أو بدأ عرضه ومناقشته .

ح – في الحاشية ؛ م = ورد أكثر من مرة

(١) ابن سيده بكسر السين ، لا كما ورد في المتن بفتحها .

ت

ث

ج

خ

ك

ل

م

ه

و

دراسات وكتب للمؤلف

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ ـ الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ ـ عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ ـ عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ ـ الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ ـ ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ ـ احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ ـ ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ ـ أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ ـ شعراء البلاط الأموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ ـ الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ ـ اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ ـ خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ ـ بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ ـ نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠
١٥ ـ اخوان الصفا	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٦ ـ ابن باجّه	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٧ ـ ابن طفيل	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٨ ـ التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ ـ الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ ـ موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠
٢١ ـ ابو فراس		١٥٠

دراسات أخر

أبو نواس		١٥٠
العرب والفلسفة اليونانية		٢٥٠
حكيم المعرة (نقل الى الفارسية)	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
وثبة المغرب		٥٠٠
ابو العلاء المعري		٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة (نقل الى اللغة الانكليزية)	(الطبعة الثانية)	٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الرابعة)	١٥٠
نحو التعاون العربي		١٠٠
دفاعاً عن العلم		(نفد)
دفاعاً عن الوطن		٥٠
الأسرة في الشرع الاسلامي		٤٠٠

600 — Das Bild des Frùhislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode Umars, 1 - 23 d. H. (622 - 644 n. C., Leipzig 1937.

الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية)		٢٥
باكستان دولة ستعيش		(نفد)
التبشير والاستعمار في البلاد العربية	(الطبعة الثالثة)	٣٥٠
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط		١٥٠
شاعران معاصران : ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابيّ		٣٠٠
العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط		٣٠٠
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط		٤٠٠
المنهاج في الادب العربي وتاريخه	(للسنة الرابعة الثانوية)	٢٠٠

المنهاج في الادب العربي وتاريخه	(للسنة الخامسة الثانوية)	٣٥٠
المنهاج في الادب العربي وتاريخه	(للسنة السادسة الثانوية)	٥٠٠

(الكتب الثلاثة الأخيرة موضوعة حسب المنهاج الرسمي اللبناني)

الشابي شاعر الحب والحياة	٣٥٠
القومية الفصحى	١٠٠٠
تاريخ الفكر العربي	١٠٠٠
ابو تمام : دراسة تحليلية	٣٥٠
تاريخ الجاهلية	٣٥٠

طبع هذا الكتاب في مطابع
دار الكتب
بيروت - لبنان - ص.ب ٣٥٥٩